

بِحَمْدِ اللَّهِ

المختار

من البحوث والمقالات

الجزء الثاني

فهرس

الجزء الثاني من "المختار"

• مقدمة

- (١) الإمام موسى الصدر والمأثور الشيعي
- (٢) يا حسرة على العباد
- (٣) دعوة الأحياء "إيماننا"
- (٤) حب الدنيا
- (٥) هل أحكام القضاء أكثر قدسية من القرآن
- (٦) الحقيقة في تصادم الحضارات
- (٧) القضية التي هرب منها المثقفون
- (٨) منيرة ثابت "رائدة الصحافة العربية"
- (٩) المسألة الشعبية بين جورج صاند وجوستاف فلوبيير
- (١٠) إشكاليات التحديث في المجتمع المصري
- (١١) وقد يجمع الإرهاب "بوش ولينين وتروسكي"
- (١٢) عندما ينقلب المثقف من أصولي إلى ملحد
- (١٣) الموت في سبيل الله أم الحياة في سبيل الله
- (١٤) ندعو الله ألا تنهار الحضارة الأمريكية
- (١٥) لو أن محمداً لم يكن رسولاً نبياً
- (١٦) ليس للفقهاء أن يقولوا هذا حلال وهذا حرام
- (١٧) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
- (١٨) الداعية التربوي "حسن البنا"
- (١٩) التجربة الثمينة المجهضة "الجيش درع الشعب"
- (٢٠) درس طالبان
- (٢١) انتفاضة الموصوتات في بريطانيا
- (٢٢) حرية الإبداع

مُتَلَمَّتْ

يسر دار الفكر الإسلامي أن تقدم الجزء الثاني من "المختار" من البحوث والمقالات التي كتبها الأستاذ جمال البنا في الفترة من ١٩٩٧ حتى ٢٠٠٥، وإن لم ترتب حسب التواريخ، وإن بعضها كان قد كتب في ستينات القرن العشرين ولم يجد فرصته في النشر، وهذا لا يعني أننا قد أدرجنا هنا كل ما كتبه الأستاذ جمال البنا خلال هذه الفترة، فالحقيقة أننا لم ننشر إلا القليل منها.

وقد صدر هذا الجزء أكبر من سابقه، وهو يضم عدداً من المقالات والبحوث تاريخية واجتماعية وإسلامية، وقد يبدو بعضها بعيداً عن اهتمام مفكر إسلامي مثل "ندعو الله أن لا تنهار الحضارة الأمريكية لأنها رائعة رغم كل لوثاتها"، ومثل خطابات "جورج صاند وجوستاف فلوبير" التي كان جمال البنا قد ترجمها من الإنجليزية عندما قرأها في الستينات وظلت في أوراقه قرابة أربعين عاماً حتى قرأ رأياً في التعليم للأستاذ فريد أبو حديد يتفق مع رأي "جوستاف فلوبير" فأضافه إلى البحث، ثم قرأ أخيراً رأياً موافقاً لـ "نبوية موسى" فأضافه أيضاً حتى سنحت فرصة النشر فنشره في صورته الأخيرة.

ومما يؤثر عن الأستاذ جمال البنا قوله إن المفكر الإسلامي لا يستطيع أن يصدر رأياً إسلامياً في السياسة والاقتصاد إلا بعد أن يدرس الاشتراكية، ويدرس الاقتصاد ونظام البنوك.

ومما يعطي هذه المقالات أهمية أنها توضح موقف المؤلف إزاء بعض الأحداث السياسية والاجتماعية الجارية التي لا تذكر في الكثير، وأنها تظهر تطوره الفكري، وأن هناك أفكاراً كان لها طابع الثبوت بحيث لم تتغير المقالات الحديثة عما جاء في المقالات القديمة، وهي إحدى خصائص فكر جمال البنا، فهناك فكر تطور، ولكن هناك مواقف ثابتة بالنسبة لبعض القضايا مما ينم على أنه اختار موقفه مبكراً وثبت عليه.

وهناك إن شاء الله جزء ثالث ورابع للمقالات، ونسأل الله تعالى أن يوفقنا لنشرها.

القاهرة في جمادى الأولى ١٤٢٨ هـ
مايو ٢٠٠٧ م

الإمام موسى الصدر والمأثور الشيعي

يعود المأثور الشيعي إلى ما قبل الإسلام على ما سنوضحه، ولكنه تعرض للتطورات العديدة التي انتابت المجتمع الإسلامي، وبوجه خاص نظام الحكم، بحيث أنه وإن احتفظ ببعض القسّمات القديمة، فإن هذه التطورات كادت أن تغيره، وبوجه خاص بتأثير الحكم الصفوي عندما اندمجت الأساطير التي أوجدها الغلو بحيث جعله "فلكلورياً" وشعبياً بعيداً عن القيم التي كانت تميزه، وهو ما حاول المأثور الشيعي الحديث التخلص منه، والعودة إلى المأثور الشيعي الأصيل - الذي أطلق عليه المفكر الشيعي الدكتور على شريعتي "التشيع العلوي" في مواجهة التشيع الصفوي.

وتقصى مواقف الإمام موسى الصدر تثبت أنه حاول - قدر الطاقة - الأخذ بالمأثورة الشيعي الأصيل، واستبعاد ما استجد عليه أو ادمج فيه من اتجاهات مخالفة.
وسنرى تفصيل ذلك في العرض التالي:

نشأة المأثور الشيعي:

كما ذكرنا - يعود المأثورة الشيعي إلى ما قبل الإسلام وقد شرحنا هذه القضية بنوع من التفصيل في كتابنا "الإسلام دين وأمة وليس ديناً ودولة".

"كان أمر قريش قبل بعثة الرسول ردحاً من الدهر يعود إلى قصي بن كلاب الذي هيمن على مكة والبيت وكانت إليه الحجابة" أن تكون مفاتيح البيت عنده "والسقاية" يعني سقاية "زمزم"، وكانوا يصنعون منها شراباً في موسم الحج بعسل أو لبن، و"الرفادة" الطعام الذي يصنع لأهل الموسم "والندوة" دار الشورى، و"اللواء" أي "القيادة في الحرب"، وعندما مات قصي برز من أبنائه عبد مناف، وولد لعبد مناف عبد شمس وهاشم والمطلب ونوفل، فولى السقاية والرفادة هاشم دون أخويه عبد شمس والمطلب وروى أن عبد شمس وهاشم كانا توأمين ملتصقين فصل بينهما بسلاح، فقال العرافون إنه سيكون بينهما دم إلى الأبد وقامت منافسة ما بين هاشم وعبد شمس رجحت فيها كفة هاشم من كافة الوجوه بحيث خصوا هاشم بالسقاية والرفادة دون عبد شمس.

ويموت هاشم فيرث ابنه عبد المطلب مناصبه دون عبد شمس، ويموت عبد شمس ليخلفه ابنه أمية.

وقامت منافسة حادة ما بين عبد المطلب وأمّية لأن الخلاف في الطبايع جعل عبد المطلب يمثل "الموضوعية" وأمّية يمثل "الذاتية".

ومع أن الصورة المثلى للموضوعية هي ما تأتي به الأديان عن الله تعالى فإن طبيعة عبد المطلب كان فيها كل خلائق وصفات "الموضوعية" الدينية ألا وهي قيم الخير والحب والسلام والإيثار والانطلاق من هذه القيم والعمل بها، وكأنا أراد الله تعالى لنبيه أن يرث هذه الطبيعة حتى يكللها الوحي عند محمد - حفيد عبد المطلب بحيث يصادف هذا الوحي الطبيعة المهيأة له.

وعلى نقيض هذه الطبيعة كانت طبيعة أمية - الذاتية تمثل الأثرة وحب النفس والكسب والحرص على الدنيا والحكم على الأمور من هذه المنطلقات، ولهذا فلم يكن غريباً أن يشغل معظمهم بالتجارة وأن يحصلوا على ثروات طائلة.

وحاول أمية أن يفعل مثلما كان يفعل هاشم من إطعام بكرم وسخاء، وطيبة نفس، وكان هاشم يقدم الخبز واللحم والسمن والسويق والتمر، وعجز أمية عن أن يماثل هاشم في ضيافته لأنه كان يتكلفها وقامت "منافرة" بينهما أيهما أفضل يكون على الخاسر فيها أن يدفع خمسين ناقة سود الحدق لتتحرر، وأن يجلو عن مكة عشر سنين وكان الحكم بينهما في هذه المنافسة هو الكاهن الخزاعي بعسفان فحكم لهاشم على أمية، فأخذ هاشم الإبل فحررها وأطعم لحمها وخرج أمية إلى الشام، ترى هل كان خروج أمية إلى الشام حدثاً عارضاً، أو كان إيماءً لما سيحدث لحفيده " معاوية" فيما بعد؟ أقام أمية بالشام عشر سنوات يغلب أنها دعمت طبيعته الذاتية وخلائقه المادية، والتجارية، وكانت الشام وقتئذ تحت حكم البيزنطيين.

وتكررت القصة مرة أخرى، فقد نافر حرب بين أمية عبد المطلب بن هاشم من أجل يهودي كان في جوار عبد المطلب فما زال أمية يغري به حتى قتل وأخذ ماله.

وظهر جلياً أن هذين الفرعين من عبد مناف يختلفان اختلافاً جذرياً فأمية يمثل الاتجاه الذاتي وهاشم يمثل الاتجاه الموضوعي.

فلما أعلن الرسول بعثته اشتدت عداوة أمية لبني هاشم لأنهم جاعوا بما لا يمكن أن يأتوا به وأغلق الطريق أمام أي احتمال لكي يلحق بنو أمية ببني هاشم فأجج هذا العداوة القديمة، وقد كان من أبرز الأمويين المعادين للرسول أبو أحيحة سعيد بن العاص الذي هلك على شركه في السنة الأولى للهجرة وعقبة بن أبي معيط الذي قتل في بدر ومنهم الحكم بن أبي العاص بن أمية الذي أسلم تقية - وسيكون له دور مشؤوم في أزمة عثمان وما تلاها - وطرده الرسول من المدينة فأطلق عليه "طريد رسول الله"، ومنهم عتبة بن ربيعة بن عبد شمس الذي قتل ببدر وعتبة هذا هو أبو هند التي تزوجت أبا سفيان بن حرب والتي مثلت بجسد حمزة في أحد، إذ كان هو الذي قتل أباه في بدر، وقد أمر الرسول بقتلها، ولكنها أسلمت وبايعت الرسول متكررة، ومنهم الوليد بن عتبة بن ربيعة الذي قتل في بدر قتله على بن أبي طالب وهو خال معاوية، ومنهم شيبه بن ربيعة بن عبد شمس عم هند وقتل ببدر، ومنهم أم جميل بنت حرب بن أمية التي أطلق عليها القرآن "حماله الحطب" التي كانت تنشد الشعر في ذم الرسول ومنهم معاوية بن المغيرة بن أبي العاص بن أمية وهو الذي جدع أنف حمزة ثم لاذ بعثمان ليحميه من رسول الله فوهبه لعثمان على أن يغادر المدينة بعد ثلاث، ولكنه لم يخرج منها إلا رابع يوم فأدركه أسامة بن حارثة وعمار بن ياسر فقتلاه، ومنهم أبو سفيان صخر بن حرب بن أمية قائد الأحزاب وأحد، ولم يزل يجادل الرسول ويحاربه حتى أخذ الرسول يستعد لفتح مكة فجاء أبو سفيان ليتعرف الأخبار وكاد المسلمون أن يوقعوا به لولا أن حماه العباس لأنه كان صديقه وزميله في الجاهلية، وعندما شاهد أبو سفيان الجيش الإسلامي وهو يسير إلى مكة قال للعباس لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً فقال له العباس: إنها النبوة، ولكن أبا سفيان كان يعود فيتحدث عن ملك ابن أخيه"، وعرض عليه أن يسلم فشهد أن لا إله إلا الله، ولما طلب منه أن يتم "محمدًا رسول الله"، قال أما هذه ففي النفس منها شيء فقيل له آمن وملك قبل أن تقتل.. فأمن.

من هنا يتضح أن عداوة بنى أمية لبني هاشم عريقة وأنها امتدت إلى عداوة الإسلام بحيث أصبح بنو هاشم يمثلون الإسلام وما فيه من موضوعية وبنو أمية يمثلون الدنيا وما فيها من ذاتية وأن هذا كان في أصل العداوة التي عبر عنها الشاعر:

عبد شمس قد أضمرت لبني هاشم ناراً يشيب منها الوليد
فابن حرب للمصطفى، وابن هند لعلي، وللحسين يزيد^(١)

* * *

كان علي بن أبي طالب هو - بعد الرسول - الذي انتهت إليه الشرائع الهاشمية، وأصبح ممثلها، في مواجهة الشرائع الأموية التي كان يمثلها معاوية بن أبي سفيان.

كان الرسول يؤثر علياً، ويحبه محبة خاصة عبر عنها عندما زوجه - دون الآخرين ابنته الحبيبة فاطمة - وكان يعلم، وهو زهرة بنى هاشم أن علياً هو خليفته في هذا الأمر، هو الذي يحمل الشرائع والخرافع الهاشمية النبوية - في مواجهة - في مقابل تيارات الأثرة والأنانية وشهوات الدنيا.. الخ.

وعبر الرسول عن إعزازه لعلي وعن خصوصيته له في مناسبتين:

الأولى عندما استخلفه على المدينة لما خرج لغزوة تبوك، وأراد علي أن يصحب الرسول، ولكن الرسول قال له: "أما ترضى بأن تكون منى كهارون من موسى، غير أن لا نبي بعدي".

وجاءت المناسبة الأخرى في حادثة غدير خم - في السنة الحادية عشر للهجرة حيث قال: "من كنت مولاه؛ فعلى مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه.."، ونحن نأخذ بهذا الحديث، ولا نرى داعياً للتشكيك فيه لأنه روى عن كثير من الصحابة لأن معظم من أوردوه؛ بسند حسن، ولأنه ليس فيه من المعاني ما يثير اعتراضاً.

وولاية على (بفتح الواو) هي الإرث الأول والإضافة التي يفترض أن تقدمها الشيعة.

الولاية (بفتح الواو) هي الإرشاد الروحي، هي إشاعة الإيمان الذي تطمئن إليه النفوس وتقر به القلوب ويشيع السلام بين الناس، والولي يقوم بهذه المهمة التي يقوم بها الأنبياء عادة، وما يميز الأنبياء هو أنهم يقومون بها بوحى من الله تعالى، أما الأولياء فيقومون بها بأسوة من الأنبياء.

أراد الرسول أن يكون علياً خليفته في الولاية (بالفتح)، وليس في الولاية (بالكسر).

يضاف إلى الخصوصية التي منحها الرسول للإمام على وتمثلت في الولاية، طريقة حكم على عندما آلت إليه الخلافة، وكيف حاول أن يعيدها خلافة راشدة، وكيف قاوم كل دعاة السلطة، وكيف تعذب وعانى طيلة خلافته ثم استشهد في النهاية.

وتأتى الإضافة الثانية التي قدمها الإمام الحسين، وهى الشهادة التي تمثل التضحية بالنفس في سبيل الكرامة، وهذه قيمة عظيمة لو استظهرها المسلمون واستوعبوها لاختلف التاريخ الإسلامي لأنها حدثت بطريقة "مأساوية درامتيكية" عميقة التأثير.

(١) ابن حرب هو أبو سفيان، وابن هند هو معاوية، ويزيد هو ابن معاوية.

وتختلف شهادة الحسين عن شهادة الذين يقتلون في حرب مشروعة وفي سبيل الله في أنها شهادة مقصودة، فلم يكن هناك أي احتمال لنجاة ٧٢ رجلاً أمام بضعة آلاف وكان هناك منأى عنها في الاستجابة لمطلب زياد، ولكن الحسين رفض بإباء وأصر على أن يقتل أمام عينيه كل أفراد أسرته ثم يقتل هو نفسه في النهاية في مشهد يثير الحزن والأسى حتى بالنسبة لأقصى الناس.

وتمثل ولاية علي ابن أبي طالب وشهادة الحسين أبرز مكونات المأثور الشيعي الأصيل الأولى تمثل الهداية والثانية التضحية.

يضاف إلى هذين رافدان لم يكونا بعيدين عنهما. ففي أيام الرسول كان أعظم أنصاره إيماناً واحتساباً هم المستضعفون الذين تبينوا ما في الإسلام من حرية من رق، وسعة من ضيق مثل عمار بن ياسر الذي شاهد مقتل أمه وأبيه لإسلامهما، ومثل اللاجئين الذين لا عصبية قبلية لهم مثل سلمان الفارسي الذي طوحت به في الآفاق رغبته في الاهتداء إلى الإسلام حتى قدم المدينة وأسلم على يدي الرسول وأصبح من ألصق أصحابه به حتى روى أن الرسول قال: "سلمان منا أهل البيت".

ولم تكن تلك القسمة بعيدة عن طبيعة المأثور الشيعي، فقد كانوا هم أول من آمن بالأديان التي تمثل لهم التغيير والعدالة والمساواة، ومن الطبيعي أن يكون المطلب الأول لهذه الجماهير هو العدل الذي امتزج بالمأثور الشيعي.

* * *

نحن نضرب صفحاً عما تطفح به المراجع الشيعية عن توصية الرسول لعلي بالخلافة، وعن فكرة أن الله أرأف بعباده من أن يدعم دون هداية من أئمة معصومين، لأنها ظاهرة الوضع وهي تخالف ما اتفقت عليه الأمة طوال عهد الخلافة الراشدة وقد كان الإمام على حياً وبائع الشيخين ومحضهما النصح، فضلاً عن أن هذه الفكرة - فكرة التوصية - تخالف روح الإسلام وطبيعته التي لا تجعل لأحد فضلاً وسلطة بحكم النسب وأن الأمر أمر التقوى والكفاءة.

ونحن نؤمن أن التباس الولاية (بفتح الواو)، بالولاية (بكسرهما) إنما جاء نتيجة للالتباسات التي أدت إليها التطورات خاصة في المرحلة الأخيرة من حكم عثمان لخضوعه لسياسات بطانة السوء التي أفسدت عليه أمره فنحن نعتقد أن الإمام علياً، وابنه الحسن وابنه الحسين ما كانوا يعملون لولاية أو حكم، ولكن الأحداث فرضت عليهم فرضاً هذه الولاية واستفاض ذلك بين الناس دون أن يعلموا حقيقته حتى أصبح من الأمور التي تثير الدهشة أن يطمح معاوية في الحكم دون علي.

وهذا هو ما فهمه بعض أحفاده فقد قيل للحسن بن الحسين بن علي الذي كان كبير الطالبين في عهده، وكان وصى أبيه، وولى صدقة جده ألم يقل رسول الله "من كنت مولاه فعلى مولاه، فقال بلى ولكن لم يعن رسول الله بذلك الإمامة والسلطان ولو أراد لأفصح لهم به".

وقد عالج هذه النقطة أحد المؤرخين القدامى الذين أزعجه كالأخرين طموح بنى أمية، ثم توليهم بالفعل الخلافة، دون علي بن أبي طالب وهو المقرزي في رسالته "النزاع والتخاصم فيما بين أمية وهاشم"، فقال: "فإني كثيراً ما كنت أتعجب من تطاول بنى أمية إلى الخلافة مع بعدهم من جذم رسول الله وقرب بنى هاشم - وأقول كيف حدثتهم أنفسهم بذلك وأين بنو أمية وبنو مروان بن الحكم طريد رسول الله ولعينه من هذا الحديث

مع تحكم العداوة بين بنى أمية وبنى هاشم في أيام جاهليتها ثم شدة عداوة بنى أمية لرسول الله ومبالغتهم في أذاه وتماديهم على تكذيبه".

ويستطرد:

وما زلت طول الأعوام الكثيرة أعمل فكري في هذا وأشباهه التي يطول ذكرها وأذاكر به من أدركت من مشيخة العلم ومن لقيت من حملة الآثار ونقلة الأخبار فلا أجد في طول عمري سوى رجلين: إما رجل عراه ما عراني وساءه ما قد دهاني فهو يحذو في المقال حذوي ويشكو من الألم شكواى وإما رجل يرتع في ميدان تقليده ويجول في عرصات تهوره وتفنيده فلا يزيدني على التهويل والهدر الطويل إلى أن اتضح لي والحمد لله وحده سبب أخذ بنى أمية الخلافة ومنعها بنى هاشم وذلك أنه لا خلاف بين أئمة الحديث ونقاد الأخبار وعلماء السير والآثار أن رسول الله توفى وعامله على مكة أبو عبد الرحمن عتاب بن أسيد بن أبي العيص بن أمية بن عبد شمس القرشي الأموي أحد من أسلم يوم فتح مكة وأنه لم يزل على مكة منذ فتحها الله على رسول الله عام ثمان من الهجرة إلى أن توفاه الله عز وجل فأقر أبو بكر الصديق رضى الله عنه عتابا حتى ماتا في يوم واحد وكان النبي قسم اليمن بين خمسة رجال خالد بن سعيد على صنعاء، والمهاجر بن أبي أمية على كندة، وزباد بن لبيد على حضر موت ومعاذ بن جبل على الجند، وأبا موسى الأشعري على زبيد وزعم وعدن، فكان عامل رسول الله على صنعاء اليمن كما تقدم خالد بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بعثه إليها سنة عشر من الهجرة فتوفى رسول الله وخالد على اليمن وكان أبان بن سعيد بن العاصي بن أمية على البحرين برها وبحرها منذ عزل العلاء بن الحضرمي حليف بنى أمية وقيل بل مات رسول الله والعلاء على البحرين وكان عمرو بن سعيد بن العاص بن أمية على تيماء وخيبر تبوك وفدك.

فإذا كان رسول الله قد أسس هذا الأساس وأظهر بنى أمية لجميع الناس بتوليهم أعماله فيما فتح الله عليه من البلاد كيف لا يقوى ظنهم ولا ينبسط رجاؤهم ولا يمتد في الولاية أملهم أم كيف لا يضعف أمل بني هاشم وينقبض رجاؤهم ويقصر أملهم.

فانظر كيف لم يكن في عمال رسول الله ولا في عمال أبي بكر وعمر رضى الله عنهما أحد من بنى هاشم فهذا وشبهه هو الذي حدد أنياب بنى أمية وفتح أبوابهم وأترع كأسهم وقتل أمراسهم.

لما كانت بنو هاشم من بنى قريش اختصها الله سبحانه بهذا الأمر أعنى الدعوة إلى الله تعالى والنبوة والكتاب فحازت بذلك الشرف الباقي وكانت أحوال الدنيا من الخلافة والملك ونحوه زائلة لهذا واراها الله تعالى عنهم تنبيها على شرفهم وعلو مقدارهم فإن ذلك هو خيرة الله لنبيه محمد كما ثبت أنه لما خير اختار أن يكون نبيا عبداً ولم يختار أن يكون نبيا ملكا وسأل مثل ذلك لآله".

وقطع المقرئزي بأن علي بن أبي طالب كان يعلم أن رسول الله يربأ ببني هاشم عن ولاية الأعمال وقال "وقد كان غير واحد من فضلاء الصحابة رضى الله عنهم يعلم أن البيت أرفع قدراً من أن يبتليهم بأعمال الدنيا مثل عبد الله بن عمر بن الخطاب الذي سأل الحسين: أين تريد؟ قال العراق. قال: لا تأتهم. قال: هذه كتبهم وبيعتهم، فقال: إن الله عز وجل خير نبيه بين الآخرة والدنيا فاختر الآخرة ولم يرد الدنيا وإنك بضعة من رسول الله والله لا يليها أحد منكم وما صرفها الله عنكم إلا للذي هو خير لكم فارجع. فأبى الحسين وقال: هذه كتبهم وبيعتهم، فاعتنقه عبد الله بن عمر وقال: استودعك الله من قتيل فكان كما قال ابن عمر، وكذلك قال عبد

الله بن عباس رضى الله عنهما للحسين: والله يا ابن أخي ما كان الله ليجمع لكم بين النبوة والخلافة وهذا من فقههما" .. انتهى

والأمر المحقق هو أن ولاية الإمام علي بن أبي طالب أصبحت بعد مقتل عثمان مطلباً جماهيرياً، قدر ما أصبحت ضرورة إزاء تعقد الأمور والتباسها، ولعل الإمام على قبل هذا أملاً في الإصلاح، ولأنه كان المؤهل الوحيد لذلك.

ولكن انشقاق معاوية وحربه وما أدى إليه هذا من أن يضرب المسلمون أعناق بعض جعل الخلافة كرباً وعندما شاهد الإمام على طلحة معفراً في التراب وقف عليه وتمنى لو أنه مات قبل هذا اليوم بعشرين عاماً.

لقد تنبه الإمام الحسن إلى التغيير الذي انتاب المأثور الشيعي بفعل الأحداث ورفض أن يعيده، ولم تكن قومة الحسين وهي إحدى جذور المأثور الشيعي - طلباً للحكم، ولكن ثورة على الظلم وتلاقت فيه خصيستان من خصائص المأثور الشيعي، التضحية واستهداف العدل، كما يمكن القول أن هذا ينطبق على زيد بن علي زين العابدين.

ويروى لنا ابن كثير في "البداية والنهاية" أن الحسن نصح والده عندما حوصر عثمان وأصبحت المدينة تموج بالفتنة موج البحر أن يترك المدينة حتى لا يقتل عثمان وهو فيها وأن لا يبايع بعد قتله حتى يبعث إليه أهل كل مصر ببيعهم، وأن يجلس في بيته عندما خرجت عائشة وطلحة والزبير حتى يصطلحوا ورد عليه أبوه "أما قولك أن أخرج قبل مقتل عثمان فقد أحيط بنا كما أحيط به، وأما مبايعتي قبل مجيء بيعة الأمصار فكرهت أن يضيع هذا الأمر وأما أن أجلس وقد ذهب هؤلاء إلى ما ذهبوا إليه فتريد مني أن أكون كالضيع التي يحاط بها ويقال ليست ها هنا حتى يشق من عرقوبها فتخرج فإذا لم أنظر فيما يلزمني في هذا الأمر ويعينني فمن ينظر منه فكف عنى يا بنى".

من هذا كله يتضح أن فكرة الولاية والحكم لم تكن هدفاً لعلي، ولا للحسن وللحسين، وإنما فرضتها الأحداث بحيث أصبحت ضرورة لامناص عنها، ولم تقبل إلا على أساس أنها على سوءها أفضل من الأسوأ الذي كان سيحدث لو رفضت، وظل ذلك هو اتجاه علي زين العابدين الذي كان يعد أتقى عصره، واطرح الدنيا حتى تمثلت فيه الولاية خير تمثيل واكتسب من حب الجماهير وتوقيرها ما جعلهم يلتفون حوله ويتركون الخليفة الذي تساءل من هذا؟ ورد الفرزدق بأبياته المشهورة:

هذا ابن خير عباد الله كلهم هذا التقى النقي الطاهر العلم
وليس قولك من هذا بضائره العرب تعرف من أنكرت والعجم
إذا رأته قريش قال قائلها إلى مكارم هذا ينتهي الكرم

وهكذا نجد أن المأثور الشيعي في أيامه الأولى وأيام الإمام على والإمام الحسين تمثل في أربعة عناصر الأولى الولاية (بفتح الواو) التي أضفاها الرسول على الإمام علي، والثاني الشهادة التي قدمها الإمام الحسين عندما أثار الاستشهاد على الاستسلام، وثالثها الولاء للجماهير والمستضعفين، وأخيراً أن يكون الهدف العدل والمساواة وتحقيق كرامة الإنسان.

ولكن التطورات السريعة المتلاحقة والتباس الأمور جعل فكرة الولاية والحكم تبدو وكأنها الحق المشروع والهدف المبرر للإمام علي وسلالته، ثم تأكد هذا وأصبح أمراً مقضياً بفضل الخط السياسي الذي

تبناه الإمام جعفر الصادق وأنهى به عهد المأثور الشيعي الأصيل - مأثور الولاية الذي وصل إلى ذروته عند زين العابدين.

وقد عاصر جعفر الصادق جعفرًا آخر هو أبو جعفر المنصور الذي كان جبار الدولة العباسية كما كان عبد الملك بن مروان جبار الدولة الأموية، وكان كل من الجعفرين رجل دولة بمعنى الكلمة كان الأول يمارس سياسته في العلن ويصول ويجول بسيف الدولة وذهبها، وقد لاقى أهل البت على يديه الأهوال، أما الثاني فلم يكن أمامه خيار إلا أن يدخل بالدعوة الشيعية في نفق السرية المظلم الطويل، وأن يستبعد ظاهرياً أي مطالبة بحكم، بل وأن يرفضها عندما تأتي إليه، فقد رأى بحصافته وذكائه أن الطريق طويل ولا يمكن مجابهة الدولة العباسية وهي في أوج قوتها، فلجأ إلى التنظيم السري وبيت الأعوان وأطلق أيديهم في العمل وأشاع هؤلاء عشرات الألوف من الأحاديث نسبوها إلى جعفر الصادق عن عصمة آل البيت وعن قوة الأئمة الخفية وأن رضا الله من رضاهم.. الخ، وعن "الجفر" الذي فيه علم الأولين والآخرين وعن مصحف فاطمة.. الخ، وازدهر في النفق المظلم العمل السري وحدثت التحولات التي جعلت من الضرورات السيئة له مبادئ نبيلة، كما يصور ذلك الإيمان بالتقية أي إظهار المسايرة خلاف الحقيقة والواقع والحرص عليها، وزواج المتعة الذي كان يريح الداعية السري الذي تلاحقه عيون وحراس السلطان من أعباء الأسرة والأولاد، وأمور أخرى عديدة كانت من الضرورات السيئة للعمل السري، ولكنها اعتبرت فضائل وأصول، وهذا الانعطاف، أو قل الانحراف في الدعوة الشيعية هو الذي قدم إليها مآثراتها التي طفحت بها الكتب، وتغلغلت في نفوس الاتباع وكلها دخيلة، وبعيدة، بل مناقضة، لروح الإسلام ولمقتضيات الولاية التي أنسيت في خضم الأحداث وعلى مدار الأجيال المتوالية حتى نجحت في النهاية في إقامة دولة شيعية تقوم على المأثور الدخيل الذي أصبح هو الصميم على يدي الدولة الصفوية.

ولما كانت العناصر التي قام عليها المأثور الصفوي هي مما لا ينهض عليه أي نظام للحكم فقد تعرض الحكم الصفوي للمزاق التي قضت عليه وأظهرت دولة قاجار التي لم تكن ترفض المبدأ الشيعي ولكنها لا تعمل لتطبيقه لا في صورته النقية ولا في صورته المشوهة، ولما كان حكم القاجار ضعيفاً متخبطاً فإن الأمور سمحت بظهور قائد عسكري غشوم وأن ينصب نفسه للحكم ويبدأ أسرة "بهلوي" الحاكمة حتى نحى عن الحكم بيد الحلفاء في الحرب العالمية الثانية وحكم ابنه الشاب رضا بهلوي الذي كان جاهلاً غشوماً، أفسده الحكم المطلق وملق الحاشية وطاعة الاتباع وظهر أن القوة الوحيدة التي يمكن أن تتصدى له هي قوة أئمة الشيعة وظهر من بينهم شيخ نابغ كان رجل دولة بقدر ما كان رجل دين قاد الثورة على رضا بهلوي ونجح في إسقاطه رغم كل ما كدسه من سلاح وعتاد ومال وأعلن هذا الشيخ - الإمام الخميني مرة أخرى ظهور الدولة الشيعية.

كانت المشكلة أمام الخميني أن المأثور الشيعي الذي هيمنت عليه واستوعبته الحقبة الصفوية ومولاته حتى الثمالة بصور من الغلو وتقديس الأضرحة أو الأعتاب (العتبات) كما يقولون وعصمة الأئمة.. الخ، لم يكن ليعين على بناء الدولة، خاصة وأن الفكر الإيراني كان قد تقدم بفضل احتكاكه بالغرب وآراء مصلحين مثل علي شريعتي، بل كان في أئمة الحوزات من توصل إلى فكرة "تقدمية" عن الدولة مثل آية الله شريعة مداري وآية الله طلقاني ولكن هذا كله لم ينجح في زحزحة الركاب الثقيل والغشاوات المتكاثفة التي أثرت حتى على الخميني نفسه بحيث أنه تخلص من أفضل أعوانه السابقين، بما فيهم خليفته آية الله منتظري الذي فزع لما رأى من انتهاكات للحريات، وعندما وضع الخميني الدستور جعل السلطة الحقيقية في يد مرشد الثورة، بينما

جرد رئيس الجمهورية منها ووضع قيوداً ثقيلة على حرية انتخاب أعضاء مجلس الشورى.. الخ، بحيث كبلت الديمقراطية الإيرانية بالقيود وأصبحت تسير في مربع مرسوم لها لا يجوز أن تتخطاه، وأوجد هذا أزمة يمكن أن تتفاقم ويمكن أن تصل بإيران إلى حدود الحرب الأهلية.

* * *

لعلنا قد عرضنا - بقدر ما يسمح به المجال مقومات وخصائص المأثور الشيعي حقيقته ووقائعه أصلية وطارئة، فإذا راجعنا مواقف الإمام موسى الصدر نجد أنه احتفظ بأفضل ما في هذا الموروث وابتعد عن أسوأ ما فيه فدخلها من باب الولاية (بفتح الواو) لا الولاية وتقبلته شيعة لبنان، ورحبت به، وأعطته ثقته فكان عند حسن الظن ومحل الثقة، فجمع أشناتها ووجد صفوفها وعمل جاهداً لخدمتها بمختلف صنوف الإصلاح والعمل في المجالات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وكافح لكي ينال لها حقوقها المشروعة كمجموعة من أكبر مجموعات الوطن اللبناني، واتسم في هذا كله بالكياسة والحكمة والذوق والأدب وكأنه وضع نصب عينيه الآية (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ) (١٥٩ آل عمران)، فكان في حرصه وحبه وإخلاصه للمستضعفين أمينا على المأثور الشيعي، وكان في سعيه لإنصافهم سائراً على مسيرة العدل التي هي إحدى سمات المأثور الشيعي، كما كانت خلافه صورة من صور الشمانل الهاشمية شمانل الحسن والحسين وزين العابدين الذين انتفت منهم سمات الجبارين، المتعالين أو الثرة المترفين.

على أن علاقة الإمام موسى الصدر بالمأثور الشيعي لا تقتصر على اتباعه لأكرم وأجمل ما في هذا المأثور، بل تجاوزت ذلك إلى إضافة جانب قد يكون جديداً على هذا المأثور ذلك هو الابتعاد عن تلك الشنونة التي نجدها في كثير من كتاب الشيعة من إصرار على أنهم يمثلون الحق وأن غيرهم إنما يمثلون الباطل واستشهاداتهم بالأحاديث المنسوبة إلى جعفر الصادق أو أئمة المذهب وعزوفهم عن أي إشارة إلى السنة، إن كتابات موسى الصدر لا يمكن أن تفرق بينهما وبين كتابات المنصفين من السنة، فهي ترجع إلى القرآن الكريم والصحيح الثابت من الرسول، وكلها تستند إلى العقل والمنطق والسُنن التي وضعها الله للمجتمعات، ولدينا عدد من المحاضرات ما بين ١٩٦٥ و ١٩٧٠ ألقاها في بيروت والقاهرة، وأي واحد يقرأها يمتلكه الإعجاب بأصالة وموضوعية الفكر وتركيزه على الجوهر دون المظهر وبرهنته بالفعل والمنطق والآيات ومنهجه في معالجة موضوعاته، وقد كان موضوع محاضرة بيروت "الإسلام وثقافة القرن العشرين" (١٩٦٥)، كما كان عنوان محاضرة القاهرة "الأصالة الروحية - التطور" (عام ١٩٧٠).

إنه لا يعالج هذين الموضوعين معالجة تقليدية ولكنه نهجاً أصيلاً ينفذ إلى الأعماق كما يتسم بموضوعية شديدة.

وهذا النسق من الكتابة هو مما لا نجده في الكتابات الشيعية التقليدية ومما يمثل إضافة إلى المأثور الشيعي.

الأمر المثير والذي يمثل إضافة أصيلة لا في الفكر الشيعي وحده، ولكن في الفكر الإسلامي عامة هو هذا التقدير لقيمه الإنسان، إن الإنسان قضية منسية مجهولة في الفكر الإسلامي قديماً وحديثاً وكلام الإمام الصدر عنه يصدر عن يقين يتلاقى فيه حرارة العاطفة، مع الارتكاز على النص القرآني والرسولي.. الإيمان بالله.. وخدمة الإنسان، كما يمكن أن يقال على إبرازه وإيمانه بالتعددية ما بين الشعوب وما بين الأديان

والسماحة الخالصة، والإيمان المؤكد أن الأديان جميعاً واحدة وأن الأنبياء أخوة، وأن الشرائع هي التي يمكن أن تختلف باختلاف العصور والأوضاع.

وفي محاضراته في كنيسة الكبوشين قال:

كانت الأديان واحدة حيث كانت في خدمة الهدف الواحد: دعوة إلى الله وخدمة للإنسان، وهما وجهان لحقيقة واحدة.

ثم اختلفت عندما اتجهت إلى خدمة نفسها أيضاً، ثم تعاضمت اهتمامها بنفسها حتى كادت أن تنسى الغاية، فتعاضمت الخلاف واشتد وازدادت محنة الإنسان والأمة.

كانت الأديان واحدة تهفو إلى غاية واحدة: حرب على آلهة الأرض والطغاة ونصرة للمستضعفين والمضطهدين، وهما أيضاً وجهان لحقيقة واحدة، ولما انتصرت الأديان وانتصر معها المستضعفون وجدوا أن الطغاة غيروا اللباس وسبقوهم إلى المكاسب، وأنهم بدعوا يحكمونهم باسم الأديان، ويحملون سيفها، فكانت المحنة المتعاضمة للمضطهدين وكانت محنة الأديان والخلافات فيما بينها، ولا خلاف إلا في مصالح المستغلين.

كانت الأداة واحدة، لأن المبدأ الذي هو الله واحد. والهدف الذي هو الإنسان واحد، والمصير الذي هو هذا الكون واحد، وعندما نسينا الهدف وابتعدنا عن خدمة الإنسان، ونبذنا الله وابتعدنا فأصبحنا خرقاً وطرائق قدداً، وألقى بأسنا بيننا ووزعنا الكون الواحد، وخدمنا المصالح الخاصة وعبدنا آلهة من دون الله وسحقنا الإنسان المعذب لكي ننجو من عذاب الله.

نلتقي لخدمة الإنسان المستضعف المسحوق والممزق لكي نلتقي في كل شيء، ولكي نلتقي في الله فتكون الأديان واحدة.

(لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ).

هذا ما قاله القرآن الكريم.

وفي هذه الساعة، في الكنيسة، في أيام الصيام خلال موعظة دينية، وبدعوة من المسؤولين الملتزمين، أجد نفسي في وسط الطريق إلى جانبكم، أجد نفسي واعظاً متواضعاً، قانلاً ومستمعاً، أقول بلساني واستمع بجناني بشهد لنا التاريخ فنستمع له فيستمع لنا، يشهد التاريخ للبنان، بلد اللقاء، بلد الإنسان، وطن المضطهدين ومأمن الخائفين، وفي هذه الأجواء، وفي هذا الأفق السامي، نتمكن من أن نستمع إلى النداءات الأصيلة السماوية، لأننا اقتربنا من ينباع.

ونستلهم من هذه الأقوال خلال هذه الشهادات نعود إلى الإنسان لنبحث عن القوى التي تستحق، وعن القوى التي تفرق الإنسان هذا العطاء الإلهي، هذا المخلوق الذي خلق على صورة خالقه في الصفات خليفة الله في الأرض، الإنسان هذا هدف الوجود وبداية المجتمع والغاية منه والمحرك للتاريخ الإنسان هذا، يعادل ويساوي مجموعة طاقته لا لما اتفقت عليه الفلسفة والفيزياء في قرننا هذا من إمكانية تحول المادة كل المادة إلى الطاقة، بل لما تأكده الأديان والتجارب العلمية "أن ليس للإنسان إلا ما سعى"، وأن الأعمال تخلد، وأن الإنسان عدا إشعاعاته في مختلف الأفاق لا يساوي شيئاً، لذلك فبقدر ما صُننا طاقات الإنسان ونميناها بقدر ما كرمناه وخذناه.

وإذا كان الإيمان، ببعده السماوي، يعطى الإنسان اللانهائية في الإحساس، واللانهائية في الطموح.
وإذا كان الإيمان، ببعده السماوي، يحفظ للإنسان الأمل الدائم، عندما تسقط الأسباب، ويزيل عنه القلق،
وينسق بينه وبين بنى نوعه من جهة، وبينه وبين الموجودات كلها من جهة أخرى.

إذا كان الإيمان، بهذا البعد، يعطى الإنسان هذا الجلال وهذا الجمال.
فإن الإيمان ببعده الآخر يسعى لصيانة الإنسان وحفظه، ويفرض المحافظة عليه، وسنؤكد عدم وجود
الإيمان دون الالتزام بخدمة الإنسان.. انتهى.

وأي وطني لبناني عريق يمكن أن يقول مثل ما قاله هو:

"ولبنان بلدنا.. البلد الذي يعتبر إنسانه رصيده الأول والأخير، إنسانه الذي كتب مجد لبنان بجهده
وبهجرتة وبتفكيره وبمبادرتة، إنساننا هذا هو الذي يجب أن يحفظ في هذا البلد.

فإذا كان لغير هذا البلد، بعد الإنسان ثروة فثروتنا في لبنان، من المعابد حتى الجامعات والمؤسسات،
يتجه نحو صيانتة، وصيانتة بصيانه إنسانه، كل إنسان كله، وفي مختلف مناطقه.

وإذا أردنا أن نصون لبنان، إذا أردنا أن نمارس شعورنا الوطني، إذا أردنا أن نمارس إحساسنا الديني
من خلال المبادئ التي عرضت فعلينا أن نحفظ إنسان لبنان كل إنسانه وطاقتها لا بعضها".

* * *

وأخيراً، فلعل أهم توافقات الإمام موسى الصدر مع المأثور الشيعي هي نهايته الغامضة التي جعلته
يستحق لقب " الإمام المغيب"، فقد استضافه أحد الحكام، وذهب الرجل بكل طيبة وإخلاص ليختفي بعد ذلك
إلى الأبد، فهل في أئمة الشيعة المحدثين من رزق مثل هذه النهاية المأساوية التي تتفق تماماً مع نهايات عدد
من كبار الأئمة السابقين الذين وقفوا عند الإمام الثاني عشر الإمام الغائب والذين لاقوا نهايتهم على أيدي
الطغاة المستبدين (*).

(* ألقى البحث في المؤتمر الخامس عن فكر الإمام موسى الصدر، بيروت، ٢٠/١٩ نوفمبر ٢٠٠٠.

يا حسرة على العباد

ماذا يعرض لنا تاريخ الإنسان أكثر من مشاهد الاستبداد والتحكم والطغيان ؟ وماذا يجد أكثر من الحروب التي يقتل فيها الألوف المؤلفة ؟ ويشوه فيها أضعاف ذلك، وتدمر المدن، وتخرب البيوت الآمنة ولا يحدث هذا مرة ؛ ولكن مرات، ولا لشعب واحد ولكن لكل الشعوب ولا يقتصر على الماضي ؛ ولكنه يبقى حتى اللحظة الراهنة التي شاعت فيها الحريات وامتدت حقوق الإنسان، بل لقد ظهر أخيراً العديد من عتاة الطغاة يتلاعبون بمصائر المنطقة ويرتهنون شعوبها في شبكة محكمة من التجسس والإرهاب والقتل والتعذيب، بحيث عجزت الجماهير تماماً عن المقاومة، بل لقد عجزت أكبر القوى في العالم أمام خداعهم ومكرهم وتحايلهم.

وهل هناك أعجب من أن يظهر قائد لا يدخل معركة إلا خسرها، ولا يرسم خطة إلا أفسدها، ويحكم بالمعتقات والسجون والتعذيب ثم ينهزم هزيمة ساحقة ماحقة تضع أعداءه في صميم بلاهه وتخسرهما مقدساتها ثم يقال له بطل القرن، وكل قرن، وعندما مات شيعت جنازته بضعة ملايين تجهش بالبكاء !

لقد عجز المتنبي عن أن يفهم ما هو أقل من هذا بكثير وقنع بأن يقول " أنه هجو الورى " :

وأسود مشفره نصفه يقال له أنت بدر الدجى
فما كان ذلك مدحاً له ولكنه كان هجو الورى !

ويحدث أن تفسح الطبيعة أمام الشعوب سبل التحرر ففتيح لهم الصحراء الواسعة التي يثير هواؤها الحرية وتحول طبيعتها دون بناء الحصون والسجون.. الخ، ولكن هذا لا يمنع من ظهور المستبد بطريقة أو بأخرى فقد وجد في صحراء نجد قديماً حجر بن الحارث الذي سيطر عليها وحكم قبائلها، وعندما تمردت عليه بنو أسد حاربهم وهزمهم وأنف أن يقتل أسراهم بالسيف وإنما انهال عليهم ضرباً بالعصا حتى ماتوا وقيل فيهم "عبيد العصا"، وأسوأ، وأذل من قتلهم بالعصا ما أعترز به شاعرهم وما حاول أن يكسب به قلب هذا المستبد الطاغى.

ومنعتهم نجداً فقد حلوا على وجل تهامة
أما تركت تركت عفواً أو قتلت فلا ملامة
أنت المملك فوقهم وهم العبيد إلى القيامة
ذلوا لسوطك مثلما ذل الأشيفر ذو الخزامة

وكان بعض جبابرة العرب الأقدمين يقيسون عزهم بإذلالهم للآخرين، ومن ثم قيل " لا حر بوادي عوف" لأنه (عوف) يسود على من يحل بواديه، فيصبح كالعبد سواء بسواء.

وحتى ذلك الامتياز البغيض الذي كان يتمتع به اللوردات والبارونات في العصور الوسطى "حق الليلة الأولى" الذي كان يعطي السيد الحق في قضاء الليلة الأولى مع كل عروس يعقد عليها أحد "الأقنان" الذين

كانوا يقومون بفلاحة الأرض وظل موجوداً حتى القرن الرابع عشر، هذا الامتياز وجد في الجزيرة العربية، فأمر "عمليق" ملك طسم وجديس أن لا تزف فتاة من جديس إلى أهلها حتى تزف إليه أولاً.

وهذه الصور من الممارسات، توضح أن طبيعة ودناءة الاستكبار والفجر واحدة في الشرق والغرب، وفي أوربا، وفي الجزيرة العربية، وأنها حدثت في هذه الأقطار على تباعدها واختلاف أجوائها وأقوامها.

ذلك أن الظلم "من شيم النفوس"، وأنه مغروس في الطبيعة البشرية يظهر عندما تسمح له الظروف، ويمكن أن يستمر بصور متعددة، أو مخففة، فإن المدة طويلة ما بين - عبيد بن الأبرص - شاعر بني أسد الذي قال الأبيات السابقة والمنتبي الذي قال:

فما في سطوة الأرباب عيب وما في ذلّة العبدان عار

فإذا كانت الممارسة قد انتهت، فإن الفكرة هي هي.

عوامل عديدة أدت إلى هذا الموقف الذي جعل الجماهير تستسلم لطغاتها، وتسخر من منقذها وتستحق أسى القرآن " يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ " (يس: ٣٠).

من هذه العوامل أن الملايين نشأوا في مهاد الفاقة فتعرضوا للجوع والعري وانتاشتهم الأمراض وتأخر نموهم العقلي، والبدني والنفسي، وهناك من البحوث ما يثبت أن عدم تغذي الطفل ببروتين حيواني يحول دون نمو خلايا معينة في المخ، ويؤدي إلى تضاول الذكاء، ولا يمكن تعويض ذلك لو سنحت الفرصة لتغذية كاملة بعد أن أمضى طفولته محروماً.

فهل من العجب أن ينشأ هؤلاء وقد عدموا الجرأة وفقدوا الذكاء وانطمست عيونهم وهزلت صحتهم، فلا يملكون إقداماً ولا يستطيعون مقاومة، والحل الوحيد أمامهم هو الاستخداء للحاكم، وأن تكون الطريقة للتقدم هو تملقه والتفاني في طاعته.

إن الفاقة والجهالة مسئولان عن وجود هذا الجيش الجرار من العبيد الذين لا يكبلون بأغلال الحديد، ولكنهم يفقدون المبادأة والمقاومة.

وقد يكون من سوء حظ الجماهير والجماعات أن بعض دواعي قوتهم تتحول لتكون أسباب الهيمنة عليهم، فهم كأحاد لا قيمة لهم أمام النظم الإدارية والحكومية التي تفرض نفسها عليهم، ولكنهم ما أن يتجمعوا ليكتسبوا قوة، وليعوضوا باتحادهم ضعفهم كأحاد حتى تسيطر عليهم روح جمعية تفقدهم الاتزان وتجعلهم كقطيع يفقد كل فرد فيه إدراكه واتزانه ويتحرك مع الآخرين مدفوعاً بحركتهم، وكأنه موجة صغيرة من خط الموج العظيم الذي يتقدم ويتعالى ولا يقف أمامه شيء، وعندئذ يقودهم الخطيب المفوه والممثل القدير يسرون وراءه ويرددون صيحته.

وقد وصف الشاعر القدير شوقي الجماهير في عهد كليوباتراً، وكيف يوحون إليهم فينظلي عليهم:

اسمع الشعب ديون	كيف يوحون إليه
ملاً الجـو هتافاً	بحياتي قاتليه
أثر البهتان فيه	وانظلي الزور عليه
يا له من ببغاء	عقله في أذنيه

وما أكثر ما يتكرر في بلاد العرب ما رد به زميله.

حابي سمعت كما سمعت وراعني أن الرميــــــــــــة تحتفي بالرامي
هتفوا بمن شرب الطلا في تاجهم وأصار عرشهم فراش غرام
ومشى على تاريخهم مستهزنا ولو استطاع مشى على الأهرام

- ٢ -

في كتابنا "مسئولية الانحلال بين الشعوب والقادة كما يوضحها القرآن الكريم"، عالجننا فيما عالجننا هذه النقطة، ومع أن الكتاب ظهر سنة ١٩٥٢م، فإن شيئاً لم يتغير في هذه القصة طوال هذه الأعوام لأنه ميراث ألوف السنين ولا يمكن إزاحته بسهولة.

لقد عجبنا كما عجب لابوسيه - من العبودية المختارة - فمن المعقول أن يحارب الكبراء والمترفون والأغنياء والكهنة ومن إليهم الأنبياء والرسل والمصلحين الذين يحررون القطيع البشري، ويبددون ظلمات الجهالة المطبقة عليهم ويرفعون عنهم إصرهم والأغلال التي عليهم، أما أن تشارك الشعوب في ذلك، وتظاهر ظالمها على محرريها فهذا أمر عجاب.

لكي نفهم كيف يتأتى ذلك يجب أن نقدر قيمة العوامل الضاغطة على الشعوب، وفعل العمل المنظم الذي ينتظم جماهير الناس ويسلط بعضهم على بعض وأثر الترويض الدليل الذي يفرض فرضاً على الأغلبية الساحقة من الناس من المهد إلى اللحد.

لهذه العوامل قوة طاغية، ولما كانت القلة هي التي تنظمها لحسابها فإنها تهدف بها إلى تحطيم كافة قوى المقاومة في النفس وإمحاء المميزات الفردية، وصهر الشخصية الخاصة في بوتقة القطيع، لا يستثنى من ذلك الأعمال التنظيمية ذات المظهر الشعبي، كالانتخابات مثلا التي تكمن وراءها القلة تديرها لمصلحتها.

انظر إلى قوة العمل المنظم في الجيش والبوليس، ولماذا تحارب تلك الجموع الكثيفة، والقطعان المقادة - الجيوش - بعضها بعضاً؟ إن من المؤكد أن الجنود لا يفهمون شيئاً في السياسة العليا، ولا يرون مبرراً لكي يضحوا بنفوسهم الغالية ويقتلوا غيرهم، وإنما قيل لهم اذهبوا، فذهبوا، صدرت إليهم الأوامر، فانتظموا في موكب الموت أشد انسياقا من قطيع من الحملان يذهب إلى المرعي، ولعلهم ليسوا في حاجة دائماً إلى إصدار الأوامر، لأن الأوامر قد غرست أعماراً عميقة في نفوسهم وتفكيرهم، ومرنتهم مراناً آلياً، فما أن يرى الجندي ضابطاً حتى يرفع يده بالسلام العسكري، دون أن يطلب إليه ذلك وإذا عوتب في أمر ما صرخ بأعلى صوته إنه "عبد المأمور"، دون أن يستشعر مهانة أو ذلة.

فإذا أردت أن تعرف مصدر هذه الطاعة وسرها، فأنعم النظر في المران العسكري، وحلل طرق "الضبط والربط" ابتداء من ليلة التجنيد الأولى، حتى الليلة الأخيرة، إن كل حركة فيها، من قص الشعر، أو إلزام للتقشف، أو أمر بالطاعة العمياء، أو فرض لأساليب الضرب والشتم، أو تجريد لحق الاعتراض، ومنح من هو فوقه "بشريط" حق الحبس، والإيذاء، والعقاب، ثم بعد ذلك هذه "الطوابير" المتتالية، إن كل إجراء من هذه الإجراءات إنما يقصد به الإذلال وهدم الشخصية، والبطش بأي معنى خاص أو اعتزاز أو تحرر، وإبراز الطاعة والنظام كأنها الفضائل الحقة، هذه هي الوسائل التي تجعل من جندي الجيش "نفر" أو "دفعة"، وتصيره رقماً يندمج بدون تمييز في الرقم الكلي فلا ينظر إليه كإنسان له إرادة، وإنما أداة وحسب، فإذا صدرت

الأوامر إليه بإطلاق الرصاص، أطلقه، ولو على آله وإخوانه، وإذا قيل له "اضرب يا عسكري"، شرع عصاته وأخذ يضرب بلا رحمة، وإذا طلب إليه اقتياد عشرة أو عشرين من الشحاذين أو الباعة المتجولين، قادهم دون أن تتال منه حالتهم البائسة وفقرهم المدقع، وإذا ارتفع صوت البروجي نفذت إشارته بطريقة لا شعورية، كأنما هو صوت القضاء والقدر ! فعندما حاول الخديوي توفيق ورياض باشا تهدئة ثائرة المتمردين في الآلاي الثالث قبيل مظاهرة عابدين (٩ سبتمبر سنة ١٨٨١) المشهورة، وأطال معهم الحديث، ضرب البروجي نوبة "سونكي ديك"، فركب الجنود فوراً السونكي في رؤوس بنادقهم، وكانت هذه الحركة انتصاراً باهراً للأوامر المجردة ولسلطة البوق على كل العواطف الشخصية والمشاعر الخاصة، التي ولا بد أثارها حضور سيد البلاد الشرعي، واسترضائه للجنود.

وليس من الضروري أن يكون الفرد عضواً مجنداً في الجيش لكي تحمي شخصيته، إن نشأته في بيئة قاسية ضيقة رتيبة تنتهي به إلى النتيجة نفسها كما في أبناء الرقيق الذين كانوا ينشئون في بيئة العبودية وأبناء الطبقات الدنيا الذين يربيهم آباؤهم ليكونوا خدماً لأبناء سادتهم، كما أنهم هم أنفسهم خدم لهؤلاء السادة، وهو وضع للأسف الشديد منتشر في كثير من البيئات الشعبية التي ينشأ جمهورها على الاستكانة إلى الواقع والرضا به، وتكيف شخصياتهم على هذا الأساس، يهتف مصلح جري بالفلاح المسكين الذي قضى سحابة عمره يحرق قطعة صغيرة من الأرض ارتوت بالعرق أكثر مما ارتوت بالماء "أيها الفلاح الذي تشق الأرض بمحراثك، لماذا لا تشق به قلب مستعبدك"^(١)، فماذا يجد ؟ يجد ابتسامة بلهاء، لا فهم، ولا صدق، ولا استجابة، ويحس كأنه يتكلم بلغة أجنبية، وإذا أوعز الملاك إلى هؤلاء الفلاحين أنفسهم بقتله قتلوه، ولن يطلبوا لذلك إلا ثمن "العيار"، ومن أجل هذا لا يخشى الملاك المصريون دعاة الشيوعية في الريف المصري البائس، لأنهم يعرفون أن "دية" كل داعية هي بضعة قروش !

لقد انحدرت العبودية إلى هؤلاء الفلاحين لا في أصلاب آباءهم وأجدادهم - رقيق الأرض السابقين فحسب - ولكن أيضاً في ثنايا الترويض التربوي والنظام الاجتماعي والاقتصادي الذي يفترض وجود سادة وعبيد، وما دامت مثل هذه النظم موجودة، فلا بد أن يوجد العبيد في شكل فلاحين وأجراء، لأن العبد كائن اجتماعي، وليس كائناً طبيعياً (وهل يوجد في مملكة النبات والحيوان سادة وعبيد) ؟ وحياة هذا الكائن في بقاء النظام، وموته في هدمه، وذلك ما اهتدى إليه ببداهة الفنان، توفيق الحكيم في شهر زاد، إذ عندما يخشى العبد أن يقتله الملك:

☒ تسأله شهر زاد:

☒ هل تعرف كيف يقتل العبد ؟

☒ كيف ؟

☒ بتحريره.. !

- ٣ -

وفيما عدا ذلك فهناك عوامل أخرى تجعل الشعوب والجماعات تظاهر مستعديها، وتقاوم محرريها، وتستكين إلى الوضع القائم على ظلمه، وتتفر من الوضع الجديد على عدله...

(١) الكلمة تنسب أصلاً للسيد جمال الدين الأفغاني.

من هذه العوامل أن القلة الحاكمة، دائما غنية لديها المال، وهي تصطنع فريقاً كبيراً من غمار الشعب تمنحه القليل من المال وتبيحه جزءاً من السلطة، فيكون لها الخادم المطيع والحارس الأمين، وقد كانت الجنود قديماً مرتزقة تشرع رماحها لحساب سيدها، تحارب من حاربه وتسالم من سالمه، ومثل هؤلاء الجنود المرتزقة نظار المزارع والتفاتيح ووكلاء الدوائر الذين يتعسفون في جمع القروش لساداتهم من الفلاحين ويتفننون في طرق العسف والظلم إرضاء لرؤسائهم ومثلهم أيضاً هذا الجيش اللجب الذي يستخدمه الرأسماليون من رؤساء عمال وأمناء مخازن، وبوليس سرى، ومراقبي حسابات.. الخ، ومهمتهم جميعاً استثمار الثروة الكبيرة وتنميتها وحفظها والدفاع عنها وبهذه الطريقة الشيطانية يضمنون أن يعمل رؤساء العمال - وهم من العمال أولاً وأخيراً - لحسابهم لا للعمال، وأن يضعوا في خدمتهم خبرتهم الشعبية وفهمهم لطرائق عمل العمال، وقس على ذلك بقية الرؤساء في كل الطوائف الذين ينتزعون من الغمار ليصبحوا حاشية الرأسمالي والكبير ووسيلته في حكم الشعب.

وقد يظن أحد أن من الممكن أن يخدم شخص ما الرأسماليين والسادة ويضع نقودهم في جيبه ثم يستغفلهم، وهذا مستحيل، لأنه لن يكون حرّاً، وستقيده طبيعة العمل واللوائح والنظم وطرق الجاسوسية، فضلاً عن أن أموال الرأسماليين محروسة بملكات الحرص والشح والجشع وهي ملكات حساسة يقظة، لا يمكن أن تُستغفل، وما من رأسمالي يعطي أجراً إلا وهو يتأكد أن سيكسب أضعافه باسترقاقه للموظف وتحكمه فيه، وهو مصيب ولا شك.

وقد ثبت أن كون "الموظف" من الطبقة نفسها التي يسלט عليها ليس من شأنه أن يعرضه للتفريط في حق الرأسمالي، أو الميل إلى جانب طبقته، بل العكس إنه يكون أشد إفاداً للرأسماليين من غيره، لأنه سيكون من نوى الخبرة المباشرة، وقد كان أشد الرقباء عنثاً للصحافة وتضييقاً على الكتاب، هم من كانوا من قبل صحفيين أو كتاباً!.

وأغلب الظن أن العبيد والغلمان الذين أطلقهم سادة ثقيف في أثر الرسول عند عودته من رحلة الطائف، لو تركوا لأنفسهم لأمّنوا ولجمعتهم به أكثر من آصرة واحدة، ولكن وضعيتهم فرضت عليهم حربه فحاربوه.

وكما يستأنس الإنسان فصائل من الحيوان، ليستخدمها ثم يذبحها، أو يحارب بها الفصائل الأخرى، فكذلك يستأنس الرأسماليون أفراداً من الطبقات الدنيا ويطلقونهم عليها، وهنا يحدث في المجتمع الإنساني ما يحدث في مملكة الحيوان، فأشد الحيوانات على الذئاب هي الكلاب: فصيلتها المستأنسة، وأشد الموظفين على الفلاحين والعمال هم الطبقة المباشرة لهم المستأنسة منهم، وقد ترى في الصور التاريخية تابعاً للملك يحمل بازي الملك المدرب على الصيد، وهي صورة تمثل استئناساً مزدوجاً، بل لعل التابع المستأنس أشد استحقاها للنظر من البازي المستأنس، فإذلال وحش قد لا يكون شيئاً، ولكن إذلال نفس وفكر شيء يستحق التفكير، ولا سيما وأن الإنسان المستأنس لا يقل في التمسك بوضعيته المهينة عن الحيوان المستأنس وتنقلب في ناظره مقاييس الأشياء، فالسيد الحقيقي في نظر الخادم هو السيد القاسي، الشديد، المبذر، الذي ينفق بسخاء على ملذاته، ولا يقصر في إمتاع نفسه، ويحيا حياة السادة في نظر الخادم، ويزلزل هذا المعنى قصد السيد واعتداله، فإذا تواضع فنزل إلى درجة ملاطفة الخدم، فإن معنى السيادة يصاب بصدمة تهدده بالزوال وبأن يحل محله احتقار وتهاون السيد ومن قبل قالت إحدى الشاعرات:

بني الحب على الجور فلو أنصف المحبوب فيه لسمج^(١)

ومن هذه العوامل أن الطبيعة الإنسانية تستجيب لضروب الضغط والقسر ما دامت محتومة عليها، وهي ككائن حي تكيف نفسها حسب البيئة الجديدة، حتى لا تهلك، وكما يكيف الجسم نفسه عند فقد عضو فتعمل الأعضاء الأخرى، فكذلك تدفع إرادة الحياة الغريزية الغلابة في النفس الإنسانية إلى الاستجابة للوضع الاجتماعي وتكييف النفس على أساسه، بل وقد تزيد فتبدع له فلسفة الخضوع والاستخاء بحيث يجد الفرد مبرراً، ويحس التلذذاً، ويستشعر الزهو في الوضعية الجديدة وهو المعنى الذي استشفه المتنبى:

قد تعيش النفوس في الضيم حتى لترى الضيم أنها لا تضام

ويبدع من أتفه الأشياء اعتزازاً حتى من الأمور التي من شأنها أن تضم صاحبها بالهوان والصغار، على حد قول الشاعر: " لي لذة في ذلتي وخضوعي".

على أن التابع في العادة لا يعدم أسباباً للزهو الرخيص فما من شك في أن " الأسطى " خير من العامل، وأن البائع في محل يتسامى على البائع المتجول وهذا بدوره يرفض أن يتساوى مع ماسح الأحذية، وعندما يرفع حاجب المحكمة صوته بكلمة " محكمة " فيستجيب له الناس بالوقوف، يرضي ذات نفسه، ويعوض حقارة وظيفته، ولا يهيمه بالطبع إذا كانت المحكمة عادلة أو ظالمة، بل لعله يسر إذا كانت الأحكام قاسية لأنها أبلغ في الدلالة على سلطة المحكمة وهيبتها، وبالتالي على أهمية النصيب الضيئل جداً الذي له فيها بصفته حاجباً !! كما يشعر كل من العسكري وناظر العزبة بأهميته أمام البائع المتجول، والفلاح، ولما كان للخضوع للمأمور أو المالك ثمناً لا بد منه للحصول على تلك الأهمية الوظيفية أمام البائع المتجول والفلاح، فهذا الخضوع يؤدي أولاً بغضاضة، ثم بقبول، ثم برضا، ثم يثير بعد ذلك زهواً والتذاذاً قدر تبدل المشاعر الأصلية وزيادة المشاعر الوظيفية، وبتأثير ترابط الأشياء وتداعي المعاني، ويصبح جزءاً لا بد منه في العملية كلها، ومن هنا نفهم تغالي بعض الناس في خدمة سادتهم ورؤسائهم حتى ليفوقوا سادتهم أنفسهم ويصبحوا " ملكيين أكثر من الملك"، كما يقولون، ذلك لأن هؤلاء الأتباع يعملون بوحى مزدوج من لذة الخضوع، واستكمال المنفعة، ولو قضى على سادتهم بالخدمة لصاروا مثلهم، لأن النظام يطولهم جميعاً ويسلكهم في حبله، فالنبيل في العهد القديم كان يستشعر لذة في خدمة الملك قدر ما كان يستشعر الفلاح لذة في خدمة النبيل، والمأمور حالياً يقف "زهار" أمام الحكمدار، كما يقف العسكري أمام المأمور، وكل منهم لا يرى في هذا ضيراً، بل يستشعر زهواً لأن التحية العسكرية جزء من نظام يمنحه صنوفاً من الاعتزازات والتسلطات.

ولقد نتصور أن بيئة تألف الانحطاط كتلك التي يعيش فيها البغاء كقبيلة بتحطيم كبرياء أصحابها وقتل كل أنواع الاعتزاز في أنفسهم. ولكن الواقع خلاف ذلك فمع أن البغي في شهورها الأولى ترزح تحت شعور الضعة والانحطاط ويأكلها الندم والألم، إلا أن إرادة الحياة الغريزية، وفعل البيئة المستمر ينفذانها من هذا الألم القمين بالقضاء عليها، ويوجدان لها أنواعاً من الاعتزاز والكبرياء ويجعلانها تتقبل هذه الحياة، بل وتتحمس لها وتتمسك بها، فما دامت تعلم أنها محتومة عليها (لنتلك الأسباب التي تحتم البغاء في المجتمعات المنحلة)، فلا تلبث الفتاة الطاهرة الغريزة أن تنقلب إلى بغي لعوب ثم إلى "معلمة" صناع تتفنن في شئون مهنتها التعسة، وتجعل همها إيقاع البرينات المسكينات في شباكها، فإذا تحدث إليها متحدث عن الشرف والضمير أو رغب في إنقاذها، ولو حتى بالزواج لرفضت، فقد مرنت حواسها ونفسها على هذا النوع من الحياة، ولا

(١) ينسبونه إلى عليه بنت المهدي - أخت هارون الرشيد ، والله أعلم !

تستطيع أن تغيره أو ترغب في بعث كوامن الندم التي استكانت وتكومت في جزء قصي من شعورها وانغمرت أكداً الحاضر، وقد وضح ذلك "تولستوى" في روايته "البعث" تمام الإيضاح، كما كانت تقارير لجان إلغاء البغاء صريحة في عدم استطاعة إصلاح هؤلاء البائسات أو إلحاقهن بأي عمل.

أو خذ عالم السجون حيث جرى مسخ النفس البشرية وتطويعها لما فرضته السدود والقيود ليتمكن أن يمضي السنوات الطوال في مناخ يناقض مناخ الحياة الطبيعية، وقد يصل الأمر أن يجد سجين حكم عليه لجريمة قتل ثاراً للشرف - كما يظن - وقد أصبح "معشوقاً لسجين من عتاة المسجونين يحكم قبضته على الزنزانة".

وخذ الشحاذين - مثلاً - فرغم ما في عملية الشحاذة من امتهان، فإن الشحاذين جميعاً يرفضون الالتحاق بعمل منتظم، أولاً لأن الإحساس بالكرامة تبدل تماماً بطول ممارسة "المهنة"، وثانياً لأن ما يحصل عليه بالشحاذة يغلب أن يكون أكثر مما يحصل عليه بالعمل المنتظم.

إن بعض الأسود والنسور لا تتناسل في الأسر أو داخل القضبان الحديدية، ولكن الطبيعة البشرية تقبل ما ترفضه هذه الحيوانات والطيور.

لذلك تقاوم الشعوب والجماعات الدعوات الجديدة حتى إذا كانت شعبية وتنحاز الكثرة نحو المعارضة، ولا يؤمن بها إلا أفراد قلانل قدر لهم أن لا يقعوا تحت تأثير العوامل الاجتماعية السابقة أو عظمت فيهم المواهب والمدارك حتى تغلبت على ما عداها من الآثار.

تلك هي آثار البيئة التي تطبع الجماهير والجماعات بطابعها وتكيف النفس البشرية، وتمسح الطابع الأصلية فيها، ومن أجل هذا تقاوم الشعوب والجماعات الأنبياء وتعارض المصلحين، وتشارك قادتها في إعنات أصحاب الدعوات الجديدة.

* * *

هل معنى هذا أنه قضي على الشعوب أن تظل أبد الدهر في إيسار العبودية وقبضة الخضوع للحكام؟

كلا.. إن الله تعالى أرحم بعباده من أن يرضي بهذا، وكيف يرضى، وقد قال رسوله إن باب الجنة مفتوح لا يغلق إلا لمن أبي؟! لقد أرسل الله تعالى الرسل مستنهضين الجماهير ومعلمين الجاهلين ومحققين الكرامة الإنسانية، وحقق أولو العزم منهم هذا فحرروا أقوامهم من استعباد الطغاة ووضعوا بين أيديهم الكتب المنزلة التي ترسم الطريق وتحدد الوسائل ووجهوهم إلى استخدام الحكمة جنباً إلى جنب هذه الكتب حتى يمكنهم الاستفادة من كل وسائل المعرفة والقوة، وليس عليهم إلا أن يستوعبوا هذه الكتب، ويتلمسوا هذه الحكمة، وأن لا يتركوا آباءهم وأسلافهم حاجزاً بينهم وبين النص، أو حائلاً دون ابتغاء الحكمة أينما كانت، ولا يدعو السدنة والفقهاء يملون عليهم أحكامهم القديمة الرثة، ويحولون بينهم وبين الانطلاق^(*).

(*) نشرت المقالات الثلاث بجريدة نهضة مصر (مايو ٢٠٠٤).

دعوة الإحياء الإسلامي

"إيماننا"

كتب إيماننا في عام ١٩٩٥ كبيان لمؤسسة فوزية وجمال البنا للثقافة والإعلام الإسلامي لله وفي ٣ ديسمبر سنة ١٩٩٧ نشر الأستاذ لطفي الخولي نص البيان ومذكرة عن المؤسسة كاملاً في صفحة الرأي (ص ٢٥) من جريدة الأهرام تحت عنوان (إيماننا: الإعلاء الحقيقي للدين بحماية الإنسان وأعمال العقل ورفض الإرهاب والتكفير وصدوره بمقدمه جاء فيها: جاءنا البيان التالي من مؤسسة فوزية وجمال البنا للثقافة والإعلام الإسلامي، وذلك قبل وقت قصير من وفاة السيدة فوزية أخيراً، وينشر لله الحوار القومي لله نص البيان لأهميته على المستويين الفكري والثقافي، ليس فقط من زاوية الأسس التي يقوم عليها من حيث أن الإعلاء الحقيقي للدين مرتبط بحماية كرامة الإنسان وحقه في المعرفة وأعمال العقل وإنما أيضاً لربط ذلك بحرية الفكر كأساس لأي تقدم ينبذ المصادرة والإرهاب والتكفير، وبالعقل كأسس للعمل والعلاقات، وبالتمنية كمعركة حضارية لمواجهة التخلف ورفض دعاوى التكفير والردة).

رحم الله الأستاذ لطفي الخولي: إن صداً العقول حال دون أن تظفر محاولته بالصدى المطلوب، ولكن هذا لم يمنع من أن يصبح هذا الإعلان (مانيفستو) لدعوة الإحياء الإسلامي الذي سيفوق أثره في المستقبل اثر المانيفستو الشيوعي لكارل ماركس وإنجلز سنة ١٨٤٨م، مع ملاحظة أن الخاتمة لم تكن في الأصل الذي كتب سنة ١٩٩٥م، ولكنه أضيف ليمثل آخر ما وصل إليه فكر الإحياء الإسلامي .

- ١ -

نؤمن بالله.. إنه محور الوجود ورمز الكمال والعقل والغائية، وما ينبثق عنها من قيم، وبدونه يصبح الوجود عبثاً، والكون تحت رحمة الصدفة الشرود، والإنسان حيواناً متطوراً أو "سوبر حيوان". والإيمان بالله الذي يكون قوة ملهمة هو ما يغرسه في النفس تصوير القرآن الكريم لله تعالى، أما ما يرد في كتب التوحيد فلا يغنى شيئاً، بل قد يضر.

- ٢ -

الأنبياء هم القادة الحقيقيون للبشرية، ويجب جعلهم المثل في القيادة، واطراح أحكام الطاغوت من قادة جيوش أو أباطرة أو ملوك.. الخ، وما وضعوه من سياسات القهر التي لوثت فكرة الحكم والقيادة وأساعت إلى البشرية. والأديان هي الثورات التي حررت للجماهير، ووضعت أسس حضارة تقوم على الحرية، والخير، والعدل والمعرفة.

ونحن نؤمن أن الإسلام قد قدم الصورة المثلى لله والرسول، على أننا نفهم الصور التي قدمتها الأديان الأخرى، لأن الدين أصلاً واحد، ولكن الشرائع متعددة، ونحن نؤمن بالرسول جميعاً، وإن الله تعالى أراد التعدد والتنوع "وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً"، وأن الفصل في هذا التعدد هو إلى الله تعالى يوم القيامة.

- ٣ -

ونؤمن أن الدين هو المقوم الأعظم للمجتمع العربي، وأنه يمثل التاريخ والحضارة والضمير، وأن تجاهله يقطع التواصل مع الشعب، ولا ينفي هذه الحقيقة أن تكون الفلسفة والآداب والفنون قد حلت محل الدين في المجتمع الأوربي فكل مجتمع طبيعته الخاصة وقدره الذي لا يمكن التمرد عليه أو التكرار له، وفي

الوقت نفسه - فإن هذا لا يحول دون أن يكون للفلسفة والآداب والفنون وجود بجانب الدين ولا يمنع من تلاقي الأفكار وتحاور الحضارات، وتقارب الديانات لأن الحكمة ضالة المؤمن.

ونؤمن بكرامة الإنسان، وأن الله تعالى هو الذي أضفاها على بنى آدم جميعاً، فلا تملك قوة أن تحرمهم منها، وهي لكل الجنس البشرى من رجال ونساء، بيض وسود أغنياء وفقراء.. الخ، وقد رمز القرآن لهذه الكرامة بسجود الملائكة لآدم، وتسخير قوى الطبيعة له.

ولما كان الإسلام قد جاوز - كما ونوعاً - الاتفاقيات الدولية عن حقوق الإنسان، فإن أقل ما يجب أن يتم هو التطبيق الفوري لهذه الاتفاقيات.

- ٤ -

لما كان القرآن قد جعل مبرر سجود الملائكة لآدم هو تملكه المعرفة التي تميز الإنسان عن بقية الكائنات، والتي تنقذه من الخرافة، فيفترض أن تكون المعرفة هدفاً رئيسياً للمسلمين وما يتبع هذا من استخدام العقل، وما يثمره من علم وحكمة. ويجب على كل نظام إسلامي أن يشيع الثقافة والمعرفة، ويفتح النوافذ عليها، ويهيئ كل السبل التي تيسر للجماهير معارف ومهارات العصر. إننا لا نستطيع أن ندخل القرن الواحد والعشرين بأمية أجدية.

- ٥ -

نؤمن بحرية الفكر والتعبير، وأنها أساس كل تقدم، وأنه لا يجوز أن يقف في سبيلها شيء، ويكون الرد على ما يخالف ثوابت العقيدة بالكلمة لا بالمصادرة أو الإرهاب أو التكفير وليس هناك تعارض بين حرية الفكر المطلقة والدين لأن الدين يقوم على إيمان، ولا إيمان بدون اقتناع وإرادة ولا إرادة أو اقتناع إلا في بيئة تسمح بالدراسة الحرة، والإرادة الطوعية والنظر الدقيق، وفي القرآن الكريم قرابة مائة آية تقرر حرية العقيدة بصفة مطلقة وأن مردها إلى الله نفسه وأنها قضية شخصية لا دخل للنظام العام فيها مثل: ﴿ لا إكراه في الدين ﴾، ﴿ فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾، ﴿ وَقُلْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ... ﴾.

ولا توجد الحرية إلا بتقرير حرية إصدار الصحف والمطبوعات وتكوين الأحزاب والهيئات والنقابات وبقية مؤسسات المجتمع، وحرية هذه الهيئات في العمل لتطبيق أهدافها ما دام ذلك يتم بطرق سلمية. ونحن نرفض تماماً دعاوى التكفير والعقوبة على الردة، ونكلها إلى الله تعالى يفصل فيها يوم القيامة، كما قرر القرآن ذلك وطبقته ممارسات الرسول.

أما ما قد ينشأ من أخطار، فإن الحرية نفسها تفسح المجال لإصلاحه.

- ٦ -

يجب أن يكون العدل أساس التعامل بين الحكام والمحكومين، الرؤساء والمرؤوسين، الرأسماليين والعمال، الرجال والنساء.. الخ، لأن كل ما يمت إلى عالم العمل والعلاقات لا يمكن أن يستقر إلا على أساس العدل ولا يجوز إعطاء فئات سلطات تمكنها من أن تحيف على حقوق فئات أخرى إن هذا نوع من الظلم يماثل الكفر، ويجب أن لا يسمح به.

وقد يتطلب تحقيق هذا إعادة النظر في كل نصوص الشريعة الخاصة بالدنيويات، في ضوء تحقيقها للعدل، لأن التطورات قد تنفي العلة التي من أجلها سنت بعض الأحكام فينتفي الحكم كما قد تتطلب تعديلها، ولا يعد هذا انتهاكاً لها، ولكن تأكيد قيامها لما سنت من أجله، وهو العدل.

إن التحدي العملي الذي يجابهه الدول الإسلامية اليوم هو التخلف الاقتصادي وعسكريا وسياسيا واجتماعيا، ولا يمكن وقف هذا التخلف إلا بجعل "التنمية" معركة حضارية تتم تحت لواء الإسلام باعتبارها النمط المطلوب من "الجهاد" واستنفار كل أفراد الشعب للمشاركة فيها من وضع الخطة حتى متابعتها وتقييمها. ويجب أن تكون هذه التنمية إنسانية تبدأ من محطة العدالة الممكن تحقيقها لتصل إلى محطة الكفاية المطلوب تحقيقها، إن الإيمان وحده هو الذي يولد الطاقة المجانية اللازمة ويوظفها لدفع التنمية وتجاوز المعوقات دون حاجة للاستثمارات التي تفسح المجال للتبعية والسير في مسار وإسار الدول الكبرى.

وأي محاولة لتنمية تستسلم لادعاءات البنك الدولي أو تقلد النماذج الأوروبية والأمريكية لن تسفر إلا عن مزيد من التخلف والفاقة والتخبط.

وبالمثل فإن أي محاولة لتنمية يضعها خبراء أو حكومات تتسم ببيروقراطية وجمود ودون أن تكون لها الأساس الإيماني والمشاركة الجماهيرية أو تستهدف مصلحة الأقلية على حساب الجماهير العريضة هي تنمية محكوم عليها بالفشل.

إن الصورة النمطية لشخصية المسلم التي تتسم عادة بالسلبية والماضوية والتركيز على الطقوس والشعائر ليست صورة المسلم أيام الرسول، ويعود هذا الاختلاف إلى أن قصر مدة الرسالة النبوية والخلافة الراشدة لم تكن كافية لتعميق جذور الشخصية الإسلامية ثم جاء الملك العضوض، وتدهورت الخلافة وسد باب الاجتهاد لأكثر من ألف عام، وغلبة الجهالة والاستبداد.. الخ، وتمخض هذا كله عن الصورة المعروفة اليوم والتي تتقبلها وتبقي عليها المؤسسة الدينية والنظم الحاكمة لأسباب تتعلق بالقصور أو الإبقاء على المصالح المكتسبة.

ونحن نرفض هذه الصورة ونعمل لإحياء إسلامي

لا يمكن تحقيق أي إحياء إلا بالعودة رأسا إلى القرآن الكريم، وإطراح التفسيرات وضبط السنة بضوابط القرآن وعدم التقيد بما وضعه الأسلاف من فنون واجتهادات ومذاهبات تأثروا فيها بروح عصرهم وسيادة الجهالة واستبداد الحكام وصعوبات البحث والدرس، وانعكس هذا على تفسير القرآن وأحكام الفقه وفنون الحديث وأقحم فيها مفاهيم دخيلة ومناقضة لروح الإسلام.

لقد كان الإسلام أصلاً دعوة حضارية وثورة جماهيرية لإنقاذ الناس من الظلمات إلى النور، وإحلال "الكتاب والميزان"، أي المعرفة والعدل محل الجهالة والظلم والطبقية وإشاعة قيم الخير، والعدل، والحرية، والعلم.. الخ، التي هي روح الإسلام بينما تكون الطقوس والشعائر جسم الإسلام والاقتصار عليها - دون القيم - هو احتفال بجسم لا روح فيه.

بالنسبة لدعوة الإحياء الإسلامي، فليس المهم الآن تفسير القرآن، ولكن تثوير القرآن، وهو ما دعا إليه الرسول وطبقه الصحابة، فإنهم لم يعكفوا على تفسير القرآن، وإنما هبوا كإعصار ليقوموا بأكبر حركة تغيير في العالم القديم ووضعو أسس الحضارة الإلهية - النبوية - الإنسانية.

هناك حقيقة تصل إلى مستوى البداهة، وإن أخفتها الغشاوات الكثيفة تلك هي أن على كل جيل أن يعيش عصره دون الإخلال بالقيم العظمى للإسلام، إن التطور الاجتماعي للأمم والشعوب هو كالنمو الجسدي للأفراد لا يمكن أن يقاوم، فضلا عن أنه علامة صحة وتطبيق لعالمية الإسلام وموضوعيته وصلاحيته لكل زمان ومكان.

إن الإسلام لا يحتكر - وحده - الحكمة، ولكنه ينشدها أنى وجدها، وهو يتقبل كل الخبرات، كما يقدم خبراته ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾، من هنا فإن النزعة الماضوية الانعزالية واتخاذ نمط المجتمع الذي كان موجودا من قبل باعتباره النمط الأمثل، والضيق بكل مستجدات العصر من فنون وآداب، والنظرة المتخلفة للمرأة وحبسها وراء الأسوار كل هذا يخالف جوهر الإسلام وعالميته، وصلاحيته لكل زمان ومكان، كما أنه يخالف ما أراده الله تعالى عندما قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

وليس هناك خوف من أن يذوب الإنسان في الحضارة العصرية، لأن خيطا وثيقا يربطه بالله والرسول يبقى له قدرا من القيم يكبح جماحه ويحول دون انفلاته وذوبانه.

خاتمة:

وقف بنا الزمان في منعطف من التاريخ كما وقف بالأسلاف عندما وضعوا منظومة المعرفة الإسلامية من تفسير وحديث وفقه في القرون الثلاثة الأولى من الهجرة، ولئن كانت هذه المنظومة هي الأساس الفكري للحضارة الإسلامية، فإن هذا لا ينفي إن كان فيها قصور لم يظهر وقتئذ، كان من العوامل التي ساعدت - مع أسباب أخرى - على تدهور المجتمع الإسلامي، وعلى كل حال فإن مرور أكثر من ألف عام عليها يجعلها لا تستطيع مجابهة مشكلات العصر، ولا أن تتعاش معه، وعلينا اليوم إعادة تأسيس منظومة المعرفة الإسلامية بحيث يكون هدفها هو الإنسان، وإخراجه من الظلمات إلى النور وما يستتبعه هذا من إشاعة وتعميق قيم الخير والعدل والحرية والمساواة والمعرفة التي يقوم عليها المجتمع، ونحن نؤمن إننا أكفاء لهذه المهمة وأن ما لدينا من ثقافات ومعرفة يفوق ما كان لدى الأسلاف فحن أقدر منهم، وليس هناك داع لأن نبخس أنفسنا حقها وأن نلزمها بأحكام السلف، فهذا ما يخالف توجيه القرآن، "وَأِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا"، فضلا عما في ذلك من إهمال أعمال العقل، وهو أشرف وأهم نعمة يجزيها الإنسان، خاصة في هذا العصر الذي قام على العلوم.

من هنا نرى أن كل ما تركه الأسلاف لا يمكن أن يكون ملزماً لنا حتى وإن استأنسنا به.

إن إعادة تأسيس منظومة المعرفة الإسلامية ستتطلب عدم الالتزام بتفسيرات القرآن من ابن عباس حتى سيد قطب، والاعتماد في تفسير القرآن على القرآن نفسه، كما سيتطلب وضع ضوابط للسنة من القرآن الكريم حرصاً عليها وضماً بأن يدخلها ما لم يقله الرسول.

وقد وضع القرآن أصلاً للإسلام بجانب الكتاب هو "الحكمة" التي قرنها بالكتاب والحكمة، هي كل ما أثبت الزمن سلامته من ثقافات العالم، فهذا هو الباب المفتوح ما بين الإسلام والعصر، وهو ما يجعلنا نقتبس وننهل منه دون حرج أو حساسية.

ولا خوف علينا من الضلال ما دمنا نهتدي بالقرآن.

حب الدنيا

للهولة الأولى يبدو هذا التعبير مجافيا لمأثور الكتابات الدينية والإسلامية التي لا تتحدث عن حب الحياة، ولكن عن حب الله، الذي يصل للتضحية بالحياة، بل وأن تكون هذه التضحية أعظم الأمانى "والموت في سبيل الله أسمى أمانينا"، كما جاء في الشعر الإخواني المعروف.

هذه شنشنة نعرفها من أخزم، كما يقول العرب، ونواجهها في معظم الكتابات الدينية التي تبرز كأن هناك تضاداً ما بين الدنيا والآخرة وأن كل واحد منهما نقيض الآخر.

وهذه الفكرة تعود إلى ما ألحق بالأديان من آثار عميقة، متغلغلة في فهم الدين طوال الحقبة التي سبقت الأديان السماوية، والتي يمكن أن نقول: إنها سبعة من عشرة آلاف هي عمر الدين (على سبيل الافتراض).

لقد انعكست هذه المؤثرات على الأديان بصور متفاوتة فاليهودية هي أكثر الديانات تعلقاً بالحياة الدنيا والدنيوية، وأبعدها عن قيم اليوم الآخر - الذي لا يكاد يظهر - والذي جعل اليهود، كما وصفهم القرآن " وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحَّزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ " (البقرة ٩٦).

مع هذا فإن التصور الذي جاء في العهد القديم وجعل الحياة عقوبة لآدم وحواء لأنهما استسلما لإغواء الحية عندما أكلا من الشجرة المحرمة - وهي في العهد القديم شجرة المعرفة - فكتب على الرجل أن يشقى ويكدح لينال عيشه بعرق جبينه، وكتب على المرأة أن تحيض، وتحبل وتلد وتخضع للرجل، نقول إن هذه الفكرة التي لم تؤثر على اليهود بل جعلتهم يتكالبون على الحياة، كان لها أثر كبير على المسيحية التي اعتبرت مخالفة آدم وحواء "خطيئة" استحقا من أجلها "السقوط" أو النزول من الجنة إلى الدنيا، وظهرت الدنيا في الأدبيات المسيحية كمنافضة للمسيحية الحققة، التي قال رسولها "مملكتي ليست في هذا العالم" وأبرزت التقشف مثلاً أعلى والزهد في كل طبقات الحياة سلوكاً أمثل، ووصل الأمر بأن تقوم حركة كبرى هي الرهبة التي ينخرط فيها مئات الألوف من الرجال والنساء ويحرمون على أنفسهم المتع الدنيوية وشهواتها بما في ذلك الغريزة الجنسية إذ يندرون العزوبة والعنوسة، وبالطبع فإن حب الحياة يصبح خطيئة.

ولكن هذه الفكرة رغم عمقها في الديانة المسيحية التي جعلتها "الخطيئة الأولى" أو الخطيئة الأصلية التي بررت فداء المسيح لم تؤثر على الشعوب التي اعتنقتها باستثناء عهدها الأول، أو في حالة الرهبة، أما بالنسبة للشعوب والقادة، فإن هذه الفكرة لم تحل دون أن تجعل الشعوب الأوروبية مذهبها هو حب الحياة، كما سيلي وأن تستمتع بكل ما في الدنيا من متع وشهوات وأن توغل وتتعمق بل وتغرس فنون الحياة في الكنائس فيرسم على جدرانها كبار رسامي العالم وتعزف في أبهائها الموسيقي، وإذا كان هذا حال الفن في الكنيسة فما بالك في بقية جنبات ومسالك الحياة.

وقد نمضي في سلسلة المفارقات الدينية، فالإسلام وهو الدين الذي اعترف بطبقات الحياة الدنيا وزينتها، والذي لم يعرف الخطيئة، ولم يكن نزول آدم إلى الجنة عقوبة، ولكن ليقوم بدور مجيد هو خلافة الله على الأرض. نقول إن هذا الدين الذي كان خليقاً أن يشجع الفنون والآداب من رسم وتمثيل وغناء وموسيقى،

وأن يثيب عليها كما يثيب على الغريزة الجنسية عندما يمارسها زوج مع زوجته، إن شعوب هذا الدين هي أكثر الشعوب عزوفا عن الدنيا وعن مباحها ومجافاة للفنون والآداب وأكثرها عكوقاً على ممارسة العبادات والشعائر وهذه نقطة سنعالجها في آخر هذا المقال.

لا جدال أن حب الحياة - رغم مواقف الأديان والفلسفات - كان ولا يزال من أقوى - إن لم يكن أقوى ما يمتلك الإنسان من مشاعر لأن حب الدنيا هو حب الوجود، هو حب البقاء، هو حب نفسه وبقاء نفسه فأول ما يحرص عليه هو الطعام والسكن والكساء ليضمن البقاء، وأن لا يموت جوعاً أو عطشاً أو ضحية لتقلبات الجو ثم ينتقل هذا الاهتمام إلى الاهتمام بتأمين حياته من عدوان الوحوش حتى لا تلتهمه فيما تلتهم، وهذا كله يدفعه للعمل على بناء بيت وغزل ونسج ثوب، واصطياد الأسماك أو الحيوانات واستئناسها وتدجينها ثم تعرف على الزراعة واكتشف النار كل هذا للعمل على بقاء نوعه - وليس نفسه فحسب - وأحس بعاطفة الحب للأنثى، بينما كانت الغريزة الجنسية تدفعه للالتحام بها، ونتيجة لهذا ظهر الطفل ومن هذا الثالوث الأب والأم والابن تكونت نواة المجتمع وظهرت الأسرة وظهرت ضرورات الحفاظ عليها، وحق لشوقي أن يقول:

انظر الكون وقل في وصفه كل هذا أصله من أبوين
فقدنا الجنة في إيجادنا ونعمنا منها في جنتين

ولكن عندما يقال حب الدنيا، هذا يثير معاني أكثر من هذه المعاني الذاتية البدائية التي استشعرها الإنسان الأول إن عالم الدنيا الفسيح الخصب المليء بالخيرات الحافل بالمخاطر والمجازفات وقمم الجبال العالية تناديه فيصعد إليها وإن أعماق البحار تثيره فينزل فيها، وإن الرياح تذهب به يمناً ويسرة، فلا يلبث أن يستخدم حركتها لنشر السفن الشراعية ويثير حب الحياة في نفسه نشوة المعرفة ويدفعه للكشف عن المجهول وتسخير قوى الطبيعة لهذه الحياة وحب الحياة في أصل الحرية التي تسمح له بهذا كله، والتي تكتسح كل السدود والحدود، ولعل الشاعر العربي التونسي أبو القاسم الشابي كان أقدر شعراء العرب عن تصوير "حب الحياة" في قصيدته الرائعة التي حملت عنوان "إرادة الحياة" والتي تستهل:

إذا الشعب يوماً أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر

والتي يقول فيها:

ومن لم يعانقه شوق الحياة فويل لمن لم تشقه الحياة
ومن لا يحب صعود الجبال هو الكون حي، يحب الحياة
فلا الأفق يحضن ميت الطيور إليك الفضاء، إليك الضياء
إليك الجمال الذي لا يببىد ! إليك الثرى، الحالم، المزدهر!
فميدي كما شنت فوق الحقول إليك الوجود، الرحيب النضر!
وناجي الحياة وأشواقها بخلو الثمار وغض الزهر
ورفرف روح غريب الجمال وفتنة هذا الوجود الأغر
ورن نشيد الحياة المقدس بأجنحة من ضياء القمر
وأعلن في الكون أن الظموح في هيكل حالم قد سحر
لهيب الحياة، وروح الظفر لهيب الحياة، وروح الظفر

ويمكن القول إن حب الدنيا كان في أصل ظهور وازدهار الحضارة الأوروبية الحديثة، فقد عادت هذه الحضارة الحياة وأذكر أنني في جنيف في احتفالات رأس السنة وجدت أطفالاً يكتبون على الحيطان vive la vie "تحيا الحياة".

أمنت أوروبا بالحياة وكفرت بما عداها فركزت كل قواها فيها وبهذا حققت إنجازاتها العظيمة لجعل الحياة مليئة ثرية، حافلة بكل ما يسعد ويريح ويروي الشهوات ويحقق الإيرادات، وحققت ما كان يعد مستحيلًا أو مما ينفرد به الأنبياء من معجزات.

— ٣ —

نعالج الآن "حب الحياة" من الزاوية الإسلامية.

إن "الحب" معنى ومبنى ليس بعيدًا عن الإسلام، بل لقد نسبه القرآن إلى الله تعالى - على طريق المجاز بالطبع - فالله يحب التوابين والملتطهرين والمحسنين والصابرين والمتوكلين وهو تعالى لا يحب الظالمين ومن كان مختالًا فخورًا، ومن كان خوانًا أثيماً ولا يحب المسرفين ولا يحب المعتدين، بل إن الله تعالى يقول: " قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ " (٣١ آل عمران)، " فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ "، فالحب هنا متبادل ما بين الله، والمؤمنين.

ومن ناحية أخرى فإن الإسلام يعترف بحق الإنسان في الاستمتاع بطيبات الحياة الدنيا ومن النادر أن نجد دينًا يأمر اتباعه بالأكل ! فيقول: " يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ " (البقرة: ١٦٨)، " وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ " (٨٨ المائدة)، " فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ " (النحل: ١١٤). واستنكر أن يحرم أحد زينة الله " قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ " (الأعراف: ٣٢).

والإسلام يعترف بالطبيعة البشرية، كما جبلها الله وبما فيها من فجور وتقوى وتحدث عن "حرث الدنيا" فقال: " مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَدْمُومًا مَدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا * كَلَّا نُمَدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا " (الإسراء: ٢٠)، " وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ " (الشورى: ٢٠).

إذا أضفنا إلى هذا طبيعة الإسلام البسيطة البعيدة عن أي تعقيد أو لاهوت البرينة من أوزار الأديان السابقة أو آثار الحضارات القديمة، تلك الطبيعة التي اكتسبها من ظهوره في الصحراء الطليقة الحرة، وفكرته عن الطبيعة البشرية، وتقديره لحرية الفكر والعقيدة، وأنه ليس فيه كنيسة أو مؤسسة دينية أو فئة تماثل الأحرار والرهبان، وأن هذا كله انعكس على كثير من أوضاعه سواء كان المسجد، الذي هو قطعة أرض فضاء يمكن للمسلمين أن يصلوا فيها وأن يجعلوا من أحدهم إمامًا، أو كان الزواج الذي يأخذ قداسة كنسية وصفة إلزام إلهي في المسيحية وهو في الإسلام عقد رضائي، كان ينتظر أن يكون "حب الدنيا" أمرًا مقررًا لأنه من فطرة الإنسان، والإسلام دين الفطرة، وأنه لا يوجد تعارض ما بين الدنيويات والروحانيات، ولكن هذا كله لم يستطع أن يقف أمام حقيقة أخرى أكدها الإسلام تأكيدًا يفوق تأكيد أي دين آخر لها (ربما باستثناء الديانة المصرية القديمة) تلك هي إبرازه "الآخرة"، وجعلها المآل لكل الأعمال.

لكن إلهام الإسلام وتركيزه على الآخرة، لم يكن في حد ذاته يقف حائلًا ما بين "الدنيوية" والإسلام إذا فهمت "الآخرة" الفهم السليم الذي جاء به القرآن نفسه والرسول، فالقرآن يؤكد أن الله ورسوله لا يدعون

المؤمنين إلا لما يحييهم "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ" (الأنفال ٢٤)، ويقول: "مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ" (النحل: ٩٧)، ويقول "وَلَا تَتَسَنَّصِيْبِكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَتَّبِعِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ" (القصص: ٧٧)، والرسول يقول "ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة، ولا من ترك الآخرة للدنيا ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه" ، وذم رجل الدنيا عند علي بن أبي طالب كرم الله وجهه فقال رضي الله عنه: "الدنيا الدار دار صدق لمن صدقها ودار نجاة لمن فهم عنها ودار غنى لمن تزود منها" (أدب الدنيا والدين للماوردي، ص ١١١).

ورغم أن القرآن لم يندد إلا بمن فضّل الدنيا على الآخرة، أو أهمل الآخرة لحساب الدنيا.

رغم هذا كله، فالذي حدث هو أن عددًا من "الوضاع الصالحين" وضع آلاف الأحاديث التي تتوعد كل من يأخذ بحظ من نشاط دنيوي بعذاب عظيم وتثيب كل من يعكف على العبادات وتلاوة الأدعية وصلاة النوافل والبعد عن كل ما فيه إثارة شبهة بثواب عظيم كما ظهر آخرون يتحدثون عن عذاب جهنم، وعن حور الجنة، وتحدث رواة ومؤرخون عن عارفين كان الواحد منهم يصلي ثلاثين ألف ركعة في اليوم أو يصلي الصبح بقراءة البقرة وآل عمران.. الخ.

ودخل الحلبة المتصوفون بكراماتهم وخرافاتهم.

اكتسح هذا الطوفان المشاعر، وملاً الأسماع وأصبح هو المسيطر على المجتمع الإسلامي، هذا المجتمع الذي كان يمكن أن تزدهر فيه الفنون والآداب ويكون للمرأة وجود حي وفعال ويلهم الأذكىء والطامحين الاكتشاف والاختراع.

وكل هذا كله بإغلاق باب الاجتهاد في القرن الرابع الهجري وعلى امتداد ألف عام صدأ العقل المسلم، وتحول الضمير من الحياة الدنيا وما بين الناس بعضهم بعضا إلى العبادات، فإذا صلي المؤمن الصلوات الخمس في ميعادها اطمئن ضميره واستراح وما عليه بعد ذلك إذا تراخي، أو كذب أو نافق.. الخ.

وفي الوقت الذي ظهرت الآثار الوخيمة لهذا الفهم وأدت إلى تخلفه، تملك أوروبا طوال القرون الأخيرة من تاريخها اتجاه كاسح وشعار هيمن على آفاقها هو "التقدم" وتحت هذا الشعار ساروا طوال القرون الأربعة (من القرن السادس حتى القرن العشرين) وحققوا كل إنجازات الحضارة الأوروبية.

ولا حل للمجتمع الإسلامي إلا أن يتخلص من خرافاته وغشواته وأوزاره وأن يعود مرة أخرى إلى القرآن فيستلهمه، وإلى سيرة الرسول فيحتذي بها.. وإلى الأخذ "بالحكمة" كمصدر من مصادر الفقه والشريعة بعد أن قرنها القرآن "بالكتاب" في أكثر من موضع "وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ" ، " وَيَعْلَمُكُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ" ، وما لم تقم ثورة بمعنى الكلمة في فهم الإسلام ومراجعة أصوله، وضرورة أن نعطي الحياة الدنيا حقها، وأن نستمتع بما فيها من مشاهد الجمال، ونتذوق ما فيها من ملاذ، فلن يتحرر المجتمع الإسلامي من ميراثه الذي يثقل كاهله ويقيد خطاه ويطمس حب الدنيا في فؤاده (*).

(*) نشرت في مجلة المحيط الثقافي التي تصدرها وزارة الثقافة بمصر ، العدد ٤٨ ، أبريل سنة ٢٠٠٥م ، ص ٦١ .

هل أحكام القضاء أكثر قداسة من القرآن ؟

أبادر فأقول إنني لست قاضياً، أو محامياً، أو وكيلاً للنياحة، أي إنني لست عضواً من الهيئة القضائية الموقرة.

قد يسأل سائل لماذا إذن تتدخل في غير اختصاصك ؟

فأقول لو أنني كنت كناساً أكنس القمامة من الحواري لوجدت أنني لي حق في الحديث عن القضاء، لأن القضاء هو حمايتي من ظلم رؤسائي أو غيرهم فأنا لي مصلحة، بل يمكن أن أقول إنني وبقية أفراد الشعب من غير المختصين أصحاب المصلحة العظمى في القضاء.

هذا إذا كنت كناساً، فما بالك وأنا رجل جعلت التفكير ومعالجة القضية العامة صناعتي منذ خمسين عاماً، والقضاء يعود بالدرجة الأولى إلى القانون، والقانون لا يعدو أن يكون فرعاً من علم الاجتماع وعلم الاجتماع بأسره علم إنساني يعود إلى الإنسان ومن ثم فهو مجال مشترك حتى لو كان متميزاً.

وأذكر أنني أصدرت عام ١٩٦٣م مع بداية التحول الاشتراكي كتاباً من مائتي صفحة عن القانون والقضاء في المجتمع الاشتراكي قبل أن ينتبه المختصون إلى هذا في التحول وانعكاساته على القضاء.

وأنا أقول للمختصين في القضاء ما قلته للمختصين في الفقه لا تحجروا ولا تحتكروا ولا تجعلوا المهام المقدسة والفكر النبيل حرفة وأكل عيش ودكائناً لا يقربه إلا أصحابه.

أقول لهم إن فوق كل ذي علم عليم وإن آفاق المعرفة لاتحد - إن المعرفة - لا تنتهي أو تخلص بكثرة المعالجات، بل إنها تزداد وتثري وإن الرمية الصائبة قد تأتي من غير رام، ورب أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره، فلا تغتروا وتتملككم العزة بما وصلتم إليه وأقرعوا قول المتنبي من ألف عام:

يموت راعي الضأن في جهله ميتة جالينوس في طبه
وربما زاد على عمره وزاد في الأمن على سره

بعد هذه المقدمة التي يبدو أنها كانت ضرورية أقول إن من الأقوال الشائعة في الأسرة القضائية أن حكم المحكمة هو عنوان الحقيقة وأن التعليق على الأحكام لا يجوز إلا بعد أن تصبح نهائية وغير قابلة لأي ظن وعندئذ - كما يذكر الدكتور محمد سليم العوا - يكون هذا التناول من المتخصصين في حدود العلم القانوني ووفق أساليبه التي يعرفها أهل الاختصاص (كتاب حرية التعبير ص ١٠).

هذان: أي أن حكم المحكمة هو عنوان الحقيقة، بل الحقيقة ذاتها وتحريم التعليق على الأحكام، هما فيما نرى يخالفان حرية التعبير.

من أين جنتم أيها السادة بهذه القداسة ؟

إذا كان المفسرون منذ أكثر من ألف عام تناولوا كتاب الله - القرآن - بالتفسير والتأويل وأبدعوا فنونا ولم يترددوا في القول بالنسخ إلى آخر ما يعرفه المبتدئون.

وإذا كان رسولنا العظيم قد حذر المؤمنين من أن يكون أحدهم ألحن بحجته فيقضى له فليعلم أنه يقضى له بقطعة من النار.

فهل يحرم على المفكرين – من غير رجال القضاء – أن يعالجوا أحكاماً أريد بها في النهاية تحقيق العدل، ولكن ما من قوة يمكن أن تؤكد أن ما تصل إليه المحاكم هو العدل بالفعل أو الحقيقة نفسها.

ومنذ أن حكمت إحدى المحاكم في أثينا قبل ميلاد المسيح بخمسمائة عام على سقراط بالموت والمحاكم – في العالم بأسره – تصدر أحكامها باسم القانون على المخالفين والمعارضين والمجددين ومن ينادون بالعدالة والحرية، وترج بهم إلى السجون أو تقضى عليهم بالإعدام.

" وياما في الحبس مظالم "

هل هناك من يجهل أن القاضي إنما يحكم بالقانون ؟

هل هناك من يجهل أن القانون يضعه بشر ؟ معرضون للخطأ والقصور والضعف وأنه من الممكن أن يصدروا قوانين معينة ويضطرون (كما يحدث بالفعل) لإصدار قوانين أخرى تلغيها.

بل هل هناك من يجهل أن القانون إنما تضعه في كثير من الحالات الطبقة ذات المصلحة أو السلطة الحاكمة وأن الغرض في النهاية هو تعزيز وضعها وليس تحقيق العدالة.

حتى لو حكمت المحكمة بالشرع الإلهي، فما أكثر وما أوسع مجالات التفسير والتأويل التي يمكن أن تصل من النقيض إلى النقيض.

لا يمكن لأحد أن يدعى أن حكم المحكمة هو عين الحقيقة.

ولكن يمكن القول إن المحكمة قد طبقت تطبيقاً سليماً ما لديها من قانون أو لوائح.

وإذا كانت محاكمنا على اختلاف درجاتها، حتى محكمة النقض، قد أيدت الحكم بالتفريق بين الدكتور حامد أبو زيد وزوجته، فذلك لأن القانون نص على تطبيق أرجح الأقوال في مذهب أبي حنيفة، وقد حكمت به.

فالمحكمة أدت واجبها باعتبارها الهيئة التي تطبق القانون المعروف عليها وقد كان أرجح أقوال مذهب الإمام أبي حنيفة.

ولكن من قال إن أرجح أقوال أبي حنيفة هو الحقيقة فأقوال بقية المذاهب تخالفه وهناك ما هو أرجح منها وقد قرر الفقهاء – بقضهم وقضيتهم – حد الردة (بما في ذلك الشيعة) مع أن القرآن الكريم يقف ضد هذا لا مرة واحدة ولكن مراراً وتكراراً والرسول نفسه وقف ضد هذا لا مرة واحدة ولكن مراراً وتكراراً.

فما أبعد الحقيقة عما جاءت به قلعة الفقه السلفي وما تقضى به محاكمنا، ويقال عليه الحقيقة.

أفهم – كما يفهم – كل واحد أن القضاء إذا أريد له أن يكون قضاءً حقاً، وأن يحكم على الجميع بلا استثناء بحكم القانون، لا بد أن يكون هيئة مستقلة تماماً عن أجهزة الدولة وبالذات السلطة التنفيذية لهذا فأننا لا أستطيع أن تكون هناك من بين وزارات السلطة التنفيذية وزارة تمارس قدرًا من السلطة على القضاء.

ولا أفهم أن يكون قسم النيابة العمومية كلها يتبع هذه الوزارة.

لماذا لا يثير أفراد الأسرة القضائية وهم - هيئة الاختصاص - هذه القضايا الحيوية بالنسبة لهم لابد أن يكون القضاء "هيئة مستقلة" يرأسها أصحابها قضاء ومحامين - ولا يكون لأحد من السلطة أي سلطان، بل علاقة بها.

وتضع هذه الهيئة نظامها الإداري دون تدخل من أحد وتقرها السلطة التشريعية دون افتئات حتى لا يظن أنها تحاول أن تحمي مصالحها على حساب المصلحة العامة - وعن مصلحة الشعب.
وتكفل لها المخصصات الكافية ولا يجوز للسلطة التشريعية أن تنتقص منها.
ويطلق عليها ديوان القضاء.

إن القاعدة الحقيقية التي تحمي القضاء هي الشعب صاحب المصلحة في العدالة والمفكرون الشعبيون الأحرار هم السنة الشعب وهم الذين يبلورون إرادته في مواجهة السلطات في السلطة التنفيذية بالدرجة الأولى ثم السلطة التشريعية التي يفترض أنها تضم "نواب الشعب" وكلنا يعلم كيف دخل نواب الشعب المجلس.

وهم الذين يحركون الرأي العام الذي لا بد وأن تسلم السلطات أمامه وإن طال المدى.

إن النواب الحقيقيين للشعب هم الصحفيون والمفكرون والكتاب الأحرار الذين لا يتأثرون بالتيارات الحزبية ولا بالعلاقة الوثيقة التي تربط السلطة التشريعية بالسلطة التنفيذية رغم أنف مبدأ الفصل بين السلطات.

من هنا يتضح أن حرية التعبير نقيض ما يتصوره رجال القانون يجب أن تكون مطلقة ما لم تتضمن فذفا أو ابتزازاً، وأن تكون حرة في انتقاد القوانين، بل والدستور وأي سلطات أخرى.

تتضمن الأقوال التي تمتلئ بها كتب الحقوقيين والمختصين عن القضاء بإشارات عديدة إلى قداسة القضاء وما يجب أن يحاط به من احترام وما يجب أن يظفر به من هيبة قد تمثلها ما جاء في كتاب للأستاذ الدكتور سليم العوا "دوافع القاضي، وأسلوب أدائه لعمله القضائي، وعقيدته الدينية أو السياسية أو الفكرية وبواعثه واتجاهاته الشخصية كل ذلك مناطق محرمة ليس لأحد أن يقع فيها أو يحوم حولها وإلا كان كالراعي يحوم حول الحمى (الأرض المملوكة للغير) يوشك أن يقع فيه (أي يعتدي على حرمتها ويهدر حمايتها).

واحترام هيبة القضاء (السلطة) والقضاة (الأفراد) ضرورة لا مفر منها لاحترام سيادة القانون ورسوخ ميزان العدالة في أيدي قضاة مطمئنين إلى حفظ أقدارهم وصون كرامة محاكمهم بين بني وطنهم: "رضوا بالأحكام التي تصدرها المحاكم أم غضبوا لها".

بالطبع فإن هذا كله مشتق من أن القضاة هم سدنة العدالة، ولكن هذا لا ينفى أن السدنة شيء، والعدالة نفسها شيء آخر، أما الذين يعملون باسمها فما يجب الحرص عليه هو التثبيت من ملاحظة القضاء بمقتضيات العدالة وأنه بقدر توفيقهم في هذا بقدر ما يستحقون التقدير وقد يخطئهم التوفيق وهم بعد كل شيء بشر.

ومن الخطأ "تماهى" القضاء بالعدالة - أي جعلهما شيئاً واحداً لأن المدلول الوحيد لهذا هو توثين القضاة، بل من حقنا أن نتساءل لماذا يجب أن تكون هناك "هيبة" للقضاء والعدالة نفسها؟ إن العدالة تتنافى مع منطق "الهيبة" العدالة تعلم أن لصاحب الحق مقالاً يجب أن يجهر به، العدالة لا تريد إلا التقدير الحق أما

سلطات الدولة المدججة بالسلاح المتخمة بالأموال والتي تعلم أنها لا تظفر بتقدير أو ثقة فإنها تبحث عن "الهيبة" وبث الخوف في نفوس الناس ومن منطق العدالة فإن هذا الأمر كراهية.

التحية الحقيقية للقضاء هي عندما يهتف المتقاضون "يحيا العدل".

ولعل المشرع عندما يجعل العلانية شرطاً في المحاكمات أراد أن يجعل من الجمهور رقيباً على سير العدالة.

إننا في الوقت الذي لا نقر فيه أي هجوم أو قتل أي مساس – بأشخاص القضاة أو أسرار إصدارهم الأحكام – وفي الوقت الذي نقدر ما يبذلون من جهد وتفان فإننا في الوقت نفسه لا نرى داعياً إلى إرهاب الناس بهذه التوجيهات لأن الأمر لا يتعلق بشخص القاضي ولكن بالحكم والحكم ليس ملكاً خاصاً وشخصياً للقاضي ولكنه يقوم على أسس وحيثيات وقد تخطى محكمة درجة أولى أو تطعن النيابة ويعاد الحكم ويصدر مخالفاً للحكم الأول.

ونقترح على المختصين أن يضيفوا إلى مثل الفقرات الذي استشهدنا بها فقرات تحض القاضي على الالتزام بالعدل وتشعره بالمسئولية الثقيلة، فإنه أحوج الناس إلى هذا لمقاومة الضغوط والمؤثرات التي لا بد أن توجد في مثل مجتمعنا.

والضمان الحقيقي لاحترام القضاة وتقديرهم هو حكمهم بالعدل الصراح.

وكل ما أتمناه أن يتمكن القضاء المصري من الانتصاف لكرامة الإنسان المصري الذي تنتهك كرامته وحرماته، بل ويقضى على حياته نفسها في ردهات أقسام البوليس وأمن الدولة بحيث يمثل كل الذين يرتكبون هذه الجرائم أمامه ليحكم عليهم بأحكام رادعة حتى لا تكون الأحكام المخففة مشجعة للضباط والجنود على الاستمرار في هذه الممارسات الوحشية وأخر ما قرأناه أن المحكمة برأت ضابطاً لأنه لم يشترك في الضرب وإنما أمر به فكيف يعقل مثل هذا التكييف؟ إن الجندي الذي ضرب إنما أطاع أمر ضباطه والآثم الأول هو الذي أمر.

لقد علقت في بريد الأهرام على هذا الحكم "أريد أن أفهم" وحتى الآن لم يفهمنا أحد شيئاً.

فكيف تطالبوننا بالسكوت والتسليم؟ وهل هناك إله يعبد غير الله؟(*)

(*) نشرت بجريدة القاهرة، بتاريخ ١٦/٩/٢٠٠٣، العدد (١٧٩).

الحقيقة في تصادم الحضارات

منذ أن أعلن الكاتب الأمريكي صموئيل هانتجتون مقالة في "الفورين أفيرز" عن تصادم الحضارات حتى أصبح هذا الموضوع من الموضوعات الجدلية التي ثار فيها النقاش رغم ما قيل أن هانتجتون رجح - أو عدل - في فكرته الأساسية أن الصورة التي سيأخذها صدام الحضارات في المستقبل بعد أن انتهى الصدام ما بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي الذي شغل النصف الثاني من القرن العشرين سيكون صداما بين الإسلام (وقد تكون معه الكونفوشيسية الصينية) من ناحية والحضارة المسيحية - اليونانية - الرومانية - اليهودية - من ناحية أخرى، وقد أعلن هانتجتون هذه الفكرة قبل أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ ثم جاءت هذه الأحداث، فكانت بمثابة الزيت على النار، وزادتها اشتعالاً.

وفي تصادم الحضارات شيء من الحقيقة سنعرض له، ولكنه لا يمثل "طبيعة تلاقى الحضارات"، إذ يمكن أن يحدث: تسرب من حضارة دون حاجة إلى صدام، بل وحتى دون تلاقى، ولعل أبرز الأمثلة على ذلك تسرب الحضارة المصرية القديمة إلى أثينا عبر كريت وآسيا الصغرى، فضلاً عن الزيارات التي قام به فلاسفة اليونان لمصر والتي جعلت كاتباً يقول أن أثينا "نهبت" الحضارة المصرية وجعلت كاتباً آخر هو "برنال" يصدر كتابه المشهور "أثينا السوداء" الذي يعيد الكثير إن لم يكن معظم الحضارة اليونانية إلى أصول مصرية.

وقد حدث هذا كله دون تصادم، ولكنه كان "تسريباً" أو "تسللاً" من آثار حضارات متقدمة إلى شعوب متخلفة نسبياً.

ثم هناك المرحلة المثمرة إثر التصادم عندما يحدث، ألا وهي مرحلة "تسالم" الحضارات ثم مرحلة "تلاقح الحضارات".

ولكن تظل فكرة تصادم الحضارات أصل في الحقيقة، حتى وإن لم يكن بالصورة التي عرضها هانتجتون. ولعل أفضل من عرض لهذه الظاهرة هو الأستاذ الدكتور طه حسين وهو كما نعلم كاتب أديب أكثر مما هو أستاذ اجتماع أو دارس في الحضارات ولهذا جاء مدخله في هذا الموضوع عن قادة الفكر في العالم والدكتور طه حسين - خاصة في المرحلة الأولى من حياته - كان مفتونا بالحضارة اليونانية كعدد كبير من المفكرين الأوروبيين ولهذا فإنه بدأ كتابه قادة الفكر بالحديث عن اليونان وظهور الشعراء الذين بلوروا الأفكار الحضارية لليونان في فترة مبكرة وأبرزهم بالطبع هو هوميروس وهيزيود وغيرهما من الشعراء الذين لم يظفروا بالشهرة، وكيف أن هذه المرحلة أوجدت في الأدب اليوناني الإلياذة والأوديسا وما تضمناه من الميثولوجيا اليونانية وعالم الأولمب الذي تسكنه الآلهة وهؤلاء الآلهة هم كالبشر فيهم كل أهواء ونزوات البشر، ولكن لهم قوى خارقة يهيمنون بها على ظواهر الطبيعة، ومن نافلة القول الإشارة إلى أثر هذه الميثولوجيا على الفكر اليوناني ثم الفكر الأوروبي والتي يمكن أن تعد بمثابة أساس "الفولكلور الأوروبي" على أن أثر هذه الميثولوجيا لا يقتصر على الأولمب إنها امتدت إلى تاريخ اليونان القديم والصراع ما بين المدن اليونانية بعضها بعضاً والحرب على طروادة، وربطت ما بين هذه الحروب الأرضية، وما كان يجري في

عالم الأولمب، إذ ناصر بعض الآلهة أبطال اليونان، بينما ناصرت آلهة أخرى أبطال طروادة وبهذا سجلت تاريخ البلدين.

ولكن الشعر لم يستطع أن يملك زمام الفكر الأوروبي، وظهرت الفلسفة التي تقلدت الزمام خاصة في الثالوث العظيم سقراط وأفلاطون وأرسطو فتحدث عن كل واحد من هؤلاء بإفاضة في فصل كبير ولكنه - وهنا الشاهد - قفز من هؤلاء الشعراء والفلاسفة إلى الإسكندر المقدوني وهذا الانتقال إلى قائد عسكري في كتاب عن فلاسفة الفكر، لابد وأن يثير الدهشة ولم يكن ذلك خافيًا بالطبع على طه حسين الذي برر ذلك بما يمكن أن يعد أفضل تبرير لصدام الحضارات فقال:

"كانت قيادة الفكر للشعراء أول عهدهم بالوجود الاجتماعي والسياسي ثم ارتقى هذا العالم القديم من الوجهة الاجتماعية والسياسية والعقلية، فانتقلت قيادة الفكر من الشعر إلى الفلسفة، وأصبح قادة الفكر فلاسفة ومفكرين بعد أن كانوا أصحاب شعر وخيال، ولكن هذه الفلسفة نفسها جدت في سبيلها التي سلكتها إلى الرقي وانتهت إلى ما لم يكن بد من أن تنتهي إليه، فأحدثت في النفوس شكًا وتناوتت النظم القائمة بالنقد حتى هدمتها أو كادت تهدمها وظهر أنها عاجزة عن قيادة الفكر بعد أن وصلت الجماعات إلى هذا التطور.

كل شيء في العالم القديم كان يدل في هذا القرن الرابع على أن الحياة الإنسانية في حاجه إلى أن تتغير وعلى أن القوة لابد من أن تظهر لضبط الأمر وتقضي على هذه الفوضى العامة".

وكان لهذه القوة المنتظرة مركزان: أحدهما قريب من الشرق في مقدونيا، والآخر قريب من الغرب في روما، ولكن هذه القوة المقدونية كانت فيما يظهر أقدر على الظفر وأخلق بالانتصار من القوة الرومانية، لكنها كانت قريبة من مركز الحياة الأدبية والسياسة القوية كانت قريبة من اليونان شديدة الاتصال بهم وكانت قريبة من آسيا أيضًا.

ولست في حاجة إلى أن أذكر لك مقدونيا وتاريخها، ولا أن أفصل لك نهضتها السياسية واستثنائها بالقوة فكل ذلك شيء لا يعنيننا الآن، وإنما الذي يعنيننا هو أن ملكًا من ملوكها وهو فيليب قد استطاع بهذه القوة أن يكسب لها قوة حربية ضخمة واستطاع بهذه القوة أن يستأثر بالأمر كله في البلاد اليونانية وأن يخضع هذه المدن اليونانية لسلطان قوى حازم ويقضى على ما كان بينها من نزاع وخصومة ويوجه قوتها المادية والمعنوية إلى جهة جديدة نافعة هي الاستيلاء على الشرق والقضاء على سلطان الفرس فيه.

ولكن فيليب قتل غيلة ولما يبدأ تحقيق غايته الكبرى التي كان يسعى إليها فنهض بالأمر بعده ابنه الشاب الإسكندر واستطاع لا أن يحقق غاية أبيه، بل أن يتجاوزها إلى شيء لم يكن يخطر لفيليب ولا لغيره من المقدونيين واليونان، بل لم يخطر لأحد من قبله وهو إخضاع العالم القديم المتحضر كله لسلطان واحد قوي ومنظم.

عد إلى الفلسفة اليونانية التي ازدهرت في القرنين الخامس والرابع قبل المسيح والتي انتهت بإفساد النظم السياسية اليونانية ولم توفق لإيجاد نظم جديدة تخلفها عد إلى الفلسفة تجدها كانت تطمح قبل كل شيء وبدون أن تشعر إلى توحيد العقل الإنساني والأخذ بنظام واحد في التطور والتفكير والحكم ولم يكن بد إذا انتصرت هذه الفلسفة من أن تتقارب الشعوب وتتعاون على توحيد الحضارة وترقيتها وعلى إيجاد نوع إنساني متحد الغاية متشابه الوسائل في مساعيه ولكن ما السبيل إلى انتصار هذه الفلسفة؟ وما الوسيلة إلى تحقيق

غايتها هذه ؟ أما الدعوة والنشر فما كان من شأنهما أن يضمننا هذا النصر ولا أن يحققاً هذه الغاية فكيف تتصور انتشار فلاسفة اليونان في البلاد الشرقية وإداعة فلسفتهم في هذه البلاد وإذا لم يمهد لذلك بإزالة الفروق السياسية والاجتماعية والاقتصادية بين اليونان وغيرهم من الشعوب. فهم الإسكندر هذا وجد فيه فوق له: أخضع العالم القديم المتحضر كله لسلطان واحد وأزال بين شعوبه تلك الفروق التي أشرنا إليها آنفاً، وأتاح للآداب اليونانية والفلسفة اليونانية أن تتغلغل في أعماق الشرق وتؤثر في نفوس الشرقيين وتصبغها هذه الصبغة اليونانية التي كانت قد أعدت من قبل لتكون صبغة عامة خالدة للعقل الإنساني.

الإسكندر إذن قائد من قادة الفكر، بل هو زعيم من زعماء قادة الفكر، بل هو أشد من قادة الفكر القدماء إنتاجاً وأكثرهم نفعاً فما قيمة الفلسفة اليونانية كلها لو لم يتح لها الإسكندر ليذيعها في أقطار الأرض ويبثها في مختلف الشعوب" انتهى الاقتباس.

ولولا أن المجال كان بالدرجة الأولى هو اليونان وأن طه حسين في هذه المرحلة الأولى من حياته لم يكن معنياً بالإسلام نقول لولا هذا لوجد في ظاهرة الفتوح الإسلامية أكبر مبرر لتصادم الحضارات.

ذلك أن الجهاد كما يقدمه القرآن الكريم هو الحرب في سبيل حرية العقيدة أو بتعبير القرآن - لكي لا تكون فتنة - أي حتى لا يفتن المؤمنون عن دينهم كما كان مشركو مكة يريدون وفي هذا السبيل بدأوا اضطهادهم عندما كان المسلمون تحت رحمتهم في مكة ثم بدأت الحرب عندما أوى المسلمون إلى المدينة ووجدوا سيوفاً يمكن أن ترد على حرب المشركين. فالجهاد في القرآن وفي أيام الرسول كان دفاعياً خالصاً، ولم يستهدف فتح أرض جديدة والاستيلاء عليها كما لم يستهدف أبداً إرغام غير المسلمين على الإسلام لأن الجهاد كان دفاعاً عن حرية العقيدة ومن مناقضة ذلك أن يكون وسيلة لفرض العقيدة.

وكان يمكن قبول الجهاد الإسلامي وتبريره بل واعتباره رأس الفضائل ما دام هو وسيلة الدفاع على حرية العقيدة وإنقاذ الضمير من أن يكون أسيراً لعقيدة لا يرضاها.

أما الحروب التي حدثت في عهد أبي بكر وأطلق عليها في الكتابات الإسلامية حروب الردة فإنها كانت تمرداً على الدولة المركزية ومحاولة للعودة إلى الأعراف القبلية ورفض تقديم الزكاة وحتى بالنسبة للمجموعة التي ارتدت فعلاً مثل مسيلمة وطلحة، فإنها كانت حرباً يأخذ الهجوم فيها شكل الدفاع (ولم يكن هجوماً خالصاً لأن الحقيقة أن المرتدين هم الذين بدأوا الحرب، وأن أبا بكر لم يحارب المرتدين قدر ما حارب المرتدون أبا بكر).

ولكن لا يمكن حمل الفتوح الإسلامية التي اخترقت حدود الجزيرة إلى المملكة الفارسية والمملكة البيزنطية في عهد عمر بن الخطاب هذا المحمل ويكون علينا إيجاد تبرير لها خاصة وأنه كان واضحاً من البداية أن الغرض لم يكن فرض الإسلام على أهل المملكتين، لأن قبول الجزية مع احتفاظ أهل هذه البلاد بدينهم كان وارداً.

فكيف نبرر هذه الفتوح ؟

يمكن أن نقول إن هذه الظاهرة تعرض لنا حالة معقدة ومركبة يتلاقى فيها المبدأ بالمبدأ والمثل الأعلى بالمثل الأعلى فمبدأ حرية الاعتقاد هو الأصل والقاعدة ولكن يحدث في بعض الحالات أن يظهر مبدأ يتطلبه التطور بالنسبة للظروف الخاصة أو الأنوية مثل تحقيق العدل فيجعل التطور الأولوية لمبدأ تحقيق العدل

ومقاومة الظلم ومع أنه قد لا يكون هناك تعارض ولكن هناك مناطق تماس، كما قد يسمح بوجود تعارض مؤقت حتى تنتهي الضرورة التي فرضته وهذه كلها ظواهر يفرضها فرضاً التعقد الاجتماعي.

بالإضافة إلى تلاقى المبادئ فيغلب أن يقترن هذا بتلاقى المجتمعات، فيظهر مجتمع شاب فيه كل عناصر القوة والحيوية والفعالية أشبه بحصان جامح يريد أن ينطلق بينما تظهر بجانبه مجتمعات شائخة طبقية تقليدية فقدت حيويتها منذ عهد بعيد في هذه الحالة يكون طبيعياً أن يندفع المجتمع الجديد بكل حيوية ليكتسح المجتمع الهرم القديم المتهاوي بالفعل لتتنصر المبادئ الجديدة السليمة مع مجتمعاتها الجديدة على المبادئ القديمة ومجتمعاتها الشائخة.

وعندما يحدث هذا فيمكن أن نقول إن هذا الصراع ما بين مجتمعات شابة قوية لها مبادئ سليمة مع مجتمعات شائخة قديمة لها مبادئ بالية هو ما يطلقون عليه صراع الحضارات.

والذي حدث أن المجتمع البشرى قبل ظهور الرسالة المحمدية كان يتخبط في إसार حضارات طبقية جائرة تسودها الجهالة والوثنية وقد كان أبرز طابع لهذه المجتمعات - الفارسية الرومانية - هو استعباد الجماهير والتحكم فيها إما بتزييف الرسائل السماوية السابقة التي جاءت لتحريرها أو بتأليه الملوك والحكام أو بفرض الإصر والأغلال على الجماهير المحرومة بحيث عجزت هذه الجماهير عن أن تحرر نفسها وأصبح من الضروري أن يأتي التحرير من السماء رأساً في صورة رسول يدعو لأن تحل شرعة المساواة محل شرعة الطبقة، شرعة الشورى محل شرعة الاستبداد، شرعة العدالة محل شرعة الظلم، شرعة العلم محل شرعة الجهل، وأهم من هذا كله شرعة الله محل شرعة الطاغوت لأنه في هذه الصيغة "الله لا الطاغوت" تتبلور رسالة الإسلام.

لم يكن إلا العرب في هذا الوقت ليقوموا بهذه الرسالة ولم يكن إلا الإسلام لتتمثل فيه هذه الرسالة، وكان لابد من تقويض أسس وهيكل النظام الجائر الفاسد الذي يستعبد الناس وإحلال نظام العدالة والشورى.

وقد أرسل الرسول خطابه المشهورة إلى كسرى وقيصر ورفضها هذان وبإباء وشمم، فلم يكن من الممكن أن يتم هذا إلا بالحرب والقتال.

وهكذا ظهر الجهاد في سبيل الله.

الجهاد في سبيل الله قتال في سبيل مثل أعلى يستهدف أمرين:

الأول: إحلال نظام اجتماعي واقتصادي وسياسي صالح محل نظام اقتصادي وسياسي واجتماعي فاسد وهذا ما يتم بإسقاط النظم الفاسدة وإحلال نظم جديدة تقوم على العدل والمنهجية وحكم القانون "أو كما يسميه الإسلام الشرع"، وأن يكون الناس أمام الفرص وفي المعاملة كأسنان المشط ولا فرق بين غنى وفقير نبيل وعامي عجمي وعربي أسود وأبيض، ولم تكن الجيوش الإسلامية لتحارب في الجنود أمامها كفاراً، ولكن حماية النظام الفاسد والقوة التي تعمل على بقائه وتحول دون إحلال العدل الذي جاء به الإسلام.

والشق الثاني: التبشير بدعوة وعقيدة الإسلام وهذا الأمر لا يمكن إلزام الأفراد به أو فرضه عليهم ويجوز لكل واحد أن يرفضه وأن يتمتع - في ظل الحكم الإسلامي والعدل الإسلامي بكافة حرياته الدينية - لقاء دفع ضريبة إضافية هي الجزية.

ذلك لأن الغرض الرئيسي من الجهاد في الإسلام ليس هو حمل الناس قسراً على الإيمان بالإسلام، لأنه لو كان ذلك لما سمح ببقاء كل من يشاء الاحتفاظ بدينه، ولما حُمى الكنائس، ولما أُعطي القسيسين والرهبان نوعاً من الحصانة.

ولكن الجهاد الإسلامي استهدف في هذا الشق التعريف بالإسلام وإعلام الناس أن هناك ديناً ونظاماً اسمه الإسلام يقوم على قواعده الخاصة.. الخ.

ولم يكن هذا ميسراً في العهود القديمة، خاصة بعد رفض الملوك رسائل النبي - إلا بظهور الجيش الإسلامي والحكم الإسلامي دون أن يتضمن هذا بالضرورة مساساً قسرياً بحرية الاعتقاد، ولكن تطبيقاً لغرض أوجبه القرآن على المسلمين عندما جعلهم دعاة حضارة "لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ"، وحملة "للكتاب والميزان" بتعبير القرآن.

وقد يرى البعض أن الضريبة الإضافية التي فرضت على الذين آثروا الاحتفاظ بدينهم، ورفضوا الإيمان بالإسلام تمثل ضغطاً يخالف حرية الاعتقاد، ولكن الأمر في حقيقة الحال عكس ذلك، إذ البديل الوحيد هو جعل هؤلاء الناس ينخرطون في خدمة الحكومة الإسلامية التي لا يؤمنون بها ويخضعون لكافة أحكامها، ولولاها لجاز أن يؤخذوا ليكونوا جنوداً في الجيش الإسلامي، وعندئذ يلزمون بالدفاع عن عقيدة لا يؤمنون بها، ويكلفون بمحاربة عقيدة يؤمنون بها، فالجزية هنا تمثل سبيلاً للاحتفاظ بالعقيدة وبديلاً عن القسر الذي لم يكن منه مناص نتيجة للتعقيد الاجتماعي، وهي ليست ثمناً للحرية، ولكنها ثمن العدالة والحماية، وكانت هذه الصفقة رابحة للذين آثروا الاحتفاظ بدينهم أكثر مما كانت رابحة للمسلمين، وقد سعد بها أصحابها على حساب المجتمع الإسلامي إلى درجة ساعدت - فيما بعد - على ظهور "الامتيازات الأجنبية" وظهور مجتمعات منفصلة وشبه مستقلة داخل المجتمع الإسلامي.

وقد كان نظام الجزية من النظم المقررة، وقد دفع المسيح نفسه الجزية، وكانت لدى الرومان وغيرهم ثقيلة وباهظة، وتؤخذ على أساس جميع أفراد الأسرة، ويطلقون عليها ضريبة الرؤوس، ولما جاء الإسلام هبط بها ولم يأخذها إلا على الرجال الأشداء دون النساء والأطفال والشيوخ.

وفي الحقيقة، فإنه لم يكن هناك حل لهذه المعادلة الصعبة سوى ذلك وقد نجد مثيلاً لها في حالة رفض بعض العمال الانضمام إلى النقابة، مع تمتعهم في الوقت نفسه بالمزايا التي تكتسبها النقابة وتسري على كل العمال، في هذه الحالة يفرض على العمال الذين لا يريدون الانضمام إلى النقابة دفع "رسم انتفاع" ويسمى هذا النظام Agency Shop، والجزية الإسلامية هي بدل الانتفاع هذا.

القضية التي هرب منها المثقفون

هناك قضية رئيسية تجاهلها المثقفون منذ أيام رفاة الطهطاوي ومحمد عبده، وكان هذا التجاهل من أكبر أسباب الخلل في المجتمع والأزمة في الفكر المصري، وتسبب في أحداث بعيدة المدى في تاريخنا، ما كانت لتقع لو أن المثقفين جابهوا هذه القضية وعالجوها بعدالة، وموضوعية.

تلك هي قضية الدين - وبالتحديد - الإسلام الذي هو دين الغالبية العظمى (٩٥%) في بعض الإحصائيات، وموقعه على خريطة المجتمع بمختلف صورته في مجالات الاقتصاد، والاجتماعية والسياسية.

- ١ -

وقبل الدخول في الموضوع، من المهم أن يتعرف المثقفون المصريون على دور الأديان في تاريخ البشرية ومسيرة تقدمها، فقد أنعم الله تعالى على البشرية بالعلوم والفنون والفلسفات التي كانت من أكبر أسرار تقدمها، وحاضر المجتمعات الأوربية شاهد بذلك، فكل ما وصلت إليه من تقدم يعود إلى العلوم والفنون والفلسفات.

ولكن الله تعالى أنعم أيضا على البشرية بالأديان التي سبقت العلوم والفنون والفلسفات، وكان لها دور كبير في هداية البشرية للقيم والمثل التي تنهض بالمجتمع وتحقق له الخير والعدالة وتجعل الفرد ينعم بالراحة والمجتمع يظفر بالسلام.

كانت الأديان هي النافذة التي اطلعت منها الجماهير على عالم الآخر، والموضوعية، والقيم، والوجود، والكون، وما بعد الموت. وما يكون التصرف السليم للإنسان في مجتمعه، وتم هذا قبل أن تزدهر العلوم، وبصورة أكثر فعالية ومباشرة من الفنون، أما الفلسفات فقد ظلت طول عمرها فكراً لا يمكن أن يصل إليه أو يستوعب إلا النخبة القليلة التي دربت ذهنها لاستيعاب وفهم قضايا "إشكالياتها"، وقد يمكن القول أن الفلسفة كانت ديانة النخبة في حين أن الدين كان فلسفة الجماهير العريضة.

قدمت الأديان الضمير، ووصلته بالله تعالى ليكتسب قداسة وموضوعية وتعصمه من أهواء الحكام، أو الذين يريدون استعباد الناس وتسييرهم طبقاً لقيم تبرر هذا الاستعباد أو تدعو إليه.

وإذا نظرنا إلى ثورات الجماهير الحقيقية لوجدنا أن الأديان الثلاثة كانت أكبر هذه الثورات فقد قادت اليهودية الإسرائيليين المستذلين من بيت العبودية إلى مسيرة التحرير، وجعلت المستضعفين من جماهير روما، المحكومين بالسيف الروماني يثورون على روما وجيشها، وقانونها ويحلون المسيحية - دين الحب والمساواة والفداء - محلها وأخيراً وجدنا الإسلام يحول القبائل العربية المتنازعة المتحاربة التي كانت تفخر بسبق جواد أو شرب خمر إلى كتيبة من المؤمنين يحملون الكتاب والميزان إلى الإمبراطوريات الطبقية الطاغية، هل هناك ثورات تماثل هذه الثورات في صدق جماهيريتها ونبل غايتها وفي نجاحها في استنقاذ الجماهير، وفي سلامة وسائلها، وفي أن قادتها - الأنبياء - كانوا المثل الأعلى للبشرية في القيادة ؟

نعم، إن الأديان استغلت بعد مرحلتها التحريرية ولكن هذا لا ينفي أنها ظلت قائمة كأكثر مؤثر في المجتمع عهداً طويلاً، وحتى بعد ما خسرت مكانتها في المجتمع الأوربي لانحراف الكنيسة عن المسيحية الحقة، فإنها ظلت في المجتمع تحاول كبح جماحه، وظلت الحضارة الأوربية تنظر إليها كأحد مكوناتها الثلاثة (اليونان - الرومان - المسيحية).

فإذا قيل إن الفكر الأوربي ينطلق من غير المنطق الديني ولا يعطي الأديان أو أنبيائها هذه المنزلة، قلنا إن أوربا لم تكن أرض الديانات، وقد حل الفلاسفة والفنانون فيها محل الأنبياء ولكن الصورة مختلفة تماما في الشرق، ومن الخطأ أن نقيس وضعنا على وضعهم فكل بلد له الطريقة التي قسمها الله له، وما يصلح لبلد قد لا يصلح لبلد آخر.

- ٢ -

مثل هذه المساهمة في تقدم تاريخ البشرية والنهضة بالجماهير والجماعات ومحاولة إرساء أسس لتحقيق سكيننة النفس وسلام المجتمع، لا يجوز أن تُغفل من اهتمامات المثقفين، بل يجب أن تكون نصب أعينهم ومحل اعتزازهم.

هناك عامل آخر يتعلق بمصر على وجه التعيين، وإذا كان المثقفون المصريون أمعاء على مصريتهم فعليهم أن يسلموا بالحقيقة التاريخية التي صاحبت مصر طوال تاريخها منذ أن وحد الملك مينا الوجه البحري والوجه القبلي وبدأ أولى الحكومات والأسرات، تلك الحقيقة هي أن مصر أمة إيمانية مثل الإيمان الديني فيها السياسة والاقتصاد والاجتماع، وأوجد الضمير، وبفضله شاد المصريون الأهرام والكرنك وأبو سمبل والمسلات العديدة التي تقاسمتها ميادين العالم. وأعطت الإنسان المصري الديانة والسماحة.

وعندما اعتنق المصريون المسيحية، قامت مصر - رغم أن الحقبة المسيحية قصيرة، وأن المسيحيين لم يتولوا حكما بل تعرضوا لاضطهاد الحكام الوثنيين أولاً ثم المسيحيين ثانياً (لاختلاف المذاهب) بدور كبير في الفكر المسيحي وظهر فيها قطبان بارزان آريوس وأثناسيوس، وصمدوا للاضطهاد حتى جاء الفاتح المحرر عمرو بن العاص الذي أعاد للكنيسة المصرية حريتها.

ومع أن دور مصر الإسلامية جاء متأخراً، وبعد ظهور العواصم الإسلامية الأولى: المدينة، ودمشق، وبغداد، فإنها قادت العالم الإسلامي في إحدى فترات الحرج التي تمثل نقطة الانتقال، فهزمت التتار في عين جالوت وهزمت الصليبيين في حطين وأنقذت الإسلام، والمنطقة العربية كلها من شرهما.

وقد حققت مصر "الماجنا كارتا" عام ١٨٠٥ على يدي شيوخ الأزهر عندما أنهوا الحكم التركي، وأسقطوا الوالي الموفد من الخليفة، ثم جاءوا بالبكباشي محمد علي وأعلنوه والياً وألبسوه خلة الولاية "على أن يحكم بالعدل والإعزله".

تلك كانت القمة التي وصل إليها شعب مصر عندما عزلوا عن طريق قادته الحقيقيين المباشرين شيوخ الأزهر - والياً من عهد الخليفة وولوا والياً من اختيارهم الخاص.

ولا ينكر المثقفون أن راندهم الأول في مصر الحديث هو رفاعة الطهطاوي الشيخ الأزهرى وإمام البعثة والمفكر الأول الذي أراد أن يحقق مصالحة ما بين الإسلام والعصر الحديث وأن أكثر من خلفه أثراً كان محمد عبده تلميذ الأفغانى وأستاذ سعد زغلول - وسعد زغلول هو زعيم البرجوازية المصرية ورمز المرحلة الليبرالية في تاريخ مصر، ومنذ أن حرر عمرو بن العاص مصر حتى الآن، وقد اتخذت العربية لغاً، والإسلام ديناً، وكان أبطالها هم أبطال الإسلام، وكان قانونها هو الشريعة التي حمت مصر من وباء كإدمان الخمر، أو هيمنة المرابين.

هذه هي المنزلة الكبيرة للأديان بين مفاخر البشرية التي تجعلها تفوق العلوم والفنون والفلسفات لأنها أوجدت الضمير وميزت بين الخير والشر وعرفت البشرية على الله تعالى.

وهي المنزلة التي تتضاعف بالنسبة لمصر لطبيعتها الإيمانية، ولما قام به الإسلام في حياتها، ولما قدمته هي نفسها للإسلام.

منذ أوفد محمد على بعثاته إلى الخارج، وقد ظهرت "إنتلجنسيا" تستمد ثقافتها من المصادر الأوروبية ولكن بعثات محمد على كانت علمية، وقد رأينا أن رائد حركة "التنوير"، كما يقولون كان رفاة رافع الطهطاوي وهو شيخ أزهرى لم يحوله الانبهار بالغرب عن جذوره وأصوله، وإنما بدأ الأثر السيئ لهذه البعثات من الاحتلال البريطاني الذي سمح بدخول كل موبقات الغرب من خمور وبغاء وربما، كما رفع منزلة الأجانب فوق المصريين وفتح الباب على مصراعيه أمام المبشرين، وكان بالطبع قد قضى على الجيش وعطل الشريعة، وحاول أن يفرض اللغة الإنجليزية وما حال دون أن يحقق الاحتلال البريطاني غاياته هو أن شعب مصر ثار في ١٩١٩م التي كانت المسمار الأول في نعش الاحتلال البريطاني وأوقفت توغله.

ولكن هذا لم يمنع من أن معظم الذين أرسلوا في بعثات منذ الاحتلال حتى المرحلة الليبرالية ١٩٢٣ - ١٩٥٢م التي تخلى فيها المجتمع المصري عن الإسلام كمشروع حضاري - تأثروا بالحضارة الأوروبية تأثراً بالغاً - خاصة وأنه لم يكن لهم أساس حضاري أو ثقافي إسلامي، فعادوا إلى البلاد مبشرين بحضارة لا تجعل الدين عنصراً فعالاً منها، بل إنها متأثرة بالعداوة ما بين الكنيسة والأحرار في القرون الوسطى تضيق به وتعزف عنه.

ويصور ذلك تصويراً دراماتيكياً عميقاً موقف الدكتور لويس عوض، فهذا الأستاذ الأكاديمي المتمكن في اللغة الإنجليزية وأدبها والحضارة الأوروبية أصبح قلباً وقالباً جسداً وروحاً ملكاً لها، بحيث جعل من العميل يعقوب الذي خدم وعمل مع الحملة الفرنسية وكان يذوب غراماً وهياماً في الجنرال "ديزيره" ورحل مع فلول الحملة عندما عادت إلى فرنسا جعله أول بطل للقومية المصرية وجعل من جمال الأفغاني - العدو اللدود للاستعمار وصاحب الصيحة التي أيقظت الشرق، والذي أمضى في مصر ثمان سنوات أثمرت الروح الوطنية التي ظهرت - وقتئذ جعله لويس عوض "عميلاً" وما كان وصف لويس عوض لينزل إلى هذا الدرك إلا لأنه أغفل أثر الإسلام واستسلم قلباً وقالباً للثقافة فجعل العميل بطلاً والبطل عميلاً.

لم يكن هذا بالطبع هو موقف بقية المثقفين فمعظمهم بعد أن أفاق من صدمة الانبهار، عاد إلى جذوره مثل زكي نجيب محمود ومنصور فهمي وإسماعيل مظهر وحسين هيكل والآخرين، ويمكن القول بصفة عامة أن السلبية إزاء الدين كانت هي اتجاه الأغلبية العظمى من المثقفين، لأن كل منابعهم الثقافية كانت بعيدة عن الإسلام سواء كانت الحضارة الأوروبية أو الماركسية أو القومية أو الناصرية.. الخ.

فإذا كانت هذه السلبية إزاء الدين أمراً مفهوماً منهم بحكم ثقافتهم، فإن المفارقة هي أن هؤلاء المثقفين يعيشون ويفكرون ويحيون في مصر - مصر الإيمانية - التي تمثل الإسلام بداية التاريخ الحي، ومستودع القيم وجذر الضمير، ونبض الشارع.

كانت نتيجة هذه المفارقة المأساوية أمرين:

الأول: أن الشارع المصري فقد الثقة في المثقفين. وانقطعت جسور التواصل ما بينه وبينهم. فهم يتكلمون لغة، ويتحدثون عن قيم ومذاهب وأشخاص فيما يشبه الرطانة وقد يفاجنون الشارع بالاحتفال بمسرحية ساقطة تتضمن سطوراً مهينة لله تعالى، وللقرآن والإسلام أو روايات جنسية، يحللونها بأسباب "فنية" فإذا أرادوا التقرب إلى الشعب تحدثوا عن أمجاد مصر الفرعونية أو إنجازات ثورة ٢٣ يوليو (التي لم تكن أبد ثورة، ولن تكون) والشعب يعلم أن هذا مجرد نفاق وغثاء لا قيمة له.

المهم أن المثقفين أصبحوا متفوقين في برج عاجي لهم لغة، واهتمامات، وأفكار، وأهداف تختلف تماماً عما يحسه الشارع المصري وما يؤمن به، ويعمل له.

الأمر الثاني: الذي ترتب على سلبية المثقفين إزاء الإسلام، أن أصبح الإسلام في قبضة المؤسسة الدينية وسدنتها، وأصبح لهؤلاء صفة "المحتكر" الذي لا ينافسه آخر في بيع سلعته للجمهور.

والمؤسسة الدينية في مصر - التي يمثلها الأزهر - هي كبقية المؤسسات الدينية في الدول الإسلامية تؤمن بالفهم التقليدي السلفي المقرر للإسلام الذي وضع بذرته أئمة الفقه والتفسير والحديث منذ ألف عام، وهي ترى أن هذا هو الإسلام، وأن كل ما عداه انحراف عنه أو إلحاد فيه، وقد تعلمه فقهاؤها صغاراً، وأصبحوا يدرسونه كباراً، ووصل التخصص بهم أن أصبح لكل مذهب من المذاهب الأربعة فقهاؤه، وهذه المعرفة المتعمقة المتخصصة هي محصولهم الثقافي الوحيد لأنهم لا يلمون بلغات أخرى غير العربية، ولم يعنوا بدراسة ما يخرج عن مذهبهم.

وكانت النتيجة أن تفوق الفكر الإسلامي وأريد للمسلمين في هذا العصر أن يؤمنوا بما وضعه أسلافهم من ألف عام، وهم يردون على أي مجدد بأنهم هم "أهل الذكر" وأن الثقافة الإسلامية ليست "كلاً مباحاً لكل من هب ودب"، وأنه كما أن الإنسان إذا كان له قضية يذهب لمحامي، وإذا كان مريضاً يذهب إلى طبيب فإن على السائلين جميعاً عن الإسلام أن يذهبوا إليهم.

وقد ساندتهم الدولة والنظم الحاكمة بصفة عامة، لأن هذه النظم لا تريد أكثر من إبقاء الأوضاع على ما هي عليه - أي أن يظلوا في الحكم، وأن أي تغيير قد ينسحب عليهم، ولهذا فإن الحكومة تشيد بين أونة وأخرى بالأزهر الشريف وعلمائه الإجماع.. الخ، والأزهر يشيد بالحكومة وما تقوم به من جهود.

كان المفروض أن يكسر المثقفون هذا الطوق المشيخي / الحكومي على الإسلام كقضية فكر وعقل كما هو قضية وحي ونقل وأن معرفة الإسلام مفتوحة لكل من يقرأ ويتعلم وليست حرفة مقصورة أو دكاناً مغلقاً أو وسيلة للارتزاق، وأن الإيمان قضية ضمير، وأن القرآن يندد بالذين يتبعون ما ألفوا عليه آباءهم ويطلب المسلمين بالتفكير والتدبير وإعمال العقول والملكات الإنسانية وأن الإسلام بالذات دين مفتوح يطالب الحكمة أينما وجدها إلى آخر هذه القيم التي تتلاقى ما بين الإسلام وما بين الفكر الحر، ولم يكن عسيراً على هؤلاء المثقفين - ولديهم الثقافة بالطبع - أن يفتحوا المصحف وأن يستوعبوا معانيه وأن يلحظوا أوامره ونواهيته بحيث يردون على المؤسسة الدينية.

ولو فعل المثقفون هذا لكسبوا إعجاب الشعب واحترامه لأنهم يحاربون في سبيل قضية عزيزة عليهم هامة لهم، وكان من الممكن أيضاً أن يتهيا المناخ لنهضة الفكر الإسلامي ويحقق صحوه إسلامية في قلب خريطة العصر وليس على هامشه ويقضي على نوازع الانحراف وضيق الأفق والعنف والإرهاب.

إن قضية الدين دورة في المجتمع ليست قضية هامشية أو جزئية وهي أهم وأكبر من أن تترك للشيوخ لأنها أن تم تكن هي محور المشروع الحضاري، فلا شك أنها أحد محاوره الرئيسية، وبهذه الصفة لا بد للمثقفين مجابتهتها بقوة، وإخلاص وإلا فلن تتحقق النهضة، كما لن يلتحم - يقتنع - الشعب بالمثقفين وستعظم غربتهم وانعزالهم عنه (*).

منيرة ثابت رائدة الصحافة العربية والمطالبة بالحقوق السياسية

كان والدي رحمه الله يأخذني معه و أنا في العاشرة من العمر (سنة ١٩٣٠ على وجه التقريب) إلى مكتبه، فيضعني وسط أكوام من المجلات، وينصرف هو إلى كتاباته وكنت أمضي الوقت في قراءة أعداد مجلتين أولاهما "اللطائف المصورة" التي كانت رائدة الصحافة المصورة، والثانية تحمل اسم "الأمل" وكان اسمها مكتوبا بخط جميل كبير و تحته "صحيفة الدفاع عن حقوق المرأة" ثم هذا البيت:

أمل ألقيه في الوادي الخصيب ورجاء في ثراه لا يخيب

تلك كانت مجلة "الأمل" التي أصدرتها أواخر عام ١٩٢٥ صحيفة شابة هي الآنسة "منيرة ثابت". ولا تقتصر غرابة هذا الأمر على إصدار أنسة شابة لمجلة سياسية في هذا الوقت المبكر. الأغرب من هذا أن "الأمل" كان لها شقيقة تحمل الاسم نفسه باللغة الفرنسية *L'Espoir*.

عوامل عديدة أدت بهذه الآنسة الشابة الغريرة لأن تقم نفسها في عالم الصحافة السياسية وأن تكون صاحبة الامتياز ورئيس التحرير لمجلتين سياسيتين إحداهما يومية فرنسية والأخرى عربية أسبوعية.

من هذه العوامل ما اتصفت به من جرأة وشجاعة وإقدام، وثقة في النفس وقوة في الإرادة، وتلك كلها ملكات نفسية مطبوعة، ومنها أن والدها كان صديقاً لسعد زغلول وإسماعيل صدقي، وزير الداخلية وقتئذ، الأمر الذي يسر لها الحصول على ترخيص المجلتين، ولم تتحدث منيرة ثابت في كتابها "ثورة في البرج العاجي مذكراتي في عشرين عاماً" عن معركة حقوق المرأة السياسية (دار المعارف، ديسمبر ١٩٤٥) عن تفاصيل الجهود التي بذلتها وانتهت بنيلها هذين الترخيصين، وأرجأت ذلك إلى مذكراتها "التي قد أنشرها يوماً ما" المهم أن زيارتها ما بين بيت الأمة وساكنه سعد زغلول و"دولة الحكومة" وممثليها إسماعيل صدقي نمر السياسة المصرية، وُقفت "فتسلمت من يد دولة إسماعيل صدقي باشا ترخيصين بإصدار "الأملين.."

ولا زلت وقد مضى أكثر من ستين عاماً، أذكر و أنا طفل صغير أقرأ في رواية مسلسلته كانت تنشرها "الأمل" بعنوان "قمر بني إسرائيل" تصور أوضاع مصر في فترة بعثة موسى، وأذكر صورة "زيور" الذي تولى الوزارة بعد استقالة سعد زغلول إثر إنذار المعتمد البريطاني "اللنبي" ومظاهرته العسكرية، وقد كان "زيور" طويلاً سميناً، له بطن بارزة، وصورته "الأمل" والمعتمد البريطاني ينهال عليه بالسوط كما لم أنس مقالا يحمل عنوان "حنانيك يا نشأت" وهو عنوان أصبح مشهوراً في الكتابة السياسية وقتئذ، و نشأت هو رجل السراي الملكية الذي أسس حزب الاتحاد لمنافسة حزب الوفد.

و مما يدل على نشاط هذه الشابة الناشئة أنها ظفرت من مكرم عبيد، وقد كان دائماً نصيراً لقضية المرأة، بخطاب طويل مسهب نشر في العدد الأول ٧ نوفمبر ١٩٢٥، وجاء فيه:

سيدتي: "طلب إلى صديق أجله أن أكتب كلمة افتتاحية لصحيفة "الأمل" التي اعتزمت إصدارها و إن لم أشرف بمعرفتك شخصيا فإن روحك الثائرة كثيرا ما أثارت في نفوسنا نحن الرجال (لا أقول ثورة، فالثورة وإن كانت فكرية قد تسوق إلى النيابة) بل حماسة مقدسة ليس أقدر من المرأة على إزكائها.

"ولقد عرف الناس فيك مثلاً صالحاً للمرأة المصرية التي اشتركت في نهضتنا المباركة وكانت على الدوام سخية الخيال، كبيرة الأمل، وها أنت قد نزلت إلى ميدان العمل المجيد لتحقيقي ما تصبو إليه المرأة المصرية من آمال سامية، فاعلمي ولتعمل معك كل فتاة، فالأمل دون العمل هو الوهم الباطل، و الخيال المريض الناحل.

"الأمل.. ما أحسنه عنوانا لكتاب الحياة، فلا حياة ولا عاطفة، ولا فكر، ولا عمل، ولا جهاد دون ذلك المحرك الأكبر، "الأمل" بل يموت الإنسان ويحمل آماله، أو تحمله آماله، إلى ما وراء القبر، وما الموت إلا موت الأمل.

"وألا ترين يا سيدتي أن أمتنا الأسيفة هي في هذا الوقت أحوج منها في سائر الأوقات إلى الأمل، وإذا كان الأمل وليد الخيال، فأى أمل يبقى لنا إذا كان الهازنون والمتشككون يهزءون بكل خيال، وبكل جمال، وبكل عاطفة، وبكل إيمان، حتى صغرت نفوس البعض منا، وصغرت آمالهم، وأصبحت الوطنية والكرامة تباع وتشترى في سوق الشهوات بثمن بخس دراهم معدودات.. الخ الخ.

ثم قال معاليه: "لقد بقي على المرأة الطاهرة أن تنفخ من روحها الصافية في أجسامنا وأن تبعث بالكثير من الأمل إلى موات نفوسنا، وإذا لم يمكنها أن تعيد الفرحة إلى قلوبنا، والابتسام إلى شفاهنا، فلا أقل من أن ترسل الدمع إلى عيوننا - عسى أن يغسل الدمع بعض أرجاسنا.. الخ الخ "

ثم قال: ".. معجب شديد الإعجاب ببرنامجك أو بآمالك التي تطمحين بها إلى رقي بنات جنسك وإصلاح المجتمع المصري. ولكن لا تحزني يا سيدتي إذا لم تحققي الأمل كله، بل الويل كل الويل للإنسانية إذا تحققت جميع آمالها، ولم يبق لها من أمل تطمح إليه وخيال تصبو إليه. إن الكمال محال على الأرض وهذا حسن، ولعل هذا هو السر في جمال الأمل فالأمل مثل المرأة لا يشيخ أبداً، فهو يكاد يتحقق حتى يتطور، وهو مثلها ليس كله صفاء، بل بعضه ابتسام وبعضه دموع.

ثم قال: ".. ولي رجاء عندك يا سيدتي، هو أن لا تساوي بين الرجل والمرأة في كل شيء لك أن تطالبي بكل الحقوق وبكل الحريات، وللمرأة أن ترتفع أو تنخفض عن مستوى الرجل، ولكني أرجو أن لا تكون مثله، فنحن في حاجة إلى المرأة، إلى رقتها وظهرها نفسها، إلى بساطتها و إلى طفولتها، إلى ابتسامتها و إلى دموعها.. الخ الخ"

هذه بعض من آراء مكرم عبيد في "الأمل" وفي صاحبة "الأمل" وبرنامجها.

لعل هذه المعلومة تعطينا فكرة عن المستوى الثقافي لمجلة "الأمل" وتعطي صاحبته الحق في أن تكون رائدة الصحافة "النسوية" في مصر.

وتركزت دعوة منيرة ثابت في الحقوق السياسية للمرأة، فهذا - على ما يبدو - كان متفقاً مع شخصيتها ومع المد السياسي الذي ارتفع، وجعل المجتمع المصري وقتئذ سياسياً وجعل السياسة هي المشكلة الأولى للشعب.

وكانت منيرة ثابت رائدة في هذا المجال أيضا لأن "الاتحاد النسائي" الذي كانت ترأسه السيدة هدى شعراوي لم يكن متحمسا لنيل المرأة الحقوق السياسية، أي أن تدلي بصوتها و أن ترشح نفسها في الانتخابات فقد كانت هيئة جادة متزنة، يغلب عليها - على تقدميتها - طابع الحفاظ والتدريج، ولهذا قام نوع من الجفاء ما بين منيرة ثابت و"الاتحاد النسائي" لم ينته إلا سنة ١٩٣٦ عندما تبني "الاتحاد" قضية الحقوق السياسية للمرأة، واشتركت منيرة ثابت في معظم صولات نشاط "الاتحاد النسائي" وجولاته في الداخل والخارج، ولكن طبيعتها وتحمسها لقضية الحقوق السياسية جعلت هدى شعراوي وسيزا نبراوي يعتبرانها "ثورية" ويخففن من اندفاعها.

نعود إلى مطالبها بحقوق المرأة السياسية، فنجد أن منيرة ثابت أرسلت عريضة في مارس ١٩٢٧ إلى "رئيس مجلس النواب" والشخصيات السياسية والصحفية، الخ.

و لأن هذه العريضة يمكن أن تعد أولى الوثائق في تاريخ مطالبة المرأة بهذه الحقوق، ولأنها تعطي صاحبها صفة الريادة في هذا المجال، فنحن ننشر بعضها هنا.

القاهرة في.. مارس ١٩٢٧

حضرة صاحب الدولة رئيس مجلس النواب..

أتشرف بأن أرفع إلى دولتكم عريضتي هذه و أملى كبير في أن يكون لموضوعها نصيب من عناية مجلس النواب الموقر.

إن العالم كله سائر الآن في سبيل المساواة بين الرجل والمرأة في جميع الحقوق المدنية والسياسية وقد كان الدين الإسلامي أول سابق إلى "هذه المساواة"، فأعطي المرأة حرية التقاضي بدون إذن من زوجها وحرية المعاملات جميعها من بيع وشراء ورهن وارتهان وإيجار واستئجار وهبة وغير ذلك، وجرت التقاليد على هذه السنة حتى اعترف الفقهاء للمرأة بتولي القضاء متى توفرت فيها الشروط اللازمة لذلك وليس يخفي أن منصب القضاء هو أرفع المناصب وأجلها شأنًا في الإسلام.

واعترف الفقهاء أيضا للمرأة بحق الحكم وإدارة شؤون الرعية، فتولي الحكم كثير من النساء في الممالك الإسلامية، أخص بالذكر منهن الملكة المصرية شجرة الدر، التي اشتهرت بالعدل والحكمة والتي نالت مصر على يدها ما لم تنل مثله إلا على يد كبار الملوك.

إذن شريعتنا الإسلامية وتقاليدنا الشرقية سبقت المدنية الغربية في الاعتراف بحقوق المرأة السياسية، وإنما أقول الحقوق السياسية لأن تولى القضاء و تولى الحكم من الحقوق السياسية التي لا تنكر أهميتها. وقد أخذت أخيرا بلاد أوربا الراقية بهذه المساواة بين الرجل والمرأة فاعترفت الولايات المتحدة وإنجلترا وألمانيا وكل البلاد الراقية للمرأة بحق الانتخاب حتى الهند وهي بلاد شرقية لم تصل بعد إلى الدرجة التي وصلت إليها مصر من التقدم الاجتماعي والسياسي اعترفت للمرأة بحق الانتخاب وقد جرت فيها الانتخابات منذ ستة أشهر لجمعيتها التشريعية فاشترك فيها الرجال و النساء على السواء.

فهل يصح مع هذا كله أن تبقى مصر منكرة على المرأة أن تتساوى مع الرجل في الحقوق السياسية، وخصوصا في "حق الانتخابات" الذي جئت اليوم مطالبة به؟؟

إن المصريين جميعا يعرفون أن المرأة المصرية شاركت الرجل مشاركة فعلية في الحركة الوطنية التي كانت نتيجتها الحصول على الدستور، فمن الغبن للمرأة أن يستأثر الرجل دونها بكل مزايا الدستور.

و الآن فلننظر ما هو حكم الدستور فيما أطلب به ؟ هل هو ينكر على المرأة حق الانتخاب ؟؟ كلا، فإن المادة (٣) منه تقول:

"المصريون لدى القانون سواء و هم متساوون في التمتع بالحقوق المدنية والسياسية.. الخ"، فهل كلمة "المصريون" هنا يقصد بها الرجال وحدهم أو الرجال و النساء معا؟؟

إن المقصود بالبداية الرجال والنساء معا، و إلا فلو قيل إن المقصود هو الرجال وحدهم، لكان معني ذلك إخراج النساء من حكم المساواة في التمتع بالحقوق المدنية، وهذا ما لا يمكن أن يقول به أحد.

إذن دستورنا ينص على أن الرجال والنساء متساوون لدى القانون في التمتع بالحقوق المدنية والسياسية، ولا شك في أن حق الانتخاب هو أول الحقوق السياسية و أساسها: ولكن مما يوجب الأسف أن المادة (١) من قانون الانتخاب جاءت بعد ذلك فنقضت هذه القاعدة وخالفت المادة الثالثة من الدستور فقالت:

"لكل مصري من الذكور البالغ من السن إحدى وعشرين سنة ميلادية كاملة حق الانتخاب"، فقول هذه المادة: "لكل مصري من الذكور" يفيد التخصيص وهو وحده الذي حرم المرأة المصرية حقها في الانتخاب وهو مناقض لحكم المادة (٣) من الدستور التي تقدم ذكرها.

ومن هذا التناقض بين المادتين المذكورتين نستخلص دليلا جديدا على أن المادة (٣) من الدستور تشمل في حكمها الرجال والنساء معا، وهذا الدليل هو أن مادة (١) من قانون الانتخاب لما أرادت التخصيص قالت "لكل مصري من الذكور" فلو أن المادة (٣) من الدستور أرادت التخصيص هي أيضاً لاستعملت نفس ذلك التعبير ولما اكتفت بأن تقول "المصريون" بدون تخصيص.

فهذا الحكم الذي حكمت به المادة الأولى من قانون الانتخاب ظلم للمرأة وهضم لحق من حقوقها التي أعطاه إياها الدستور.

ولذلك أتقدم بعريضتي هذه إلى مجلس النواب الموقر راجية تخويل المرأة المصرية حق الانتخاب وذلك بتعديل المادة الأولى من قانون الانتخاب كما يأتي:

"لكل مصري ومصرية بالغين من السن إحدى وعشرين سنة ميلادية كاملة الانتخاب".

وتفضلوا يا دولة الرئيس بقبول عظيم الاحترام.

منيرة ثابت

وظلت منيرة ثابت "ثابتة" في مطالبتها بالحقوق السياسية، وفي سنة ١٩٣٣ نالت ليسانس الحقوق من جامعة فرنسية، وواصلت اتصالاتها برؤساء الأحزاب، أحمد ماهر ومحمد محمود، والنقراشي، ولكنها وإن وجدت قدرا من التعاطف والتهذيب في أحاديثهم فقد كانوا معارضين، وسخطت ورأت أن الصعادية و البحاروة سواء في معارضة هذا الحق و أن "تربة مصر كلها جافة لا تنتج إلا رجالا قساة القلوب، جامدين، فليت شعري، أفي وسعنا أن نخدرهم ونرسلهم في بعثة إلى شمال أوربا.."

وفي سنة ١٩٣٩، سافرت منيرة ثابت مع هدى شعراوي وسيزا نبراوي لحضور المؤتمر الثالث عشر للاتحاد النسائي الدولي الذي عقد في كوبنهاجن، وقدمت كل واحدة من الثلاثة ورقة باسم وفد مصر. وكانت ورقة هدى شعراوي عن السلام العالمي القائم على أساس تعاون نساء الشرق والغرب، وموضوع سيزا نبراوي عن قبول الشباب المصري واتجاهاته، بينما كان موضوع منيرة ثابت هو الحقوق السياسية للمرأة. ومن حق المرأة المصرية، كما هو من حق هدى شعراوي أن نعرض فكرة مشروع رئيسة الوفد المصري الذي قدمته هدى شعراوي:

بند (١) - تعاون هيئات النساء في جميع البلاد، دون تفريق بين الجنس والعنصر والدين.

بند (٢) - البعد عن المنازعات الحزبية للكشف عن حقيقة أسباب الحروب و الأحقاد.

بند (٣) - القضاء على عدم التوازن الاقتصادي والسياسي بين الدول.

بند (٤) - إقامة هذا التوازن بين الدول، بتوزيع عادل لجميع المواد الأولية اللازمة لكل شعب، وذلك عن طريق التبادل التجاري.

بند (٥) - إيجاد عملة دولية لتسهيل التبادل التجاري، للقضاء على مناورات الأسواق (البورصات).

بند (٦) - عقد اتفاقيات جمركية دولية.

بند (٧) - نزع مصانع الأسلحة والذخيرة من أيدي الأفراد ووضعها في أيدي الحكومات المسؤولة، لمراقبة التسلح وتحديده.

بند (٨) - احترام حقوق الأفراد والشعوب، دون تمييز بين الجنس والعنصر وترك كل شعب حرا يحكم نفسه بنفسه.

ورأت منيرة ثابت أن مشروع هدى شعراوي يفضل على مشروع سان فرانسيسكو ومؤتمر الأطلسي، لأنه قدم قبل إعلان الحرب ونص على القضاء على الانتداب والاستعمار، ولأنه يقوم على تعاون نساء الشرق والغرب مع رجالهن في حين أن مشروع سان فرانسيسكو يقوم على الرجال دون الإشارة إلى النساء..

وبعد ثمانية عشر عاما من إرسال منيرة ثابت لعريضتها الأولى عام ١٩٢٧ إلى المسؤولين، قدمت في فبراير ١٩٤٥ عريضة إلى الدكتور أحمد ماهر وهذا نصها:

سيدي الرئيس:

بما أن وزارتك هي الوزارة القومية التي تمثل الشعب المصري أصدق التمثيل، وتتمتع برضاء الملوك المعظم وبنقطة الأمة، ولما أعرفه فيكم شخصياً من تقدير لمبادئ الديمقراطية والحرية والمساواة، رأيت الآن بعد تلاوة برنامجكم في خطبة العرش ومناقشته، أن أتقدم بهذه العريضة وأرفعها لدولتكم باسم المرأة المصرية وليس بغريب أن أعطي لنفسي الحق في مخاطبتكم بهذه الصفة، فدولتكم تعلمون أن لي جهادا طويلا في خدمة الوطن والمرأة المصرية يزيد أمده على ثمانية عشر عاما، كما أنني اضطلعت بحركة الإصلاح والتطور الاجتماعي منذ نشأتها، وساهمت أيضا في عهد وزارة رفعة على ماهر باشا في وضع برنامج وزارة الشؤون الاجتماعية - وقد كنت المصرية الأولى، في هذه البلاد التي طالبت لأول مرة بحق الانتخاب والعضوية النيابية للمرأة المصرية وبمساواتها في جميع الحقوق السياسية مع الرجل.

ومنذ بضع سنوات خلت، قدمت لهيئة البرلمان المصري الموقر عريضة طبعت منها مئات النسخ طالبت فيها بهذه الحقوق

فلهذه الاعتبارات كلها أرى أنكم تقرؤني على هذه الصفة التي اكتسبتها بفضل جهادي، وتسمحون لي أن أتوجه إلى دولتكم بهذه الكلمة باسم المرأة المصرية.

سيدي الرئيس:

استمعنا لبرنامجكم في خطبة العرش يوم افتتاح البرلمان وقلوبنا تخفق مضطربة بين عوامل اليأس والرجاء، ثم كذبنا آذاننا وتلوناه مرة أخرى علنا نظفر في خلال سطره بكلمة أو إشارة تتعلق بشئون المرأة المصرية ومطالبها المعروفة، خصوصا حقها بالمساواة السياسية بالرجل، ولكن خابت آمالنا واستولى علينا الحزن والأسى، إذ وجدنا برنامجكم في خطبة العرش خاليا حتى من مجرد وعد - قد يبعث الأمل إلى نفوسنا.

فماذا نراكم فاعلين في هذا العصر الذي خطي فيه الرقي والتطور الاجتماعي والسياسي خطوات الطفرة السريعة؟؟ ألم يحن الوقت بعد هذه الانقلابات العالمية المتعاقبة السريعة لأن يرد اعتبار المرأة المصرية فتمارس حقها السياسي أسوة بالرجل، فنتخب وتنتخب لتمثيل الشعب و هي تكون أكثر من نصفه؟؟

يتكلم المشرعون عن ارتباط الحقوق بالواجبات، وقد أدت المرأة المصرية ما عليها من واجبات وحرمت حتى الآن ما لها من حقوق إننا ندفع الضرائب ولا نشرف على مراقبة الميزانية، ونخضع للقوانين ولا نسهم في تشريعها.

ألم يأتكم، أخيراً، خبر من بلاد الرومان، ينبئ بأن الحكومة في روما قد قررت حق المرأة الإيطالية في الانتخاب؟

إننا في خجل نحن المصريات من جراء الوصمة التي نشعر بها عندما نرى أولى الأمر فينا من الرجال يروننا حتى في عام ١٩٤٥ غير جديرات بأن نرتفع إلى مستوى غيرنا من نساء المدنية القديمة والحديثة، مثل نساء إيطاليا وتركيا وروسيا وأمريكا وإنجلترا وغيرها اللاتي يتمتعن بحقوقهن السياسية.

إن الدستور المصري الذي قرر سيادة الأمة ينص في المادة الثالثة على حق المرأة المصرية في التمتع بحقوقها السياسية أسوة بالرجل، ولم يسلبنا هذا الحق، المنصوص عليه في دستورنا، إلا قانون الانتخاب الذي يمارس الحقوق السياسية.

قانون الانتخاب الذي جاء في مادته الأولى ما ينقض الدستور إذ يقرر أن الرجل وحده هو الذي يمارس الحقوق السياسية.

إذا فنحن لا نطلب تعديلا في الدستور وإنما نطالب أن يحترم الدستور بنصوصه، و أن يعدل قانون الانتخاب.

إن النظام البرلماني الذين يفاخرون به يقرر سيادة الأمة وهذه السيادة لا تتجزأ - (يراجع هنا بحث لي بعنوان "السيادة في علم الدولة"، والأمة ذلك الشخص المعنوي غير القابل للتجزئة يجب أن يمارس بلا تجزئة هذه السيادة كاملة، أما أن يختص الرجال - وهم أقل من نصف الأمة - بممارسة هذه السيادة فهذا معناه أن نعيش في ظل دكتاتورية أقلية تتحكم فينا خلف ستار نظام برلماني ديمقراطي زائف.

سيدي الرئيس:

إننا نحن المصريات نطالب باحترام نصوص الدستور المصري ونتمسك بسيادة الأمة كاملة. نحن لم نقل ما قاله ليون ديغي، في ثورته على مبادئ سيادة الأمة، وفي نقده العقد الاجتماعي لجان جاك روسو - (مع أن ليون ديغي الذي أنكر مبدأ سيادة الأمة قد قرر ضرورة تمتع المرأة بحقوقها السياسية) - بل نحن نتمسك بمبادئ سيادة الأمة ونطالب على أساسه بمساواتنا مع الرجال في التمتع بالحقوق السياسية كي تكون سيادة الأمة كاملة صحيحة ويكون المبدأ الديمقراطي قائما سليما.

بناء على ما تقدم أرجو من دولتكم المبادرة برد اعتبار المرأة المصرية وذلك بتقرير حقها في المساواة سياسيا بالرجل بإشراكها فعلا في السلطتين التشريعية والتنفيذية.

سيدي الرئيس:

إنني لكبيرة الأمل في أن تقوم وزارتك الائتلافية القومية القوية، بتحقيق هذا المطلب الشرعي القانوني، حتى يكون لها فخر تسجيل اسمها على صفحات تاريخ مصر، بمداد الحمد والثناء، فيخلد ذكرها مدى الأجيال. وتفضلوا يا صاحب الدولة بقبول أسمى عبارات التقدير والاحترام.

ومع أن منيرة ثابت واصلت نشاطها "النسوي" بعد ذلك، إلا أن دفقة الحماسة المتأججة في شبابها والتي دفعتها لإصدار "الأملين" ولتخصيص تلك الفترة من عمرها للحقوق السياسية للمرأة - قد قاسمتها اهتمامات أخرى وفي الوقت نفسه تغير المناخ الذي سمح بظهورها، خاصة بعد أن تحقق أملها وشغلت المرأة المناصب التي أملتتها منصب السفارة، ومنصب الوزيرة فضلا عن عضوات مجلس الأمة.

لقد تمتت الكاتبة المعروفة "مي" أن يظهر بعد موتها من ينصفها ومن يحفظ ذكراها وما أحق منيرة ثابت بذلك، وأعتقد أن واجب الهيئات النسائية والثقافية والصحفية أن تعني بذلك لتبعث صفحات "الأمل"، وتبحث عما تركته من أوراق أخرى، فإن ذلك من حقها باعتبارها المرأة العربية الأولى التي خاضت غمار الصحافة بصحيفتين عربية وفرنسية وكانت أولى المطالبات بالحقوق السياسية للمرأة كاملة غير منقوصة^(*).

(*) نشرت في الكتاب الذي صدر لمناسبة الذكرى السنوية لصدور كتاب قاسم أمين "تحرير المرأة"، وأصدره المجلس الأعلى للثقافة في أكتوبر ١٩٩٩.

المسألة الشعبية

بين جورج صاند وجوستاف فلوبيير

ولدت جورج صاند سنة ١٨٠٤م، وتوفيت سنة ١٨٧٦م، وأمضت حياة حافلة بالنشاط الفكري والدعوة لحركات النسائية بوجه خاص، وقد أثارت دهشة معاصريها عندما ارتدت أزياء رجالية ودخنت السيجار وقد تعرفت علي كبار الكتاب في عصرها وبوجه خاص الفرد موسيه وجوستاف فلوبيير وأقامت علاقة وثيقة مع الموسيقي شوبان، وأصدرت عددًا كبيراً من الروايات والمسرحيات والتراجم، وجورج صاند هو اسم قلم، إذ أن أول رواية لها كتبها كانت مع كاتب يدعي جورج صاند ومنه استعارت اسمه جورج صاند.

أما جوستاف فلوبيير فهو من أعلام الأدب الفرنسي وقد منحته رواية "مدام بوفاري" شهرة عريضة، وعرف عنه الدقة في استخدام الكلمات والعناية الفائقة بالأسلوب.

ومن النادر أن يختلف كاتبان في المزاج والمذهب والأسلوب، كما كانت تختلف جورج صاند عن جوستاف فلوبيير.

كانت جورج صاند ابنة الثورة الفرنسية، فقد ولدت سنة ١٨٠٤م وتمثل فيها كل ما في الثورة من تحرر وانطلاق وتفاؤل واستبشار، وتطلع نحو المستقبل وكان أسلوبها سهلاً لا تكلف فيه تكتب ببسر كما لو كانت تغرف من بحر.

ومن ناحية أخرى كان جوستاف فلوبيير الذي ولد عام ١٨٣٠م ابناً للإمبراطورية الثانية، إمبراطورية الفشل والهزيمة وكان يعكس هذه المشاعر، مشاعر اليأس والقنوط وعدم الثقة في الطبيعة البشرية والكفر بالشعارات العامة وبوجه خاص الديماجوجية والشعبية، وكان في كتابته، كما هو في فكره السياسي، أرستقراطياً لا يعني بالكلم وإنما يعني بالكيف، يتخير ويحكم الأسلوب ويعاني في هذا كأنما ينحت من صخر، وقد يقضي أسبوعاً في صياغة فقرة واحدة، ولكنه في النهاية يخرج درة فريدة مثل "مدام بوفاري".

ومع هذا التفارق والتباين، فقد جمعتهما أواصر صداقة وثيقة ظلت اثني عشر عاماً بما فيها فترة الكوميون القلقة وهزيمة ١٨٧٠م التي تشبه إلى حد ما هزيمة مصر سنة ١٩٦٧م، ولم تقطعها إلا وفاة جورج صاند، ولعل العامل الوحيد المشترك بينهما وقتئذ كان أن كل واحد منهما كان قد اطرح فترة القلق والكفاح وآوي إلي ملاذ الخس، هي في "نوهان" وهو في "كروسيه" هي في السابعة والخمسين وهو في الثالثة والأربعين. وقد أصدر كل منهما عيون إنتاجه ودرر كتاباته واعترف به كاتبا عبقرياً فذاً.

كان كل واحد منهما يقدر الآخر وإن لم يسلم بوجهة نظره. كان لدي جورج صاند السن والسبق وهذا المعين الذي لا ينضب من العاطفة المشبوبة والمشاعر، وكان لدي جوستاف فلوبيير الامتياز، وفحولة الرجولة والثقة في مبادئه التي برهنت عليها الأحداث. وكان يكتب إليها "أستاذتي العزيزة"، وكانت تكتب إليه "شاعري العزيز" دون أن يتراجع كل واحد منهما عما آمن به وما كان يثبته بالعقل والواقع من ناحية أو بالمزاج والنفسية من ناحية أخرى.

ولن نعرض في هذا المقال إلا للمراسلات التي تتعلق بما يمكن أن نسميه "المسألة الشعبية" والتي أبرزتها بوجه خاص هزيمة فرنسا في الحرب السبعينية (١٨٧٠) أمام الألمان وسقوط الجمهورية وظهور "الكوميون" ثم سقوطه بدوره وما عاصر ذلك وما تلاه من تقلبات وأحداث دفعت إلي صدارة الفكر بالقضية السياسية ودور الجماهير وما هو حسن أو سيئ فيها، وما إلي هذا كله.

في هذه الفترة كتب فلوبير إلي صائد يقول: "لست أظن أن في فرنسا بأسرها رجلاً أشد حزناً مني (وإن ذلك يتوقف علي حساسية الناس)، إنني أموت من المهانة تلك هي الحقيقة، وكل التعازي تثيرني وما يجعلني أكتب هو وحشية الناس، والافتناع بأننا ندخل مرحلة سخيفة ستكون فيها الشعوب معسكرات جماعية حربية إن الحرب البروسية قد أنهت الثورة الفرنسية ودمرتها.

قد تفترضين أننا قد ننتصر ولكن هذا الافتراض يناقض تماماً كل الشواهد التاريخية، فأين رأيت الجنوب يقهر الشمال؟ والكاثوليك يحكمون البروتستانت؟ إن الجنس اللاتيني يحتضر وفرنسا ستذهب لتتبع أسبانيا وإيطاليا.

لو كنت أستطيع الفرار إلي بلد لا يرى فيها الإنسان بدلة عسكرية ولا يسمع دوي الطبول ولا يتحدث عن المجازر ولا يجبر علي أن يكون مواطناً، ولكن الأرض بأسرها تضيق الآن بالحكماء.

وفي اليوم الحادي عشر من أكتوبر من عام ١٨٧٠م كتب "البروسيون" الآن علي بعد اثنتي عشرة ساعة من روان، وليس لدينا قيادة، ولا أوامر، ولا نظام، لا شيء، وهم يعلقون الآمال الجسام علي جيش اللوار وأين هو، هل تعلمين أي شيء عنه؟ وماذا يفعلون في وسط فرنسا؟ إن باريس ستنتهي بالمجاعة، وما من أحد يتحدث عن نجاتها.

وفي خطاب آخر يقول: "أما عن الكوميون الذي بدأ يتداعي.. فإنه آخر أعراض القرون الوسطي، فلنأمل أن يكون خاتمتها.

إنني أمقت الديمقراطية (علي الأقل النوع المفهوم في فرنسا)، أي رفع الرحمة للتحكم في العدل، وسلب الحقوق، وباختصار التفسخ الاجتماعي.

لقد برأ الكوميون القتلة تماماً كما سامح المسيح اللصوص، وسلبوا قصور الأغنياء لأنهم تعلموا لعن لازاروس الذي لم يكن غنياً شريراً، ولكنه ببساطة - غنياً - وتلك الصيغة "الجمهورية فوق النقد" تماثل "البابا المعصوم" دائماً الصيغ، ودائماً الآلهة.

إن الشيء الوحيد المعقول (وأنا دائماً أعود إليه) إنما هو حكومة يتولاها الحكماء، إن الشعب سيظل دائماً قاصراً وسيكون مكانه الصف الأخير إذ هو العدد والكتل، واللامحدود، وليس المهم أن يتعلم كثير من الفلاحين القراءة، والاستماع إلي "الخوري"، ولكن المهم حقاً أن يوجد رجال أمثال "رينان" وأن يستمع إليهم، إن خلاصنا الآن إنما هو في أرستقراطية مشروعة وأعني بذلك نخبة مكونة من أكثر من أعداد.

وردت جورج صائد في ديسمبر ١٨٧١م: "لم أكتب إليك لأني حزينة حتى الأعماق، ومصابة بالداء الذي أصاب بلادي وشعبي، ولا أستطيع أن أعزل نفسي حيث التبصر والطمأنينة وأحس كأن القيود الثقيلة تتوتر كما لو كانت تتحطم، وأنا جميعاً سنسير، وإن لم أعلم إلي أين فإذا كان لديك مزيد من الشجاعة عما لدى فأعطني منها".

ولكن فلو بير لم يعطها مزيدا من الشجاعة، ولكنه أجاب "لماذا أنت حزينة؟" إن الإنسانية لا تقدم جديدا وشقاؤها العصال ملأني بالحزن منذ الشباب، وإلي جانب هذا فإني لا أتعلق بالأوهام وأؤمن بأن القطيع الشعبي سيظل دائما بغيضا إلي، إن الشيء الوحيد الهام هو النخبة القليلة من العقول التي تسلم الشعلة من يد إلي أخرى.

وما دمنا لا ننحني أمام النخبة الحكيمة وما دامت أكاديمية العلوم لا تحل محل البابا فلن تكون السياسة في مجموعها، والمجتمع حتى أعمق جذوره إلا عديداً من الدجالين والمخدوعين إننا نتخبط في أعقاب ميلاد الجمهورية التي كانت إجهاضاً وفشلاً (مهما يقولون) والسبب أنها استلهمت المسيحية والقرون الوسطى، إن فكرة المساواة (التي هي جماع الديمقراطية الحديثة)، إنما هي أساسا فكرة مسيحية تضاد فكرة العدالة والحظي كيف تتحكم فينا الرحمة، الحساسية هي كل شيء، والعدالة لا شيء.

إنني مقتنع أننا سنبدو حمقي أمام الأجيال.. إن كلمات "جمهورية" و"مملكة" ستجعلهم يضحكون منا، وإنني لأتحدى أن يوضح لي واحد تفرقة حيوية بين هاتين الكلمتين، إن جمهورية حديثة ومملكة دستورية يتماثلان، ومع هذا فإنهم يتشاجرون ويتصايحون ويتحاربون وأما بالنسبة للشعب الطيب فإن التعليم الإلزامي المجاني سيتكفل بهم، وإذا استطاع كل واحد أن يقرأ" البتي جورنال والفيجارو" فلن يرغب في قراءة شيء آخر لأن البورجوازيين والأغنياء لا يقرأون غيرها، إن الصحافة لها مدرسة للإفساد لأنها تعفي من التفكير.

إن العلاج الأول هو إنهاء التصويت العام الذي هو عار العقل الإنساني إذ هو يقضي بسيادة عنصر واحد على بقية العناصر، والأعداد تسيطر على الفكر والتعليم والجنس حتى النقود، وهذه كلها أعظم من الأعداد.

لو أنك أيتها الأستاذة العزيزة الطيبة تستطيعين أن تكريهيه إنه - الكره - هو ما ينقصك ورغم عينيك الكبيرتين كأبي الهول فإنك ترين العالم خلال لون وردي لأن في قلبك شمسا، ولكن ظللا كثيرة تقوم الآن وتحول بينك وبين الرؤية فتعالى واصرخي بأعلى صوتك "الرعدي" خذي قيثارتك الرائعة وألمسي أوتارها الرنانة تهرب الوحوش..

ولكن جورج صاند ردت في ١٤ سبتمبر بخطاب تاريخي طويل ظهر بعد ذلك (في ٣ أكتوبر) في التامب تحت عنوان (رد على صديق) جاء فيه.

وإذن فأنت تريد أن لا أحب، تريد أن أقول إنني كنت مخطئة طوال حياتي وأن البشرية مقيبة مكروهة.. وأنها كانت - وستظل - دائما كذلك، وأنت تعد آلامي ضعفا واستخذاء وتؤكد أن الشعوب متوحشة وأن رجال الدين منافقون وأن البورجوازيين جنباء، وأن الجنود لصوص وتريد أن أعزل نفسي من مواطني من الأسرة العامة العظيمة التي لا تكون أسرتي الخاصة منها إلا كسنبلة قمح في حقل عظيم، إنه لمستحيل، ففي أي جنة من جنات عدن، في أي "الدرادو" سحري تستطيع أن تخفي أسرتك وأصدقائك المقربين وسعادتك الدائبة؟ حتى لا تدركها الكوارث التي لاتدهم البلاد، فإذا كنت تريد أن تكون سعيدا فيجب أن يكون الآخرون سعداء أيضا.

كلا.. كلا.. إن الناس لا ينغزل بعضها عن بعض، إن روابط الدم لا تنفصم وليست البشرية كلمة جوفاء وإنما تقوم حياتنا علي الحب فإذا تجردت منه ماتت.

إنك تهمل "الشعب" ولكن الشعب هو أنا وأنت ومن العبث أن تذكر ذلك فليس هناك جنسان، وخصائص الطبقات توجد فوارق نسبية، وفي معظم الأحوال وهمية، ولست أعلم إن كان أسلافك من أعلا طبقات البورجوازية فإنني من ناحية أمتي إلي أعماق الشعب وأحس به حيا في كياني ونحن جميعا منه حتى

وإن انطمست الأصول، فقد كان الرجال الأولون صيادين ورعاة، ثم فلاحين وجنوداً وأوجدت القرصنة الناجحة أولى فوارق الطبقات، وأنت تقول إن الشعب عنيف، وأنا أقول أن النبالة متوحشة.

ليس الشعب عنيفاً، بل ولا غيباً، إن مشكلته هي الجهالة ولم يكن شعب باريس هو الذي ذبح المسجونين وحطم التماثيل وحاول حرق المدينة فقد عرف الآن أن قلة حركها الحقد والحسد، والفشل والوطنية الخاطئة والتعصب هي التي أدارت هذا الإرهاب، وأما الأغلبية فبريئة منه، فلماذا تفترض أن هذه البروليتاريا التي أغلقت عليها أبواب باريس المحصورة والتي لم تكن أكثر من ثمانين ألف جندي من جنود اليأس والجوع تمثل شعب فرنسا.

أريد أن أمضي معك إلي النهاية فترى على ما تقوم الفوارق التي تميز بين الطبقات، أهي علي مزيد من التعليم في ناحية وعوز منه في ناحية أخرى؟ إن الحدود هنا مبهمة فإذا كنت تري في أعلا البورجوازية المثقفين والمهذبين وفي أسفل البروليتاوياء السفلة والهمل، فإن أوساط الطبقتين ليست كذلك، ففي أوساط البروليتاريا قد تجد المهذبين والأذكىاء، وفي أوساط البورجوازية قد تجد الجهلة والأغبياء والعدد الأعظم من مثقفي اليوم لهم آباء جهلة قلما يستطيعون كتابة أسماءهم.

فهل تكون الثروة هي التي تقسم الناس قسمين مميزين عندئذ تكون المسألة أين يبدأ الشعب؟ وأين ينتهي؟ ففي كل يوم تحدث مناوبات فالخراب يسقط البعض والثروات ترفع البعض الآخر والأدوار تتناوب فالذي كان برجوازيًا هذا الصباح يعود عاملاً في المساء وعامل اليوم قد يتحول إلي برجوازي، إذا عثر علي كيس نقود أو ورث عمًا له، إن هذه المقاييس قد صارت عاطلة وأن أي نظام للتصنيف إلي طبقات سيصبح غير علمي، وأن الرجال إنما يرتفعون أو ينخفضون لزيادة أو نقص في القوي الأخلاقية والمعنوية والفعلية، أن التعليم الإجباري الذي نريده جميعاً لاحترامنا حقوق البشرية ليس هو العلاج الشافي من كل داء فالطبيعة الشريرة قد تجد فيه وسائل لكي تفاقم من شرها ولكن شأن التعليم في ذلك شأن أي شيء يحسن أو يساء استخدامه، ويوجد منه السم والتريق وأنه لو أردنا علاجاً لا يتطرق إليه وهن لوجب علينا أن نبحث يوماً بعد يوم عن كل الوسائل التي نصلح بها العادات ونقرب بها المصالح.

إن فرنسا تحتضر، هذا صحيح، وقد تطرق إلينا جميعاً الجهل والمرض والفساد والفشل، فإذا قلت أن هذا "مكتوب" فسيكون إعادة للخرافة الديماجوجية، وقد تقول "يستوي عندي" ولكن لو أضفت "ذلك لا يهمني" لكنت مخطئاً، فإنه الطوفان يغرقنا جميعاً، وعبثاً سنحاول أن تنسحب، فسيغرق ملاذك بدوره.

إن قلبي وعقلي يكافحان أكثر من ذي قبل، التفرقات النزقة والتمييز الممنوح كحق مسلم به للبعض مستحق علي البعض الآخر، وأحس أكثر من أي وقت آخر الميل لرفع ما هو ساقط وإقامة ما هو مائل. وسيظل قلبي حتى يقف مفتوحاً للرحمة، مؤيداً للضعيف فإذا كان الشعب اليوم هو الذي يداس بالأقدام، فسأضع يدي في يده وإذا كان هو المعتدي الظالم فسأعلن له أن هذه نذالة وجبن.

إني لأعرف نفوساً كريمة وقلوباً رقيقة تندم وتلوم نفسها لأنها في هذه اللحظة الرهيبة من تاريخنا ناصرت قضية الضعيف فهم لا يرون أمامهم الشعب الذي أحبوه وإنما يرون عصابة من الأشرار تتقدم جيشاً من الرجال المذعورين الذين دفعوا إلي المسرح دفعاً.

على هذه النفوس الطيبة أن تبذل جهداً لكي تري أن كل ما آمنوا به من الطيبة لا يزال موجوداً، ولكنه نحي جانباً، فعندما تمثل هذه الدراما يتقدم السفلة والطامعون الذين يوجدون دائماً في كل الشعوب. وانتظر فرصة كهذه تعرض لأي شعب آخر انتظرها عندما تحق علي الشعب الألماني، وستري أن شعب باريس أكثر صبراً وفضيلة منه.

وليس هذا تأساء، وتعزية أو سلوى إذ علينا أن نأسى لانتصار الشعب الألماني قدر ما نأسى لهزيمتنا، لأن هذا كله إنما هو الفصل الأول من التحلل الخلقي ولن يكون في إذلال ألمانيا الأمان في المستقبل من فرنسا وإذا ألقنا بها ما ألقته بنا فلن يعيد ذلك إلينا حياتنا، مسكينة ألمانيا ! إن كأس النعمة الأزلية ينسكب علينا وبينما تستعلي وتنتشي فإن روح الحكمة تبكي عليك وتعد مرثاتك.

وأنت أيها الصديق تريد أن أتقبل هذه الأحوال بهدوء رواقى، وأن أقول "هكذا خلق الإنسان، الجريمة منطقته والشر طبيعته".

كلا ومائة كلا.. إن البشرية لتنتهك فيّ ومعى، إن علينا أن نبذل جهوداً خارقة لتحقيق الأخوة وإصلاح ما أفسدته العداوة بحيث ننهي هذا الوباء ونبعث الإيمان".

ورد فلوبير: "لقد تلقيت مقالك أمس، وقد جعلتني أنرف دمعا دون أن أتحول عن موقفي، لقد تأثرت ولكني لم اقتنع.

لقد بحثت عبثا في المقال عن كلمة واحدة (العدل) وكل متاعبنا إنما تأتت من نسياننا تلك القيمة الأولى من القيم، وإذا لم تقهر فرنسا تلك الأزمة سريعا، فإنني لأعتقد أنها لن تستطيع القيام منها، ولن يجدي التعليم الإجباري سوي زيادة عدد الأغبياء وقد أوضح ذلك رينان في مقدمة "موضوعات معاصرة"، وما نحتاج إليه قبل كل شيء إنما هو النخبة، أرستقراطية مشروعة، فلا أحد يستطيع أن يفعل شيئا دون رأس والتصويت العام - كما هو موجود - أعظم غباء من الحق الإلهي.

إن الجماهير، إن الأعداد دائما غبية وليس لدي معتقدات عديدة ولكني أعتقد هذه الحقيقة ومع هذا فالجماهير تستحق الاحترام مهما كانت حماقتها لأنها تتضمن عدداً لا حصر له من بذور التلقيح فلنعطهم الحرية ولكن ليس السلطة.

ولست أو من بفوارق الطبقات أكثر مما تؤمنين، إن الطبقات أثر من الحفريات القديمة ولكني أو من أن الفقير يكره الغني وأن الغني يخشى الفقير وسيبقى الأمر كذلك إلي الأبد ومن العبث أن ندعو أحدهما لمحبة الآخر والشيء المهم هو أن نعلم الذي هو الأقوى وأن "ننور" البورجوازي أولاً لأنه لا يعرف أي شيء علي الإطلاق، إن كل حلم الديمقراطية هو رفع البروليتاريا إلي مستوي الغباء البورجوازي وقد تحقق هذا الحلم جزئياً، فالبروليتاريا تقرأ نفس الجرائد ولها نفس المشاعر.

وقد أظهرت درجات التعليم الثلاث خلال العام الماضي ما يمكن أن تثمره وهي:

التعليم العالي جعل بروسيا تنتصر.

التعليم الثانوي البورجوازي أوجد رجال ٤ سبتمبر.

التعليم الأولي أعطانا "الكوميون" الذي كان وزير أشغاله العمومية "فالس" يفخر بأنه يحتقر هوميروس.

وفي خلال ثلاث سنين سيتمكن كل فرنسي من القراءة والكتابة. فهل تظنين أننا عندئذ سنكون أحسن؟ إن تصورتي من ناحية مقابلة أن في مجموعة يوجد برجوازي واحد يقرأ باسيتا ويظفر بالاحترام، إن الأمور عندئذ ستتغير.

وفي خطاب آخر، اقترح أن يكون لكل مواطن أصوات بقدر ماله من مصالح تماما كما يحدث في الشركات عندما يكون لكل مساهم أصوات بعدد أسهمه وقد كان متواضعا لأنه افترض أنه يساوي عشرين صوتًا في دائرته الانتخابية "كروسيه".

وفي ١٤ نوفمبر سنة ١٨٧١م اقترح أن يبدأ العمل بتنوير الطبقة التي تقوم بالتنوير "لنبدأ بالرأس التي هي أكثرها إصابة ومرضاً وسيتبعها الباقي".

* * *

إن مراجعة المكاتبات التي دارت ما بين جورج صاند وجوستاف فلوبير في تلك السنوات المدلهمة، سنوات هزيمة ١٨٧٠م والتي دارت بصفة رئيسية حول التعليم العام، وحق جميع المواطنين في التصويت للانتخابات العامة إن هذه المراجعة توضح لنا سلامة وجهة نظر كل من جورج صاند وفلوبير حتى عندما يبدو أن هناك تعارضاً حاداً بين وجهتي النظر.

فقد أظهر التطور أن "الطبقة" ليست بالجمود الذي يظنه الطبقيون وأن ارتفاع المستويات يثلم حدة الفروق بين الطبقات ويوجد تقارباً بينهما كما يجعل الحدود بينهما مفتوحة حتى وإن لم تكن كما تصورت جورج صاند، وقد لا حظ ماركس وإنجلز في الفترة التي عاصرت مكاتبات جورج صاند وفلوبير أن الطبقة العاملة البريطانية "متبرجة" وأن لا سبيل للماركسية إليها إلا عندما تنضب ماندة الاستعمار البريطاني الحافلة وقد مضت عملية "البرجة" هذه بحيث سمحت في النهاية بأن ترأس حزب المحافظين سيدة أمها خياطة وأبوها بقال.

وفي أيام ماركس وإنجلز وجورج صاند وفلوبير كان ارتفاع المستوي الاقتصادي ومرونة الرأسمالية وظهور النقابات.. الخ، من العوامل التي ساعدت علي تقارب الطبقات، ثم جاءت في العصر الحديث والتطورات والتغيرات في توزيع العمل وطرق الإنتاج فهبطت بعدد من العاملين اليديين وصعدت بعدد العاملين علي المكاتب وفي الإدارة والتوزيع، بحيث انكشفت البدلة الزرقاء أمام اليافة البيضاء وتحسنت وسائل الأداء بحيث تضاعف العمل العضلي المنهك حتى في المنجم والصناعات المعدنية ولو سمح لوسائل التقنية الآلية أو الأتوماتيكية بالانطلاق لما كانت هناك طبقة عاملة بالمعني التقليدي.

ومن ناحية أخرى، فإن فكرة فلوبير السينة عن أن التعليم ضئيل أو عديم الجدوى لا تخلو من وجهة نسبية، فباستثناء ما يقدمه التعليم من قراءة أو كتابة وهي عملية لا تعني في حد ذاتها ثقافة أو معرفة وإن كانت هي الوسيلة الكبرى للثقافة والمعرفة، فإن قيمة التعليم كأداة في رفع المستوي الخلفي والنفسي خيبت آمال معظم المفكرين لأنه بجانب الكلمة الموضوعية المفيدة فهناك عشر كلمات مفسدة مضللة لا تخاطب إلا الغرائز والشهوات ولا يمكن للكلمة المطبوعة أن تظفر بالاهتمام ما لم تكن مطعمة بطبقة من مقتضيات الاستهواء، ولم يكن فلوبير مبالغاً عندما قال "إن الصحافة لها مدرسة للإفساد"، وقد نسب فلوبير ذلك لأنها "تعفي من التفكير"، ولو عاش وشاهد صحافة الابتذال لأضاف سبباً آخر إلي النتيجة التي انتهى إليها.

في الوقت نفسه فإن إيمان جورج صاند في الشعب لم تزعه الهزيمة القاسية التي صبت فيها ألمانيا كأس نقيتها على فرنسا، على العكس إننا نري جورج صاند وهن تأسى لألمانيا، فقد رأت ببصيرة الفنان أن الشروط الثقيلة التي فرضتها ألمانيا المنتصرة علي فرنسا المنهزمة ستودي خلال فترة - قد تطول أو تقصر - إلي إنهاض فرنسا من كبوتها واستجماعها لكل قواها لتستطيع الوفاء بما فرض عليها، في الوقت الذي يؤدي

فيه الانتصار بألمانيا إلي الاسترخاء أو الزهو الخادع وتكون النتيجة أن تأتي ساعتها فالأيام دول، وكما تدين تدان، ومن أسمى اللمسات إنسانية أن تأسى جورج صائد لمصير ألمانيا المنتصرة وللنقمة التي تنتظرها في المستقبل وأن لا تشمت فيها.

وقد تحققت نبوءة جورج صائد، وانتصرت فرنسا علي ألمانيا في الحرب العالمية الأولى، وفي المواقع التي أرغم الألمان الفرنسيين علي توقيع معاهدة الهزيمة فرضت فرنسا المنتصرة علي ألمانيا المنهزمة شروط معاهدة فرساي التي كانت أشد قسوة من شروط معاهدة ١٨٧٠ وجابه كلمنصو الفرنسي المنتصر، ممثل ألمانيا المهزومة الكونت بروكدردف وانتز قانلاً "لا الوقت ولا المكان يسمحان بعبارات جوفاء، إن ساعة التسوية الثقيلة لحساباتنا قد دقت" وفي المكان نفسه التي وقعت فرنسا معاهدة ١٨٧٠ وقعت ألمانيا معاهدة فرساي سنة ١٩١٨م.

وفي قضية التعليم العام أو الإلزامي، فإن الأهمية العظمي للتعليم العام قد أصبحت إحدى المسلمات ولكن من المفيد دائما أن نفاجاً وسط تيار التسليم برأي مختلف لأن من المؤكد أن هناك ما يستحق التعليق وتوجيه الاهتمام بدلاً من مجرد الموافقة والتسليم، وقد صدم أحد رجال التعليم في مصر زملاءه عندما نشر رأياً يهبط بالأهمية المظنونة للتعليم بما يماثل ما ذهب إليه فلوبير.

ذلكم هو الأستاذ محمد فريد أبو حديد الذي قضي كل حياته تقريباً في خدمة التعليم ونشر في العدد الأول من السنة الأولى من صحيفة التربية التي تصدرها رابطة خريجي معهد التربية بالقاهرة (يونيو ١٩٤٨) مقالاً مركزاً تحت عنوان "رأي في نشر التعليم".

في هذا المقال أشار الأستاذ فريد أبو حديد إلي موجة التسليم بضرورة نشر التعليم الساندة ودعا إلي التفكير في مسألتين هامتين الأولى هي "هل كان نشر التعليم حقاً هو العامل علي النهوض بالأمم في الماضي" والثانية هي "هل كان تقدم التعليم وتطوره في البلاد الأخرى هو الباعث علي تقدم تلك البلاد وتطورها أم أن تطوره هو كان نتيجة لتطور الحياة في المجتمع".

ويستطرد الأستاذ فريد أبو حديد..

أما المسألة الأولى فإن مجرد الرجوع إلي التاريخ يبين لنا أن الأمم قد كانت منذ القدم تعلق وتنشئ مدنات عظيمة وأن تيار التقدم الإنساني كان متصلاً علي مدي قرون كثيرة قبل أن يعرف العالم شيئا عن تعميم التعليم بالمعني المعروف اليوم، بل أن من الأمم الحديثة ما عرفت عنه حياة رائعة وتقدماً كبيراً في كل مناحي النشاط الإنساني قبل أن تخطر عليها فكرة تعميم التعليم فإن نهضة بريطانيا مثلاً منذ القرن السادس عشر إلي القرن التاسع عشر وما صاحبها من بناء أعظم إمبراطورية في التاريخ وازدهار صناعتها إلي القدر الذي جعلها أكبر دولة صناعية إلي أوائل القرن العشرين كل ذلك حدث وتم قبل أن تفتن بريطانيا إلي تعميم التعليم.

ومن المعروف أن حركة نشر التعليم في إنجلترا وسائر بلاد أوروبا لم تبدأ جدياً إلا في أواخر القرن التاسع عشر فهل يمكن مع هذه الحقائق التاريخية أن يقال إن رقي الأمم في النشاط أو في الصناعة إنما هو نتيجة للتعليم ونشره في صفوفها؟ هذه كلمة موجزة يمكن أن يكون نواة لدراسة تاريخية أوسع دائرة ومنها يمكن الوصول إلي جلاء الحقيقة التي أعتقد أن من الضروري جلاءها وإبرازها بكل وضوح وهي أن حيوية الأم ونشاطها ونهوضها الصناعي والإنتاجي والأدبي إنما هو وليد جهود الأقلية الممتازة من الأمة وليس وليد التعليم العام هذه هي المسألة الأولى موجزة وأما المسألة الثانية فيدل التاريخ عليها أيضاً لأن نظم التعليم في

البلاد المختلفة قد تطورت تبعا لتطور الحياة نفسها فالتعليم في الأمة الإسلامية مثلا لم يتطور في نوعه إلا بعد أن تطورت الحياة الإسلامية نفسها من حالة البداوة في جزيرة العرب إلى حالة التحضر بعد أن امتد الفتح الإسلامي خارج تلك الجزيرة وهذا ظاهر لمن يتبع مسيرة التاريخ الإسلامي ويمكن للباحث أن يصل إلي هذه النتيجة عينها إذا هو تعمق في بحث تواريخ الأمم المختلفة فقد تطورت نظم التعليم في ألمانيا وفي إنجلترا وفي فرنسا تبعا لتطور حالة البلاد نفسها ونظمها الاجتماعية ومن الواضح في تاريخ أمريكا أن نظام التعليم كان وليد الحياة المتطورة سريعا في تلك القارة العظيمة.

فمن اليسير مع تتبع تاريخ هذه الأمم أن نصل إلي الحقيقة الأولية الآتية: إن نظام التعليم في بلد من البلاد يسير وراء تطور المجتمع في ذلك البلد فالتعليم لم يحدث التطور بل هو يتبعه.

وقد كان بودنا أن نستكمل بقية ما كتبه الأستاذ أبو حديد خاصة ما تحدث فيه عن مصر ولكننا لم نشأ أن نستطرد خاصة وأن المقال ما أن نشر مع تحفظات المجلة ومع طلب الكاتب نفسه جعل هذا الموضوع محور الدراسة حتى تضمن العدد التالي (أكتوبر ١٩٤٨) تعليقين عرضتهما المجلة عن الأستاذ محمد فريد أبو حديد فكتب "قد بينت في كلمتي ما قصدت ولكل من حضرات الكتاب أن يقول ما يريد بحسب ما يراه ولعل السبب في عدم اتفاقنا هو أننا لا نتفق علي المعاني التي يقصدها كل منا من عبارته".

"وأما دلالة التاريخ علي أن نهضة الأمم كانت وليدة القلة الممتازة فهذا ما وصل إليه علمي من دراسة التاريخ ولا أظن الجدل في هذا يجدي في الموضوع الذي نحن فيه".

فهذه الفقرات من أحد رجال التعليم البارزين تتفق تمام الاتفاق مع ما ذهب إليه جوستاف فلوبيير ليس فحسب في التعليم العام بل أيضا في أن سبب نهضة الأمم يعود إلي القلة الممتازة.

وفيما نري فإن هذا الرأي منهما (أي من فلوبيير وفريد وأبو حديد) لا ينفي الضرورة القصوى لمحو أمية جميع الناس رجالاً ونساء في هذا العصر بصرف النظر عن تقدير مدي أهمية ذلك.. لأن المسألة ليست مدي إسهام التعليم الشعبي في نهضة الأمم ولكنها مسألة استلزام للقراءة والكتابة لمعايشة العصر لأن ذلك أصبح من المهارات التي لا يمكن الاستغناء عنها أو تجاهلها في العصر الحديث وأي خلاف حول أهمية التعليم يجب أن يأتي بعد محو الأمية لأن مائة وثلاثين عاما من التطور السريع من سبعينات القرن التاسع عشر جعلت القراءة والكتابة أهم من مجرد قراءة البتي جورنال أو الفيجارو "كما كان الحال أيام فلوبيير".

أما قضية حكم النخبة والقلة الحكيمة وليس الكثرة والدهماء والقطيع الشعبي كما عبر عنه فلوبيير فإنها من الناحية العملية ليست إلا حكم الضرورة فكما قال فلوبيير إن الشعب يمثل "الأعداد" ولا يمكن أن يحكم نفسه فلا بد أن يحكم عنه من يقدر عليه وقبل فلوبيير بعشرات القرون دعا "أفلاطون" إلي حكومة الفلاسفة، وبعده (فلوبيير) بعشرات العقود دعا أكبر من تمسح بحكم الشعوب - لينين إلي حكم الحزب - طليعة الطبقة العاملة أي النخبة الأكثر وعياً، فإذا استبعدنا التمسح الأجوف بكلمات الجماهير والشعوب والعمال.. الخ، فإن الحكم عملياً يظل في أيدي القلة التي أرادها لينين بلشفية وأرادها فلوبيير حكيمة.

والشيء الوحيد الذي يمكن أن يؤخذ علي فلوبيير هو أنه فصل ما بين الشعوب والقلة في حين أن الشعب هو الكل الذي يضم - فيما يضم - القلة وأن هذه القلة الحكيمة والواعية يمكن أن تظهر الزهرة الناصعة

البياض أو الفاقعة الحمراء من التربة المغبرة وتتغذى بما تتضمنه التربة دون أن ينال هذا من نقاء لونها الخاص، وإن كان قد أشار إليها إشارة خاطفة وبنى عليها أن علينا أن نعطيها الحرية، ولكن ليس السلطة.

بقي بعد هذا قضية التصويت العام، وقد أثبتت التطورات المعاصرة أن التصويت العام يمكن أن يكون وثناً وشعاراً يخدع به الجمهور وتستغله النظم الحاكمة، كما يحدث في النظم الشمولية التي تدعي أنها تمثل الديمقراطية الحقيقية، وتأتي نتائج انتخاباتها بنسبة ٩٩% لمرشحي الحزب الحاكم، وكما يحدث أيضاً في النظم الليبرالية، التي تتفتت فيها الأصوات على العدد الكبير من المرشحين الأمر الذي يساعد الأغنياء والأقوياء على الانتصار بفضل ما يتميزون به على الفقراء والضعفاء من ثروة وقوة ومهارة في إدارة المعركة الانتخابية وتضليل الناخبين والتأثير عليهم فضلاً عما يحدث للبطاقات والصدائيق من تلاعب ما بين إنهاء عملية التصويت وعملية إعلان النتيجة وهو تلاعب ثبت أن معظم الحكومات لا تعف عن ارتكابه بقدر كبير من البجاجة والصفافة والجرأة بحيث لم يبعد كثيراً عن وصف فلوبيير له بأنه "عار العقل الإنساني".

وهكذا نري أن كلا من فلوبيير وصاند كان يدافع عن قضية صائبة حتى وإن تشابكت أقلامهما..

* * *

لم يكن الأستاذ فريد أبو حديد هو الوحيد الذي آمن بما ذهب إليه، إن سيدة تربوية هي السيدة نبوية موسى رائدة تعليم البنات في مصر تشاركه آراءه فقد عارضت بشدة مشروعات التعليم الأولي الإلزامي، ورأت أنه من الأصوب والأفيد توجيه الجهود إلى تعليم النخبة تعليماً مثمراً، فلم تكن نبوية موسى من المؤمنين بتعليم الشعب أو الداعين لنشر التعليم الأولي الإلزامي، بل كانت ترى في ذلك عبثاً خيراً منه تعليم أبناء القلة تعليماً عالياً، ولذلك تقول نبوية موسى "إن الأمة كجسم واحد لا بد له من أعضاء كثيرة تقوم بالحركة والعمل ورأس مفكر يدير هذه الأعضاء وينظم حركتها، والأعضاء العاملة في جسم الأمة هم السوقة وهم سوادها الأعظم، أما الرأس فقادة الأمة من علمائها ونبغائها وحكامها المتعلمين، ومتي صلح الرأس وأحسن التفكير توجهت كل أعمال الإنسان إلى الخير وصلحت أحواله فإذا أوصينا بأمتنا خيراً وجب علينا أن نسعى في تعليم قادتها ونبغائها تعليماً صحيحاً عالياً يستطيعون معه إرشاد الأمة إلى ما فيه الخير والمنفعة، أما التعليم الأولي وحده فلا فائدة منه إذا اقتصرنا عليه، وإنما هو أساس بني عليه دعائم التعليم العالي، فإذا ظهرت كفاءة الطفل في التعليم الأولي تخطينا به إلى ما هو أهل لمواهبه السامية، إما إنفاق ما لدينا من المال في التعليم الأولي وعدم تقديرنا التعليم العالي فهو خطأ، لأن التعليم الأولي من دون التعليم العالي لا تأتي منه فائدة تذكر والمعرفة القليلة أضر من الجهل.

وليس هناك فرق بين فلاح فقير يعرف القراءة وآخر أمي لا يعرفها ما دام الثاني يقوم بعمل في حرث الأرض وزرعها كما يقوم الأول، وما فائدة معرفة القراءة للفلاح الفقير طالما أنه والفلاح الأمي في المنفعة سواء، ولا يخشى من تقهقر الأمة لجهل فلاحها ما دام في الأمة نبغاء يستطيعون إرشاد الفلاحين إلى ما فيه النفع، والفلاح الذي يستطيع أن يزرع الفول أفضل من ذلك الذي يستطيع كتابة هذه الكلمة، ومن الخطأ أن يقاس رقي الأمة بعدد من يعرفون الحروف الهجائية فيها، وإنما يعرف رقي الأمة بعدد نبغائها وصدق رأي قادتها فالأمة التي تفوز في ميدان الحرب لا تجني ذلك الفوز لمعرفة جميع جنودها مبادئ القراءة والكتابة، وإنما تحرزه بما يبديه قوادها من الرأي السديد والحكمة في تنظيم الجيوش.

ولهذا كان من العيب أن نترك التعليم العالي ونهتم بالتعليم الأولي فقط. ولقد تغالينا في ذلك حتى أصبح الناس ينادون بتعليم أولاد الباعة والخدم ومساحي الأحذية، مع أن أبناء هؤلاء المصلحين الذين ينادون بتعليم أبناء السوق لم يوفقوا إلى نيل ما يليق بهم من التعليم، ولو أنصف هؤلاء المصلحون لتركوا السوق للبيع والخدمة، وساعدوا أنفسهم وأبناءهم بفتح الكليات العالية وإرسال الإرساليات إلى أوروبا لنقل أفكار الأمم الراقية.

لا يضير أمتنا أن يكون ابن الخادم خادما مثله، ولكن يعوزها وجود رجال أكفاء يسرون بها في مراقبي الفلاح، ومن العبث أن نحاول أن يكون لخادمنا من المعرفة ما للخادم الغربي، ما لم نسع أن تتساوى معلومات أغنيانا بمعلومات أمثالهم من الغربيين، فإن هذا الخلط في الرأي قد يؤدي إلي أن يكون الخادم أعلم من سيده وهو ما لم ير في أمة من الأمم".

إن فريد أبو حديد ونبوية موسى تصورا أن موارد البلاد لا تسمح بالتعليم الإلزامي وأن الخيار هو ما بينه وبين الأنماط الأعلى ولكن الموارد تسمح - ويجب أن تسمح - بالاثنين مع وضع ملاحظات فريد أبو حديد ونبوية موسى في الاعتبار (*).

(*) قرأت كتاب "خطابات جورج صامد وجوستاف فلوبير" George Sand-Gustave Flaubert Letters, translated by McKENZIE Aimée L., Duckworth & Co. London, 1922. بالإنجليزية في الستينات ، عندما كان لدي هامش عريض من الوقت للقراءة ، فأعجبت به وترجمت ملخصاً وافياً لهذه الخطابات ، ووضعته بين أوراقى وظل فيها لقراءة أربعين عاماً ، كنت في أواخرها قرأت مقالات الأستاذ فريد أبو حديد ، وبعد فترة قرأت كتاب نبوية موسى ، وعندما فتحت أمامي سبل النشر نشرتها بالصورة التي كتبت بها ، أي بإضافة ملاحظات فريد أبو حديد ونبوية موسى في أربعة أعداد متلاحقة من مجلة حواء من ٢٠٠٣/١٢/٢٧ إلى ٢٠٠٤/١/١٧.

إشكاليات التحديث في المجتمع المصري

تحت هذا العنوان الموجز يمكن كتابة مجلد من ألف صفحة، بل يمكن القول إن هذا الموضوع لا يُجلى بالتفصيل إلا بمثل هذا العمل لأن الإشكاليات التي تكتنف محاولات التحديث وتحيط بها إحاطة السوار بالمعصم تتضمن:

فساد نظام الحكم منذ أن حكمت الطغمة العسكرية البلاد إثر انقلاب ٢٣ يوليو، واحتكار السلطة وتزييف الانتخابات وإصدار دساتير لقيطة وحل الأحزاب واستلحاق النقابات وفتح أبواب المعتقلات للجميع من شباب وشيوخ، إخوان مسلمين، وشيوعيين، ضباط ومدنيين ونقابيين، كتاب وصحفيين.. الخ، وإشاعة حكم الإرهاب وقهر الإنسان المصري مما أفسد مناخ المجتمع المصري فساداً لا يمكن أن يقوم في ظلّه أي إصلاح.

تخصيص الجزء الأكبر من ميزانية الدولة للأمن الداخلي والدفاع والدعايات الخارجية ومرتبات وبدلات كبار الموظفين والإنفاق بإسراف وترف على مباني الوزارات ومكاتبها بحيث تضاعلت النسبة المخصصة للخدمات أو للصناعات، كما أن مجلس الشعب لا يستطيع مناقشة كل بنود الميزانية، أو حتى معرفتها.

اتباع سياسات اقتصادية عقيمة لم تستهدف مصلحة الشعب ولم تتسم أبداً بجرأة وشجاعة وإخلاص للقضاء على الاستغلال والكسب غير المشروع وتحقيق التنمية ورفع مستوى حياة الشعب. وأصبحت هذه السياسة تزيد الأغنياء غنى والفقراء فقراً.

ظاهرة الفساد الاقتصادي التي سمحت بنهب أموال البنوك، وشيوع الرشوة والعمولات، وغش الصناعات وتضخم الموارد الطفيلية.

وأدى استئراء هذين العاملين (عقم السياسات الاقتصادية وانتشار الفساد) إلى:

☒ سقوط الاقتصاد المصري وتضخم الديون الخارجية والداخلية وتدهور العملة القومية بحيث أصبح الجنيه المصري لا يساوي سوى سدس دولار.

☒ انتشار الأمية الأبجدية وتزايد نسب التسرب في مدارس الأطفال بحيث زادت نسبة الأمية على ٦٠% في الوقت الذي انتفت الأمية الأبجدية في كثير من دول العالم وأصبح الأمي هو الذي لا يستطيع أن يتعامل مع الكمبيوتر.

☒ فساد النظام التعليمي وقيامه على "المعلومة" وجعل حفظ هذه المعلومة هو معيار النجاح في الامتحانات وهذه لا علاقة لها بتنمية شخصية الطالب أو دعم أو تنمية المهارات التي يتطلبها العصر بحيث أصبح التعليم عبئاً ونزيفاً والمفروض أنه أفضل استثمار، كما أدت هذه السياسة إلى ظهور مافيا الدروس الخصوصية التي أثقلت كاهل آباء التلاميذ وقضت على مجانية التعليم.

☒ عدم الاعتراف بأن المرأة "إنسان ومواطن" لها كافة حقوق الإنسان والمواطن، مع أنها نصف عدد السكان الذي يربي النصف الآخر، فتدهور دور المرأة في المجتمع، كما عجزت عن أن تربي النشء تربية استقلالية حرة، لأنها لا تتمتع - هي نفسها - باستقلال أو حرية.

☒ التنكر للفنون مما أدى إلى عجزها عن أن تقوم بدورها في إشاعة الجمال والرقّة والمشاعر والدوق.. الخ، في المجتمع.

وأخيراً سوء فهم الدين، وهو المقوم الأول للشخصية المصرية بحيث انعكس هذا السوء على شخصية الفرد وعلى تكوين المجتمع وأوضاعه وأحكامه.

ولما كانت معوقات التحديث بهذه الدرجة من الضخامة والشمول، فإنني سأقصر حديثي على بعض الأفكار العامة حول المشكلة.

- ٢ -

قبل أن ندخل في الموضوع لابد أن نجلى جانباً هاماً فيه، إن موقف المفكر المصري من حضارة العصر الحديث - الحضارة الأوروبية/ الأمريكية يختلف عن موقف المفكر الأوربي، إن المفكر المصري رغم تقديره لما توصلت إليه الحضارة الحديثة من إنجازات مذهلة لم تتوصل إليها، أي حضارة سابقة، فإنه لا يرى هذه الحضارة صفواً خالصاً، إنه يستكشف فيها مآخذ عديدة قد تعادل إيجابياتها ويمكن أن تهدد مسيرتها.

لقد كانت الحضارة الأوربية ثمرة شعار تملك أوربا طوال قرون ثلاثة على الأقل، هو التقدم، والإيمان بقدرة العلم على تحقيق هذا التقدم. وبالفعل فإن أوربا حققت تقدماً لم يسبق لحضارة أخرى أن بلغته. وما فات المفكرين الأوربيين هو أن التقدم قد لا يكون بالضرورة خيراً كله، كما فاتهم أيضاً، وهم في حميا سباق التقدم أن يفتنوا إلى أن كل تقدم يجب أن يتضمن "كوابح" أو "فرامل" يمكن أن تستخدم عند اللزوم، هذه النقطة كانت بعيدة عن فكرة التقدم، كما بدت قيدياً على الحرية التي كانت هي المناخ الذي سمح بهذا التقدم، وكانت النتيجة أن الحضارة الأوربية أشبهت عربة قوية غاية القوة مندفعة غاية الاندفاع ولكن بدون "فرامل".

إن المفكر المصري المؤمن بسليقته، يرى أن هذه العملية تخالف أصول الآليات وطبائع الأشياء، فأولاً: قد لا يكون التقدم بالضرورة أفضل من الوضع الذي انطلق منه وإن كان يغلب أن يكون أفضل، ثانياً: أن التقدم يجب أن يتسم بدرجة "معقولة" من السرعة، ثالثاً: أن من الضروري أن تكون هناك كوابح، وفرامل واستراحات ومحطات.

المشكلة في الحضارة الأوربية أنها ترفض تماماً مثل هذه الضرورات حتى لو أيدها العقل لأن العقل ليس إلا وسيلة في يد الحضارة الأوربية، ولكنه ليس غايتها، إن غايتها هو "الإنسان"، وتؤكد لنا دراسة الطبيعة الإنسانية أن الإنسان عندما يترك لنفسه فإن عواطفه وشهواته تغلب دائماً عقله وحكمته.. وأن القوة الوحيدة التي يمكن أن تتدخل لإعادة التوازن وللحيلولة دون غلبة الأهواء، والشهوات والذاتيات، هي الدين الذي يأتي من الله، لأن سلطة الله أعظم من سلطة الإنسان، وهي وحدها التي يمكن أن تكبح جماحه، وهي أيضاً التي تصر الحضارة الأوربية على استبعادها !!.

ويتملك العجب الإنسان، كيف يوجد في أوروبا وأمريكا هذا العدد الكبير من الفلاسفة والمفكرين وذوى المشاعر النبيلة ثم لا يستطيعون شيئاً وهم يرون أن التقدم "بأي ثمن" والتقدم بأعظم سرعة يسير في سباق حثيث يوقع البلبلة والاضطراب في المجتمع ويحول دون استقراره ودون أن يهضم ما وصل إليه.

وأعظم من هذا دلالة أن انطلاقة المجتمع أو قل انفلاته لم يعد لأحد إمكانية السيطرة عليها أو الحد من غلوانها، فالجريمة "المنظمة" كما يقولون تستشري وتتمدد لتوجد لها مجالات عديدة كدعارة الأطفال، ونشر المخدرات، وتأثيرها على الانتخابات والأحزاب، ورشوة كبار المسؤولين، وتغولت "الميديا"، وأصبحت تطبع الرأي العام وتسوقه لما تريد وتستخدم كل ما لديها من فنون الصناعة وعلم النفس للتأثير على الناس للإقبال على استهلاك الآلاف، وعشرات الآلاف من منتجات لا ضرورة لها، واستغلت السينما لتعميق العنف والقسوة وإشاعة الإباحية والانحراف والشذوذ الجنسي، أما ما ارتكبهه النظم الرأسمالية من خوض حربين عالميتين

قتل فيها أكثر من خمسين مليوناً، وما قامت به النظم الشمولية من استئصال المعارضين الذي قضى على خمسين مليوناً أخرى في الاتحاد السوفيتي والصين وغيرهما، فيكفي لإدانة الحضارة الأوروبية.

أذكر أنني قرأت منذ ثلاثين عاماً في مقدمة كتاب يعالج التقدم العلمي اقتراحاً تقدم به أحد رجال الدين بإيقاف كل صور التقدم والاختراع لعشرين سنة حتى يستوعب المجتمع ما وصل إليه، وقد كان هذا منذ ثلاثين عاماً أو أكثر فماذا كان عساه أن يقول الآن.

إن عُشر ما يكتنف الحضارة الحديثة من عوامل التدهور كان يمكن أن يقضى على الحضارة الرومانية، ولكن الحضارة الحديثة تسلحت بالحرية والعلم وكانا مفقودين في الحضارات القديمة، ولهذا صمدت الحضارة الحديثة، وإن كان عليها أن تدفع الثمن.

أريد أن أصل إلى أن التقدم بأي ثمن، والتقدم بكل سرعة، والتقدم في كل مجال مهما كانت طبيعته وهو المثل الذي تسير عليه الحضارة الحديثة ليس هو الأفضل مطلقاً، ولا بد وأن تكون له عواقب وانعكاسات سيئة.

وليس معنى هذا بالطبع رفض الحضارة الأوروبية، أو إنكار إنجازاتها التي فاقت الحضارات القديمة، ووصلت إلى ما كان يشبه الأحلام، إن التحفظ هو على السرف والشطط والغلواء، وفكرة أن كل تقدم - بمعنى تغيير وتبديل - هو الأفضل بالضرورة.

هذا الملحظ قد يدق على الأوروبي الذي استغرقت حضارته - فلم يعد يستطيع أن يخرج عن أطرها أو يجاوز روحها. ولكنه لا يدق على سليقة وطبيعة المفكر المصري الذي يحمل وراثته حضارة دينية عميقة بدأت من إيزيس وانتهت بالإسلام توجد لديه شيئاً من التحفظ إزاء التحديث ويؤمن أن لديه ما لم يتوفر للفكر الأوروبي، وما لو منحته أوروبا شيئاً من اهتمامها لأسهم ذلك في اجتياز أزمته الحضارية.

ونستخلص مما تقدم أمرين:

الأول: أن الدين المتجذر في نفسية الإنسان المصري (وإلى حد ما العربي) رغم أنه شوه واستغل بحيث عوق سير النهضة والإصلاح، إلا أنه حال بالفعل دون الاستسلام لبعض أسوأ خصائص الحضارة الأوروبية، ومن هنا فإنه أحسن إلى المجتمع المصري، وانظر مثلاً إلى قضية المسكرات وقضية الجنس اللتين أصبحنا من أكبر عوامل التدهور في الحضارة الحديثة، نجد أن الدين قد عصم المجتمع المصري من التعرض لوباء الإدمان، ومع أن فهم الناس له (أي الدين) في قضية المرأة كان متخلفاً وظالماً للمرأة إلا أنه مع هذا عصم المجتمع المصري من أسوأ صور ما تورطت فيه، واستسلمت إليه الحضارة الأوروبية في هذا المجال، بما في ذلك الشذوذ الجنسي والزواج المثلي.

ثانياً: أن مسلكنا تجاه التحديث يجب أن يكون انتقائياً فنحن لسنا في حاجة إلى ما ذهب إليه طه حسين من ضرورة الأخذ بالحضارة الأوروبية بحسناتها وسوءاتها، إن هذا فرض تعسفي يتجاهل الخصائص المميزة للشعوب ويقسرها قسراً على ما ترفضه طبائعها، وهو أشبه باتجاه العولمة اليوم الذي يريد أن يذيب كل الخصائص في "شوربة العولمة" وأقرب إلى ما تدعيه الولايات المتحدة، وما تطالب مجتمعات العالم به، وهو وإن لم يخل من صواب إلا أنه لا يمكن أن يؤخذ ككل وبالطريقة "الطاها حسينية" وإن كنت أعتقد أن طه حسين قد تراجع في أيامه الأخيرة عن آرائه الأولى، وأعتقد أن انتقاءتنا في معظمها قد تكون في الدرجة، وليس في النوع إن كان أمامنا الكثير من الجديد الذي نتعلمه من العصر الحديث.

وسيعيننا في هذا أن الأصول لا تنقصنا فكل الأديان، وهي أكبر مقومات الأمة المصرية، تقوم على قيم الخير والحب والسلام، والبعد عن الأنانية.. الخ، مما يمكن أن يصلح عليه، أي نظام اجتماعي أو سياسي. ولكن هناك جوانب أخرى لابد أن نتعلمها ولم توجد في حضاراتنا السابقة منها:

أولاً: التنهيج:

يعد التنهيج من أبرز وجوه النقص في المجتمع المصري، قديماً وحديثاً فنحن لا نجد فيه، ولا في المجتمعات الإسلامية في عز ازدهارها أنماطاً محددة واضحة من التنهيج بمعنى وضع آليات تضمن استمرار العمل طبقاً للأصول الموضوعية، وما أكثر ما يأخذني العجب، كيف أن عمر بن الخطاب وهو إداري الإسلام ورجل الدولة فات عليه أن يضع أسس لتنهيج الحكم خاصة بعد أن لمس أزمة يوم السقيفة التي كادت أن تمزق المسلمين لولا حكمة أبي بكر وظروف أخرى طارئة، كيف لم يضع مجلساً من ستين من المهاجرين والأنصار وممثلي الفئات الطارئة على مجتمع المدينة ليكون هو المجلس الذي ينظم عملية الحكم، هل ضاق وقته عن ذلك! هل شغل بالتفاصيل عن الكليات؟ هل خشى الشكليات والروح التي تمتلك المؤسسة بمجرد قيامها؟ هل كان مجتمع المدينة من البساطة بحيث لا يتطلب منهجا؟ هذه كلها أسئلة قد تطرأ عند التماس العذر أو إيضاح الملابس لإهمال التنهيج، وأخيراً وهو في النزاع الأخير تبين عمر هذا النقص وحاول بقدر ما سمحت الساعات المتبقية له استدراكه.

إن افتقاد التنهيج، أي وضع الآليات التي تكفل مضي عمل المجتمع بصورة منتظمة ودائمة، سواء في ذلك المجال السياسي أو مجال القضاء أو غيرهما، هو من أبرز وجوه النقص في مجتمعاتنا القديمة. وما يجب أن نستدركه بسرعة، وأن نتعلم من الحضارة الأوروبية أصول هذا التنهيج وإقامته والحرص عليه.

ثانياً: الإيمان بالحرية:

يعد الإيمان بالحرية من خصائص الحضارة الأوروبية ومن المحتمل أن الحرية لم تكن من الأصول المقررة الواضحة في مجتمعاتنا القديمة، إن تقصينا لفكرة الحرية في المجتمع الأوروبي وفي المجتمع الإسلامي قادتنا إلى أن فكرة الحرية في المجتمع الأوروبي تنبع من الإنسان وهي في المجتمع الإسلامي تنبع من الحق بيد أن هناك حرية واحدة لا يكون للحق نفسه وصاية عليها هي حرية الفكر لأن الفكر هو الذي يهدي إلى الحق، وهو الذي يميز ما بين الحق أو الخرافة، وهذا هو سر فتح القرآن باب حرية الاعتقاد على مصراعيه "فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر" والتحذيرات العديدة للرسول لكي لا يجاوزوا دورهم وهو التبليغ.

مع أن هذا يستقيم أصولياً، ويوضح لنا سر فتح القرآن لحرية الاعتقاد، إلا أنه عملياً لم يطبق، ولعله انتهك بعد عشرين أو ثلاثين سنة من هجرة الرسول، وعندما ظهر الملك العضوض سنة ٤٠ هجرية طويت صفحة الحرية من المجتمع الإسلامي، وظلت مطوية حتى مشارف العصر الحديث، بل إننا حتى في الفترة الراهنة لا نؤمن بالحرية، وقد ضربنا المثل قديماً بالمعتزلة الذين يقال عنهم أحرار الفكر في العصر العباسي مع أنهم اضطهدوا مخالفيهم اضطهاداً رهيباً لا يدل على وجود إحساس بحرية الفكر. وفي الفترة الراهنة فلا نجد في المجتمع المصري من يبكي على الحرية، ويندب عدم وجودها ويرفع لواءها لأن الذين يدعون ذلك هم من اليساريين ومن فلول الشيوعية التي حاولت أن تقنن وتُنظر القضاء على الحرية وأن تقنن وتُنظر إرهاب الدولة، وحسبك بسياسة لينين أو بكتاب تروتسكي "دفاع عن الإرهاب".

أما المؤسسة الدينية فإنها كانت صريحة فإنها لم تغلق الباب في وجه حرية العقيدة، كحرية مسلم أن ينتصر ولكنها أوصدت الباب أمام كل حرية للفكر تجاوز الصيغة التي وضعتها "من جحد معلوماً من الدين بالضرورة" التي قد تدخل مائة تهمة في إطارها، والمؤسسة الدينية لم تغلق فحسب باب حرية الفكر، بل أنها أيضاً أغلقت باب حرية الاجتهاد فيما يجاوز ما وضعت من حدود.

ومن هنا ذهبنا إلى عدم الاعتداد بما انتهت إليه المذاهب الإسلامية فيما يتعلق بحد الردة أو صيغة "من جحد معلوماً من الدين بالضرورة" باعتبار ذلك من شرع الفقهاء وليس من شرع الله، ومن ثم فلا إلزام. الحرية ثمرة أوروبية امتزجت فيها حرية الفكر بحرية العمل. ومن أجل هذا كانت "فاكهة" الحضارة الأوروبية وليست هي بالفاكهة المحرمة ومن حقنا أن نتذوقها وأن نشكر الحضارة الأوروبية عليها.

ثالثاً: الفنون والآداب:

ارتبطت الفنون والآداب بالدين في العهود القديمة كما هو واضح من آثار قدماء المصريين وفنونهم التي ارتبطت بالدين كما ارتبطت بالمسيحية في القرون الوسطى سواء كانت موسيقى تستخدم في الكنائس أو نحتاً وتصويراً لتمجيد وإبراز المضامين المسيحية، ولكن الإسلام تجهم لها، ولم يتقبلها إلا في حدود ضيقة ولا يتسع المجال لإيراد أسباب ذلك ومدى سلامتها.. الخ.

وقد توصلنا إلى حل يقوم على أن الفنون والآداب هي بتعبير القرآن "من حرث الدنيا" ومن يرد حرث الدنيا، فإن الله تعالى يوته منها" "ومن أراد حرث الآخرة فإن الله تعالى يزد له في حرثه "وما كان عطاء ربك محظوراً"، فهي ثمرة لما تنطوي عليه النفس الإنسانية - كما جبلها الله - من فجور وتقوى وبالتالي فلا تحاسب بمعايير إسلامية، ولكن بمعايير إنسانية، وما دامت هذه الفنون لا تفرض جبراً. وما دامت التجربة أثبتت أن التدخل فيها بحجة الرقابة أو غيرها من الاعتبارات تفسدها فمن الخير أن تترك حرة. فمن أراد الإقبال عليها فله هذا، ومن أراد الابتعاد عنها فهو حر في ذلك، ولا يكون هناك مجال - مع هذا التكيف - لمحاسبة الفنون بما جاء في بعض الأحاديث، لأنها أصلاً من حرث الدنيا، فضلاً عن أن مصداقية هذه الأحاديث هي قضية جدلية، ويغلب أن تكون مرجوحة لأن الرسول هو الذي قال "ساعة.. وساعة".

المراة:

تعد حالة المراة المصرية/العربية من تحديات التحديث الكبرى لما تتصف به من حساسية تتمسح فيها أعمق غرائز الأنانية بدعاوى دينية، ويكفي لتقدير مدى تخلف المجتمع المصري نتيجة لوضع المراة أن نقول إن هذا التخلف فوت على التنمية والنهضة، مشاركة وفعالية نصف تعداد المجتمع، وهذا على جسامته ليس هو أسوأ ما في الأمر إن أسوأ ما في الأمر أن قهر المراة واستتباع الرجل لها وإبقائها في دياجير الجهالة وحبسها بين جدران منزلها، جعل المراة تعجز كأم عن أن تربي أولادها تربية تنمي الشخصية وتغرس فيها الاستقلالية والاعتماد على النفس وتحمل المسؤولية، وأدى ذلك لأن يتصف الجيل بوهن الشخصية وهيمنة النفاق وهو البديل عن قوة الشخصية، وهذا النقص هو في أصل تخلف المجتمع المصري ولا يمكن إصلاحه إلا بالنهضة بالمراة والإيمان إيماناً تاماً بأنها إنسان ومواطن كالرجل سواء بسواء.

لقد أصقت تهمة تخلف المراة بالدين، ولكن الاستقصاء الذي قمنا به في كتابنا الحجاب أثبت أن الحضارات القديمة في الصين والهند وأشور (باستثناء الحضارة المصرية) كانت تتضمن دونية المراة وأن

هذا وجد في أثينا وأن أرسطو كان هو الذي قننَ ونظّر دونية المرأة فهذه الدونية كانت موجودة قبل الأديان، وإن استُغلت الأديان لتدعيم هذه الفكرة.

بالنسبة للإسلام فإن نصوص القرآن، وأعمال الرسول وما قامت به المرأة في عهده من المشاركة في الحرب مشاركة قتالية جعلت الرسول يسهم لهن وما قامت به عائشة من قيادة الجيش ومن رواية الحديث، وما قامت به امرأة مجهولة لمعارضة عمر بن الخطاب وما قامت به نصيرات الإمام علي من إثارة الحماس بين الصفيين.. الخ، كل هذا يفند مزاعم الفقهاء ويجعل ما روى من أحاديث في هذا الصدد محل شك.

واعتقد أن الطريق طويل جداً وشائك حتى تفوز المرأة العربية بحقوق وواجبات الإنسان والمواطن، ولكن هذا يجب أن لا يشبث همتنا بل هو - على العكس - يدفعنا للمزيد من الجهد.

إصلاح النظام التعليمي:

ورثت مصر من عهد الاحتلال البريطاني نظاماً تعليمياً استهدف تخريج موظفين يقومون بالأعمال الكتابية والإدارية الروتينية ويكون شعارهم yes sir فارتبط التعليم بالشهادة والوظيفة ولم تتجح جهود كل المصلحين في استنقاذ التعليم من هذا الإرث وتوجيهه نحو تنمية الشخصية، وتقوية الخلق وإحكام المهارات التي يتطلبها المجتمع لسد حاجاته ولم تقم الجامعة بما أراده الذين فكروا فيها، وإنما أصبحت مدارس عالية مادتها "المعلومة" ومعياريها النجاح في الامتحان بصرف النظر عن الشخصية، والخلق والمهارات ثم جاءت سياسة الحكم ومحاولة تحقيق مكاسب عشوائية سريعة دون نظر إلى العواقب أو تقدير الجوانب العديدة.. الخ، باختصار أصبح التعليم نوعاً من الجريمة والاستنزاف وكان يجب أن يكون تقويماً واستثماراً، وما لم تحدث ثورة حقيقية تقضى على سياسة المعلومة والامتحان والفصل ما بين العلم والعمل، فإن نظامنا التعليمي سيحول دون تحقيق متطلبات العصر الحديث.

وأخيراً: تأصيل جديد للفكر الإسلامي:

إن كل المحاولات التي نبذلها للتحديث يمكن أن تتحطم على جدار سميك هو الموروث الديني، أي فهم الدين كما قدمه الأسلاف وليس كما أنزله الله، وإذا أريد الانتصار في معركة التجديد فلا بد أولاً من الانتصار في معركة التأصيل الجديد للفكر الإسلامي وهذا التأصيل الجديد يتطلب أن نعيد النظر في التفسيرات التي قدمها المفسرون لآيات القرآن وكانت مصدراً للأحكام، والمعايير التي وضعها المحدثون لاعتبار الحديث "صحيحاً"، وبالتالي سنداً في الأحكام وأخيراً أحكام الفقهاء، وأئمة المذاهب، نقول إن علينا أن نقوم بمراجعة شاملة لهذه كلها في ضوء ما يتضمنه القرآن نفسه، ومجرداً من أي تفسير، واستلهام الحكمة التي هي مصدر قرنه القرآن بالكتاب، وأخيراً أن نتأسى بالرسول وهذا يعني أن التأصيل الجديد يحتفظ بثلاث، هي القرآن الكريم، والحكمة وجعل الرسول أسوة، مع عدم الالتزام بضرورة بتفسير المفسرين ومعايير المحدثين وأحكام الفقهاء، لأن الثلاث الأولى هي شرع الله بينما الثلاث الأخر هي شرع الأسلاف والفقهاء والمفسرين والمحدثين، وليس هؤلاء جميعاً بأصل للتشريع، وقد أصدروا أحكامهم في ضوء عصر مغلق قديم مختلف، وهم رجال ونحن رجال ولدينا ما لم يكن متوفراً لهم من طرق الدرس والاستقصاء فلا خوف علينا في التوصل إلى الأحكام وتفهم النصوص ما دمنا نعود إلى القرآن ونستلهم الحكمة ونتأسى بالرسول (*).

(*) لم ينشر هذا البحث ، وإنما ألقى في إحدى ندوات الجمعية الثقافية التابعة للكنيسة الإنجيلية بالقاهرة.

وقد بجمع - الإرهاب - بوش ولبنين - وترونتسكي

بعدهما ظنوا ألا تلاقيا

كان الأستاذ جمال البنا يكتب لمجلة القاهرة بابًا منتظمًا يظهر تحت عنوان (ساعات بين الكتب) يستعرض فيه ثلاثًا من الكتب التي اختارها ووجد لها أهمية خاصة، وفي هذا الجزء من المختار سنعرض هذا النموذج لها.

- ١ -

قرأت في طفولتي رواية مسلسلة نشرتها مجلة "اللطائف المصورة" التي كانت تصدر في ثلاثينات القرن الماضي باسم "الشبح الأسود" وكانت تتناول قصة مجرم بارع شديد الذكاء أثار حيرة السلطات فهو يقترب جريمته في الشمال مثلاً ويعكف رجال البوليس على التنقيب في المنطقة ليفاجنوا بجريمة جديدة في الجنوب وما أن يصلوا إلى هناك حتى يعلموا بجريمة في الشرق، وفي كل جريمة كان الشبح الأسود يترك علامة مميزة.

ولم تقتصر حيرة السلطات على محاولة القبض عليه، إذ ظهر أن مجرمين آخرين أرادوا الاستفادة من شهرة "الشبح الأسود" فقاموا بجرائمهم باسم الشبح الأسود حتى كادت السلطات تجن، أين هو الشبح الأسود ومن هو الشبح الأسود "الأصلي" ومن هم الأشباح السوداء (التقليد)؟

لقد أعاد لنا السيد بوش رئيس الولايات المتحدة هذه الرواية، ففي أعقاب حوادث ١١ سبتمبر التي لم تترك فرداً واحداً ممن قاموا بها حياً، إذ احترقوا جميعاً ادعي أن مجرماً أثيراً هو "ابن لادن" وأنه هو الذي نظم هذا الاعتداء، ولما تكررت اعتداءات أخرى في أماكن أخرى قال إن ابن لادن له "قاعدة" وأن هذه القاعدة منتشرة في كل بلاد المسلمين، وأن هذا هو الإرهاب الأصلي الذي يكون عليه باسم الحضارة الأمريكية الأوروبية المسيحية اليهودية أن يحاربه، وهكذا أخذ ينشر قواته في أفغانستان والعراق والخليج وغيرها، ويتوعد سوريا ولبنان وإيران ويضع دولا أخرى على قائمة "الإرهاب".

هذا الشبح الأسود الجديد ما هي حقيقته..؟

في رأيي أن كلمة الإرهاب كلمة خاطئة إذا أريد بها الممارسات العنيفة المتطرفة التي يقوم بها أفراد وجماعات بوحى إيمانهم بفكرة معينة بعد أن سدت في وجوهها الطرق المشروعة فهذا لا يمكن أن يكون إرهاباً، وإنما هو صورة من العنف أو التطرف اضطرت هذه الجماعات إلى اللواذ به، وهو يعد "رد فعل" لا فعلاً.

أما الإرهاب حقاً، الإرهاب الأصلي فهو ما تمارسه الحكومات على الشعوب حتى تشيع الخوف والرهبنة في نفوس الناس فلا يثورون عليها ولا يضيقون بما تمارسه القوى المهيمنة من فساد أو ديكتاتورية أو ما تتورط فيه من خطأ أو انزلاق.

هذا هو التكيف الحقيقي للموقف، ومن هنا فإننا لا نجد في دولة آمنة، ديمقراطية، حرة - بمعنى الكلمة وليس بزيغ الكلمة - إرهاباً يقابله عنف، فهذا لا داعي له، أولاً لأن السلطة تلتزم إرادة الشعب فلماذا يثور عليها الشعب، ولأنه إذا لم تعجب سياستها الهادئة فرياً شاداً فإن هذا الفريق يمكن أن يكون حزبا ويصدر جريدة يقول عبرها كل ما يريد ويكيل للحكومة الصاع صاعين في حماية حق التعبير.

وهذا هو ما كان في مصر في مرحلتها الليبرالية، وفي ظل دستور ٢٣ رغم كل ما يوجه إليه من نقد، ولم يعرف المجتمع المصري ممارسات العنف إلا في آخر الفترة، عندما ترهل النظام وسرى إليه الفساد، وكان إعلان الأحكام العرفية سنة ١٩٤٨ نهاية للمرحلة الليبرالية ومقدمة للعهد العسكري.

ولكن، إذا لم تكن هناك حريات فمعني هذا أن هناك إرهاباً بمعنى الكلمة تمارسه الحكومة لأنه لا يمكن كبت الحريات إلا بالوسائل الإرهابية أي اعتقال المعارضين، وتعذيب المسجونين، ومصادرة الأموال.. الخ. وفي هذه الحالة توجد الجماعات الرافضة التي لا تقبل الاستسلام، ولا ترى مناصاً من اللوآذ بصورة من العنف، فهي لن تخسر شيئاً مع حياة الذل والاستعباد، ولكن أعمالها قد تهز "هيبة" السلطة أو تززع الثقة فيها.

في كل الدول التي رفض حكامها التجاوب مع دعوات المصلحين وأصروا على حكم استبدادي ظهرت مثل هذه الحركات، وقد ظهرت في حركة يظن أنها أبعد الحركات عن العنف - تلك هي الحركة النسائية - فبعد قرابة خمسين عاماً في النصف الأخير من القرن التاسع عشر من دعوة رائدات الحركة النسائية في إنجلترا، أصمت فيها الحكومة أذانها عن أن تستجيب لها اضطرت سيداتها إلى اللجوء إلى العنف فأحرقن القصور الصيفية لبعض اللوردات وسكنن بعض المواد الحارقة في صناديق البريد وأخيراً تصدت إحداهن للحصان الفائز في سباق الدربي وهو يجرى بأقصى سرعته فماتت تحت حوافره.

ولكن أوضح للقارئ الفرق بين الإرهاب الأصلي والإرهاب التابع، إرهاب رد الفعل، الفرق بين الإرهاب الحكومي والإرهاب الشعبي، سأضرب المثل بما حدث في روسيا القيصرية أوائل القرن العشرين، ثم بما حدث في روسيا القيصرية نفسها - بعد أن حملت اسم الاتحاد السوفيتي في ثلاثينات القرن العشرين وخضعت لقيادة لينين وتروتسكي، وفيما بعد ستالين.

في أوائل القرن العشرين ظهرت حركة شعبية بين لفيف من الشباب والشابات الروس المتحمسين لقضية الحرية، وكان مطلبهم الرئيسي من الحكومة إصدار دستور وتنظيم "برلمان" ولكن الحكومة القيصرية التي تحكم حكماً أوتوقراطياً تقليدياً بتحالف من القيصر، والكنيسة يكون القيصر فيها "الأب" على الأرض وتمثل فيه الكنيسة "الأب" الذي في السماء" اضطرت هذه المجموعة لأن تعتنق "الفوضوية" أو "العدمية" وأن تلوذ بصور من العنف اقتترفها فتيات في مقتبل العمر وشبان في ريعان الحياة فاغتالوا المحافظين والضباط والوزراء ونجحوا أخيراً في تفجير قطار القيصر وموته.

كانت هذه المجموعة أبعد ما تكون عن الإجرام وكان فيها شباب من الطبقة الأرستقراطية كفروا بالنظام الطبقي وآمنوا بشرعة الحرية، وصور لنا الكاتب الفرنسي "البير كامو" خلائق هذه المجموعة في مسرحية "العدول" وعرض لنا كيف تنافس أعضاء المجموعة على ترشيح أنفسهم للقيام باغتيال الدوق الكبير "سيرجي" حتى وقعت القرعة على أحدهم وفي اليوم المحدد وقف يترصد لعربة الدوق وفي يده قنبلة تكفي لنسف العربة نسفاً، ولكن لم يكد يتحرك حتى تجمد، فقد شاهد بجانب الدوق طفلاً صغيراً بريئاً، اصطحبه الدوق، فتوقف، ولم يقذف القنبلة لأنه رفض عقاب الظلمة بقتل الأبرياء.

هذه هي صورة لما يسمونه "الإرهاب" وليس هو في الحقيقة إلا إملاء الضرورة السيئة التي لم يعد منها مناص.

انظروا الآن إلى الإرهاب "الأصلي" إرهاب الحكومة فيما حدث في فترة حكم لينين وتروتسكي، فهذان الحاكمان المنظران كانا كقيصرة روما الأقدمين لا يفتنعوا بأن يسوقوا ضحاياهم إلى الموت، ولكن أيضاً

يرغمونهم على أن يحيوهم "نحييك يا قيصر نحن الذاهبين إلى الموت" بمعنى أنهما لم يقتعا بأن يجعلنا من الإرهاب الحكومي الذي مارساه ضرورة سينة ولكن فضيلة ضرورية، ولم يقتع لينين أن يكتب الحرية بجهاز المخابرات الأول في التاريخ الحديث، ولكنه أراد أن يثبت نظريا - ما طبقه عمليا - أن وسائل الضغط والإلزام هي وحدها ما يكفل مضى الأداء الحكومي وما يحقق خطة التنمية.

وجلى تروتسكي هذه الفكرة في كتابه "دفاع عن الإرهاب" تري هل سمع الرئيس بوش بهذا، فلعله لو سمع لنسب إليه الجرائم ولأطلق وراءه طياراته"، ففي هذا الكتاب نجد الإيمان بأن الإرهاب هو الأداة المقررة للحكم السوفيتي لأن الإنسان كسول وأناني بالفطرة، ولا بد من سوقه سوقا بوسائل القهر والضبط والربط إلى العمل، وفي هذا السبيل أراد "عسكرة النقابات" أي أن يجعل من النقابات "ثكنات" تزود خطة التنمية بالعمال طبقا للأصول العسكرية بحيث يعاقب عقابا صارما، أي عامل يرفض العمل - كأى جندي يرفض الخدمة - وفي فترة الحرب العالمية الثانية أقامت النقابات سجونا للعمال الذين يتأخرون في الحضور، إذا تكرر ذلك.

وما حدث في روسيا اللينينية - التروتسكية الستالينية - نقل بحذافيره تقريبا إلى إيطاليا الفاشية وألمانيا النازية وبقية نظم الحكم الشمولي.

فإذا أردنا المقارنة بين ما قام به شبان وشابات "العدمية" تجاه القياصرة - بما قام به لينين وتروتسكي تجاه العمال والفلاحين لاتضح لنا الفرق بين الإرهاب الحكومي ورسالة العنف التي ردت بها الجماهير ولتبينا أن الإرهاب الحقيقي الفعلي هو الإرهاب الحكومي، أما ممارسات الجماعات العنف فهو رد الفعل ووسيلة إعلان رفض قد يضحون بحياتهم في سبيلها.

ما هو الهدف من هذا الحديث الطويل ؟

الهدف هو أن الإرهاب المزعوم لا يحارب بإرهاب حقيقي فهذا ما يفاقم الأمر.

إن الطبيب عندما يحصن المريض من مرضه يعطيه حقنة مخففة جدا من ميكروبات المرض، ولكنه لو أعطاه حقنة من الميكروبات نفسها لمات المريض.

ومقاومة إرهاب الجماعات بإرهاب الحكومات هو تطبيق المثال السابق.

ليس هناك سوى طريقة واحدة لمقاومة الإرهاب.

هذه الطريقة هي الحرية...

أعطوا الشعوب حريتها - يختف الإرهاب.. أما ممارسة الولايات المتحدة فإنها لا تمثل مقاومة الإرهاب في شيء، إنها هي نفسها أسوأ صور الإرهاب، إنه نزوع السلطة للتوسع والتحكم وفرض السياسات.

إن مستر بوش يمارس ما مارسه لينين وتروتسكي من قبل، وليس هذا غريبا فقد ورثت الولايات المتحدة الاتحاد السوفيتي، بما في ذلك وسائله، فهي تمارسها.

وقد يكون من حق الولايات المتحدة - بحكم القوة الوحشية - أن تفعل ما تشاء، ولكن ليس لها أن تطلق على ما تمارسه مقاومة الإرهاب لأنه هو نفسه أسوأ إرهاب (*).

(*) نشر بجريدة القاهرة ، العدد (١٨١) ، بتاريخ الثلاثاء ٢٠٠٣/٩/٣٠ م.

عندما ينقلب المثقف من أصولي إلى ملحد

ومن ماركسي إلى رأسمالي

ومن وضعي منطقي إلى ميتافيزيقي

هذه حلقة من ثمانية من سلسلة مراجعات الكتب وهي تعرض التحول
الفكري لثلاثة من المفكرين.

الأستاذ عبد الله القصيمي الذي ستعرض السطور التالية لتحوله الفكري من أصولي وهابي إلى ملحد
مشاكس ولد عام ١٩٠٧ في قرية تدعى حب الحلوة تقع في منطقة القصيم في نجد "والحب" تعنى منخفضاً
في واد صحراوي من أسرة قيل إن رأسها جاء من مصر مع جيش إبراهيم باشا سنة ١٨١١ وعندما كان في
الرابعة من عمره انفصل أبواه وتزوجت أمه رجلاً آخر وهاجر أبوه إلى عمان حيث استقر في الشارقة وعمل
في تجارة اللؤلؤ، بينما بقي عبد الله الصغير في رعاية جده لأمه وكان فقيراً فجعله يعمل في سوق الماشية قال
القصيمي نفسه عن هذه الفترة من حياته "كل ما أعياه من الأيام الأولى لهذه الطفولة أنني وجدت مع جدي
لأمي الذي كان القحط الإنساني والقحط الطبيعي وكوارث أخرى امتصت منه كل شيء"، فلا عجب إذ سعى
للهرب من هذه الحياة التعسة، وبدأ البحث عن أبيه حتى قادته الأقدار والملابس الخاصة إليه وكان إلى حد
ما ميسوراً ولكنه كان وهابياً صارماً فحاول أن يعلم ابنه كل العلوم الشرعية، فأخذ يجد ويجتهد في الدراسة
خاصة بعد أن التقى بالممثل التجاري عبد العزيز بن راشد الذي تحول من ممثل تجاري إلى طالب شريعة
وشجع القصيمي على القيام بزيارات إلى العراق والهند وسوريا ومصر وغطى تكاليف الرحلة من ميراث
ضئيل تركه له أبوه عندما مات وفي كل هذه الدول انتمى إلى معاهدها الدينية وبوجه خاص في الهند التي
كانت العلاقات بينها وبين إمارات الخليج مألوفة ومتعددة، ولكن القصيمي كان أقصى آماله أن يصل إلى
الأزهر.

"ها نحن الآن في مركز الكون، في مجتمع الآلهة، في مصلي الملائكة، في مولد التاريخ، في مقبرة
التاريخ، في مصنع التحنيط للتاريخ".

بقدر ما كان أمل القصيمي بقدر ما كانت الخيبة والصدمة، فالأزهر في هذه الفترة كان يتعرض
لصراعات محتدمة بين أنصار الإصلاح وأنصار الحفاظ ودفع هذا الصراع الطالب الشاب (كان عمره عشرين
عاماً) لأن يصدر أول كتاب له "البروق النجدية في اكتساح الظلمات الدجوية" نسبة إلى الشيخ الدجوى
وأنصاره.

وفصل الأزهر القصيمي عام ١٩٣١.

فأصدر "الثورة الوهابية" دعمًا وتأييدًا لحكومة ابن سعود وثنى بكتابه الذي أعطاه شهرة مدوية"، "الصراع بين الإسلام والوثنية" الذي هاجم فيه الشيعة وأعاد فكرتهم إلى اليهودي عبد الله بن سبأ وأن الشيعة أسوأ من الخوارج الذين تصرفوا عن جهل، أما الشيعة فيزورون التاريخ عمدًا.

كانت ملكاته ومواهبه تتفتح، فأعقب هذا الكتاب كتابين أعطيا له شهرة واسعة ورسمًا بداية التحول، هما "كيف نزل المسلمون" وكتاب "هذي هي الأغلال"، وفيهما طالب بتحرر الفرد من التصورات الدينية التي تعوق تفتح الشخصية واقترب بهذا من العلمانية.

كان القصيمي الليبرالي ينمو في صمت وخفاء حتى منه هو نفسه بفضل إقامته في مصر وتعرفه على مناشط الحياة الحديثة، وكان التحول يسير ببطء، ولكن بثبات من الهجوم على شعوبذة التصوف إلى جمود السلفيين، وكأنما ينس من وجود المجتمع الديني المطلوب ما بين تسيب الصوفية وجمود الوهابية ولمس للمرة الأولى الأثر الطاعني لسيطرة الدين على الأذهان فوجد نفسه في سنة ١٩٤١، وهو يطالب بفصل الدين عن الدولة.

وانتقد القصيمي التعريف الشائع للقدر والقضاء، فقال إن المقصود بالقدر القوانين الطبيعية التي وضعها الله لسير الكون وأن القضاء لا يستعمل في القرآن إلا بمعنى "فرغ" أو انقضي ويقصد به أن الله تعالى خلق العالم في صيغة نهائية كاملة.

في كل هذه الملاحظات نرى القصيمي يتحول من ناقد للمذهبية إلى ناقد لطبيعة الدين أو طريقة فهم الدين التي تجعل المؤمنين يرون التقدم لا في السير إلى الأمام ولكن في العودة إلى الخلف وأن يرجع التقهقر ما استطاع إلى ذلك سبيلًا ليظفر بالسعادة والعلم والقبول الخ..

وخطوة فخطوة يجد نفسه يستشهد بكتابات "لوبون" إن الإيمان بإله واحد كان مصيبة على البشرية وأن الحضارة البشرية لم تحقق تقدمًا إلا في مراحل الوثنية وإن تبرأ منها، وقال: "إني ما أردت إلا خدمة الحق وخدمة أمتنا العزيزة، وليكن هذا شفيعًا لي عند من يخالفني في بعض المسائل أو في بعض الشروح والتفصيلات وثانيهما أني لم أحاول إلا أن أكون مؤمنًا بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر، ولكني حاولت أن يكون هذا الإيمان سليمًا قويًا وأن يكون كإيمان عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص وخالد بن الوليد وأمثال هؤلاء وأبيت أن يكون مثل إيمان الشعرائي والغزالي وابن عطاء الله والسيوطي وغيرهم من شيوخ الطريق وحدادة الجهالة ورسل الفقر — ممن نكبوا البشر وانحرفوا بهم عن الغاية التي كان يجب أن يبلغوها".

الغريب أن القصيمي رغم كل ما أورده أهدي الكتاب إلى الملك عبد العزيز آل سعود واختتم إهداؤه بتأكيد ولانه للوهابية.

وقوبل كتاب "هذي هي الأغلال" بالترحيب من الكتاب الليبراليين، فنشرت المقتطف دراسة للكتاب بقلم إسماعيل مظهر وظهر المقال في الصفحات الأولى للمقتطف وتضمن ثناءً عطرًا على المؤلف، وكتب عنه العقاد مقالًا يتسم بالاتفاق مع القصيمي من ناحية المبدأ وإن اختلف في التفاصيل، ومن ناحية أخرى فقد تعرض الكتاب لعاصفة من النقد من السعوديين فنشر الكاتب السعودي عبد الرحمن بن ناصر السعدي كتابه "تنزيه الدين ورجاله مما افتراه القصيمي في أغلاله" كما نشر الكاتب السعودي عبد العزيز السويح كتابًا

ضحماً في حوالي ١٢٠٠ صفحة باسم "بيان الهدى والضلال في الرد على صاحب الأغلal" ورمى القصيمي بأنه مغرور ومتعجرف ومادي ومتطرف.

ولم يقتصر الجدل حول "هدى هي الأغلal" على مستوى النشر وحده، بل إن العديد من الجمعيات الإسلامية طالبت بطرد القصيمي من مصر وكانت "جمعية الشبان المسلمين" من أشد المطالبين باتخاذ إجراءات قانونية وسياسية ضد القصيمي، بل إن مجموعة من خصومه أسست لجنة خاصة لمحاربة القصيمي أسمتها "لجنة مكافحة هدى هي الأغلal" هدفها الضغط على الحكومة المصرية والقضاء المصري لمنع الكتاب وطرد مؤلفة من البلاد، إلا أن هذه النشاطات أدت في بادئ الأمر إلى تضامن الدوائر الليبرالية والإصلاحية مع القصيمي ولهذا الغرض دعا الشيخ أمين الخولي (المتوفي ١٩٦٧) إلى نقاش مفتوح في جامعة القاهرة وبعد هذا النقاش أرسل بعض المشتركين إلى الجهات الحكومية المختصة برقية دافعوا فيها عن القصيمي والكتاب، إضافة إلى ذلك يذكر أن داعية التحديث (مصطفى عبد الرازق) المتوفي عام ١٩٤٧) دافع قبيل وفاته عن القصيمي ضد مهاجميه.

وسافر وفد من لجنة "مكافحة هدى هي الأغلal" إلى السعودية لتحريض الملك عبد العزيز عليه، ودعا أكبر شيخ في السعودية الشيخ محمد بن إبراهيم إلى غسل العار الذي ألحقه القصيمي بالإسلام وأصدر فتوى بإهدار دمه.

هذه المعارضات - كما يحدث دائماً - توجد أثراً عكسياً إذ هي تقوى عزيمة الكاتب على أن يمضى قدماً، وكان القصيمي قد انتقل من حي القلعة إلى حلوان.

وفي صيف ١٩٥٤ طلب منه خطياً الحضور إلى مركز الشرطة المحلية في حلوان، وعند وصوله إلى هناك أبلغ بأنه موقوف وأن عليه مغادرة مصر على الفور، فأختار الذهاب إلى بيروت.

طرد القصيمي من مصر كما طرد جمال الدين الأفغاني من قبله، وعندما وصل إلى بيروت تذكر شخصاً يعرفه كان يعمل بالسفارة السعودية وأمكن الاتصال به وأواه الرجل ثم عرفه بعد ذلك على أدباء بيروت الذين احتفوا بمؤلف "هدى هي الأغلal" وبوجه خاص سهيل إدريس صاحب مجلة الآداب وقصري قلعجي صاحب مجلة الحرية.

رب ضارة نافعة، لقد انتقل القصيمي إلى مجتمع مفتوح فبدأ يكتب في (الآداب) و (الحرية) مما جعل السلطات السعودية تطلب إلى السلطات المصرية إلغاء أمر عدم عودته ليعود فيكون تحت مظلة الرقابة المصرية، وقبلت مصر، وألغت أمر عدم العودة وكتب لفيف من المثقفين اللبنانيين خطاباً إلى الدكتور طه حسين يعربون عن أملهم في أن يفتح المجال أمام القصيمي لمواصلة كتاباته الحرة.

أدى هذا الحادث إلى إثارة اسم القصيمي، ثم جاءت أحداث ١٩٦٧ التي أدت إلى انحسار الناصرية وخيالاتها وعودة الدعوات الدينية فنشط القصيمي وكتب العديد من المقالات عن الفكر الديني، ومرة أخرى يهاجم القصيمي بسخرية لأدعة التصورات الشائعة عن الوحي ويتهم المؤمنين بأنهم يستعملون تعبيراً لا معنى له من مملكة السماء لكي يبرروا غرائزهم الدينية، ويتساءل عن مصدر النبوءات والوحي وعن علاقتها بالمجتمعات التي تحل فيها.

وانتهى به الأمر إلى أن يرى في الله المتهم الكبير، فالمؤمنون يرون ما في المجتمع البشري من نقص وعجز وظلم، وهم يرفضون تحميل أنفسهم مسئولية ما يفترونه من ذنوب ويصبح من الضروري البحث عن كبش فداء، ولهذا الأمر فإن هذا الإيمان هو "وسيلة فاضحة ولئيمة وغير صادقة للبحث عن متهم لا يعرف شيئاً عن تهمته ولا عن محاكمته ولهذا فهم يؤمنون بإله هائل كبير لا نموذج له يجعلونه المتهم الأول الشامل وهو المسنول الأول عما يواجهون من أخطاء وما يعانون من آلام.

ويستطرد....

... إله لا يموت... هل يوجد أفزع من هذا؟ هل يوجد أتقى من موت الإله، هل يوجد موت مثل موت الإله؟

... يسمع ويرى ويمارس كل الهموم والدموع والآهات والعاهات والتضرعات والصلوات دون أن يحزن أو يبكي أو يستجيب أو ينتحر حياء أو رحمة أو حباً أو شهامة أو عدلاً، تسقط في عينيه كل الآلام والتشوهات دون أن تطرف عيناه، هل توجد عينان مثل عينيه؟

في هذه الفقرات نرى القصيمي وقد أصيب بنوع من الهلوسة والذهيان الذي لا يقوم على المنطق وإنما يقدم تخيلات وتهويمات.

لقد لاحظ كثير من الكتاب شيئاً ما بين نيتشه والقصيمي في الأسلوب الرمزي الانفعالي المتقحم وكلماته المتقدمة لقد تصدى لقضية الألوهية من منطلق الحيرة والشك، فجاء كلامه متناقضاً أشبه بالسفسطة، فقضية الألوهية لا حل لها إلا الإيمان.. أو التفويض - كما يقولون، وهو نوع من العجز والعجز في قضية الألوهية هو الإقرار بالحقيقة.

لقد كتب القصيمي كتاباً رائعة في نقد المجتمع العربي ونظمه وحكمه مثل كتاب "العرب ظاهرة صوتية" ومثل مقالاته عن العرب والثورة وهارون الرشيد الجديد، وتعليقاته على إسرائيل وعلى النفط كانت جادة، ساخرة، كأنها سكاكين أو خناجر تطعن قلب الموضوع ولو ترك نطحه للإله وخلقه للإله على ذوقه، لكان من الممكن أن يكون من عداد المصلحين.

إن تحول القصيمي من أصولي إلى ملحد يجعلنا نفهم حكمة الدعاء النبوي "يا مقلب القلوب.. ثبت قلبي على دينك".

* * *

قرأت كتاب "أثرت الحرية" لـ "فيكتور كرافنشكو" الذي ترجمه زكي نجيب محمود في معتقل الطور عام ١٩٤٩، وهو في أكثر من ٧٣٠ صفحة كبيرة فشغلني وأساني كآبه المعتقل وجعلني أعيش معه في روسيا في فترة من أشد فترات حرجاً وأعتقد أن قراءة مثل هذا الكتاب ضرورية لكل من يتصدى للكتابة عن الاتحاد السوفيتي لأنه يدع الحقائق والوقائع تتكلم، ولا يدخل أبداً في متاهات التفكير النظري والمذهبي.

والكتاب كبير، وتلخيصه عسير لذلك لجأت إلى تقسيمه إلى ثلاثة أقسام رئيسية: القسم الأول من ولادة المؤلف ١٩٠٥ حتى تخرجه في أحد معاهد التدريب كمهندس والقسم الثاني حياته كمهندس في خراطة الأنابيب وتعرضه لمحنة التطهير الكبرى التي غطت الاتحاد السوفيتي طوال الثلاثينات، والقسم الثالث في ترقيته السريعة بعد أن نجا فيما يشبه المعجزة من قبضة التطهير والتحايق وتعيينه في مكاتب الكرملين كأحد

كبار الفنيين والتنفيذيين في الصناعات المعدنية، ثم إيفاده في لجنة المشتريات إلى الولايات المتحدة، حيث قرر الانسحاب والاختفاء ونجا من الوقوع في شبكة الملاحقات التي بذلتها أجهزة المخابرات السوفيتية للقبض عليه حتى قرر أن يكتب هذا الكتاب ليطلع العالم على حقيقة ما كان يدور في الاتحاد السوفيتي من فظائع باسم الاشتراكية.

القسم الأول يصور لنا عالم روسيا عندما احتفظت بتلك المجموعات التي ثارت على القيصر، ونظمت المظاهرات التي كان أبرزها مظاهرة ١٩٠٥ ثم استمرت قبل أن يهيمن الحزب الشيوعي في عهد ستالين ويقضى قضاء مبرماً على هذه النخب التي كانت تتسم بالثقافة والمعرفة، والشجاعة والإيمان بالحرية والعمل في سبيل العدالة بعيداً عن الشنونة النظرية والتبعية للحزب، ورغم كل سوءات الحزب في هذه المرحلة، فإنه استطاع أن يوجد روحاً جديدة وأن ينهض بروسيا من ظلمات الجهالة وفجاجة الريف إلى نور المعرفة وانفتاح المدنية وبفضل ذلك استطاع فيكتور كرافشكو - ومجموعة كبيرة أخرى - أن يصعد من مستوى العامل إلى مستوى المهندسين وذلك عبر التدريب المهني المفتوح، وكان الجميع سواء النخبة القديمة التي عزفت عن الحزب ونظمه، أو التي انخرطت فيه يعمل بكل قوة للنهضة ببلادها، وقبلت النخبة رأسه الحزب وقيادة لينين للنهضة بالبلاد.

القسم الثاني من الكتاب يعرض لنا المناصب المختلفة التي تقلدها كرافشكو كمدير للمصانع المختلفة وكيفية إدارة هذه المصانع، على أن أروع - وأشنع ما تضمنه الفصل هو الوصف التفصيلي لعاصفة التطهير التي أودت بثلاثي المديرين وأصبح هؤلاء من المقتولين أو المسجونين الذين سخروا فيما بعد بالقيام بأشق الأعمال، أو عينوا في وظائف دنيا وهو يصف أساليب التحقيق التي كانت تبدأ من منتصف الليل وتستمر حتى الصباح ثم جلسات الاعتراف أمام المحاكم الشعبية التي يمكن أن تنتهي بعزله من الحزب، الأمر الذي يكون بمثابة إهدار دمه، وكان على كل من يمثل أمامها أن يفضي بكل ما يذكره من طفولته حتى لحظة وقوفه أمام اللجنة فإذا كان أبوه تاجراً صغيراً أو مالكا لقطعة أرض، فإن غمامة كثيفة تظلل براءته، وإذا كان يعرف أحد الذين حوكموا وعزلوا، فتلك شبهة لا يمكن تبريرها إلا بأنها مشاركة وكل خطأ مهني يقع لسوء المواد الأولية أو ظروف يؤول بأنه تخريب متعمد وما إن يعزل من الحزب حتى يعزل من المنصب وحتى يطرد من مسكنه ثم يقضى عليه في النهاية ليودع بالسجن.

نجا كرافشكو بفضل ظروف استثنائية كان منها تعرفه بأحد أعضاء اللجنة المركزية وهو الذي دفع به إلى معهد التدريب لأن الثورة تحتاج إلى فنيين كما تحتاج إلى ثوريين، فضلاً عن عدد آخر من الملابسات ولم يكن هذا سهلاً، فقد أخذ نصيبه منها ولكنه برئ في النهاية.

والانطباع الذي يخرج به القارئ لهذا القسم هو أن سلطة المخابرات التي أسسها لينين نفسه وأطلق عليها "درع الثورة" هي السلطة العليا التي يخشاها الجميع بما فيهم الوزراء ومن هم أكبر منهم، وأن أفرادها مجموعة لا تعرف الرحمة أو الأدب وأن أساليبهم واحدة في العالم كله وبخاصة الاستجابات المسائية التي تستمر طوال الليل والتفتيش الهمجي الذي لا يتأثر بأمهات أو زوجات أو أبناء وأنهم يتمتعون بحماية الحاكم الأعلى.

والقسم الثالث يعرض الحياة في الكرملين حيث صفوة الصفوة والقمة الضيقة المحددة - للهرم الاجتماعي - وكان عليه أن يتعامل مع أعضاء اللجنة المركزية، وكان أسلوب ستالين في العمل غريباً فهو

يحضر من العاشرة صباحاً حتى الخامسة ثم يحضر من التاسعة ليلاً حتى الفجر، وكان عليهم جميعاً أن يتبعوا هذا النظام، بل وأن يكونوا قبله، وبعده، ومع أنهم كان لهم مزايا عديدة فيما يمنحون من أجور ويشغلون من بيوت ويخصص لهم سيارات.. الخ، فإنهم في الحقيقة كانوا يعملون بحيث كانت أمنية الواحد منهم أن ينام ولو يوماً واحداً خمس ساعات.

ووصف كرافشونكو بعض هذه الاجتماعات التي تستمر حتى الخامسة صباحاً ويخرج كل واحد وهو محمل بأوامر مليون من المجارف، مائة ألف لفة من الأسلاك التليفونية للميدان الخ وفي أحد هذه الاجتماعات وضع كرافشونكو ميزانية مصنع جاء في أحد بنودها (٥٠٠) جرام من الخبز يومياً للعامل ولكل فرد من أفراد أسرته، فصاح فيه الوزير ما هذا فأخبره كرافشونكو بالمجاعة المتفشية فقال له أمراً اشطب هذا البند هل أنت مصلح اجتماعي أم بلشفي إن العواطف الإنسانية مبادئ خاطئة وفي المرحلة الأخيرة من الحرب أعيدت العلاقات التي تعين الرتب العسكرية من عسكري إلى مشير، وكان قد قضى عليها طوال العهد البلشفي لأنها اعتبرت من آثار الدولة البرجوازية كما أعيد إلى الدين اعتباره لكسب "العناصر الرجعية" سواء في روسيا نفسها أو في الدول الأخرى.

في النهاية احتاجت السلطات إلى إرسال خبراء إلى الولايات المتحدة للاتفاق على ما يقدم للاتحاد السوفيتي بمقتضى قانون الإعارة والتأجير في الصناعات المعدنية، وكان عليه قبل أن يتم هذا أن يمر بسلسلة طويلة اشترك فيها قرابة عشرين جهة وزارية وحكومية وحزبية، وكانت كل جهة تدرس تاريخه منذ أن انضم إلى الحزب وتراجع تقارير لجان الحزب عنه، والاتهامات التي وجهتها إليه الشرطة العسكرية أيام التطهير وظهرت براءته وكان عليه أن يمر على هذه الأجهزة واحداً واحداً، وفي كل مرة يقف أمام الباب الخارجي لتدرس أوراقه بكل دقة ثم يسمح له بالدخول ليجد نفسه في دهليز طويل يقف في نهايته ثلاثة من الرجال يعيدون فحص أوراقه كأنها لم تفحص وتسمح له بالدخول إلى الأبهاء التي تؤدي إلى غرفة الرئيس ليجد ثلاثة آخرين أشد حرصاً وحرصاً يعيدون فحص الأوراق وأخيراً يسمح له بالدخول ليجلس أمام المسئول الكبير تحت الصورة الزيتية الكبيرة لستالين وصور أقل حجماً لأعضاء اللجنة المركزية، وكل رئيس من هؤلاء يسأل الأسئلة المعتادة وعن آرائه في الحزب والاشتراكية والصناعة وما إذا كان إيمانه قد تززع يوماً بسبب التطهير.. الخ، وكان كرافشونكو من وقت طويل قد درب نفسه تماماً، وحفظ عن ظهر قلب الردود التي يفترض أن يرد بها البلشفي المؤمن وفي النهاية وبعد تحذيرات من الأوغاد الرأسماليين الذين سيعمدون إلى غشه أو التأثير عليه، والتحذير من النساء الأمريكيات ومما يظهر به المجتمع الأمريكي من بريق وترفع.. الخ.

رغم كل هذه التحذيرات فقد بهر كرافشونكو بما رأى ودهش لكثرة السلع المعروضة، ولأدب البائعين وأنهم يشكرونه على ما أخذ منهم وكانت الأحذية والملابس هي الأمنيات التي طالما حلموا بها وسأل كرافشونكو أحد العمال - هل يسوءك أن أسأل عما تتقاضاه فقال الرجال "بالتأكيد لا"، ولكن هذا يتوقف على ما أحصل عليه من عمولة ويمكن القول إنني أحصل على ٥٠٠ دولاراً شهرياً، وحسب كرافشونكو في نفسه ووجد أنه بهذا المبلغ يستطيع أن يشتري ثلاثين زوجاً من الأحذية، في حين أن العامل في الاتحاد السوفيتي يكون عليه أن يدفع مرتب بضعة شهور ليحصل على حذاء.

وبعد أن تبخرت صدمة الانبهار بدا كرافشونكو يعد العدة للفرار وكان منذ أن عذب في التطهير وشاهد الصور المروعة للاستغلال وللجهنم.. الخ، عاهد نفسه أن يطلع العالم على ما يجري في الاتحاد السوفيتي، كان

على كرافشونكو أن يضع خطة دقيقة جداً حتى لا يمكن اقتفاء أثره، فكان دائم الانتقال من مدينة إلى أخرى ومن فندق إلى فندق، ومن مسكن إلى مسكن بأسماء مستعارة واستضافه أصدقاء أمريكيون وحموه حتى كتب كتابه.

وعندما نشر كتابه، بعد أن اطمأن إلى أنه تحرر من قبضة يد الإرهاب السوفيتي قالت الأجهزة السوفيتية إنه خائن وأن الـ C.I.A هي التي كتبت الكتاب وأنه نسيج من الأكاذيب.. ولكن الحقيقة لا بد أن تظهر في النهاية، فلا يمكن لـ C.I.A ولا لغيرها أن تضع كتاباً حافلاً بالتفاصيل الدقيقة عن الأشخاص والأماكن والوقائع، ومن المحتمل أنها ساعدته لنشر الكتاب أو حتى إنها قامت بنشره، وما ترجمته إلى العربية إلا دليل على ذلك ولكن هذا لا ينفي صدق ما جاء به، ولا القصد الطيب الذي أراده كرافشونكو من إعلان الحقيقة وظهر أن كل ما قاله صحيح عندما أعلن خروشوف ثورة على الستالينية وكشف في المؤتمر الشيوعي العشرين عن وصية لينين التي كتبتها ستالين أكثر من ثلاثين عاماً وكانت توصي بإبعاد الرفيق ستالين عن سكرتارية اللجنة المركزية.

* * *

الأستاذ الكبير زكي نجيب محمود مفكر من أعمق مفكرينا وأكثرهم دأبا وإخلاصاً:

وإذا كان لدينا فيلسوف، فلعله هو، وقد بدأ حياته كما يبدأ أبناء الطبقة الوسطى المصرية، فقد تعلم في المدارس المصرية، كما تعلم في الجامعات الأوروبية، وعاد منها مؤمناً بالوضعية المنطقية التي أرسى أسسها الفيلسوف الفرنسي أوجست كونت، واعتبر داعيتها الأولى في العالم العربي، ولم يكن من شأن داعية هذه الفلسفة أن يكون إسلامياً، ولعله لم يكن كذلك في أول كتبه عن "خرافة الميتافيزيقية"، ولكنه مع نضج العمر وتطور الأحوال بدأ مرحلة من التحول عبر عنها هو نفسه في مقدمة كتابه تجديد الفكر العربي (يونيو ١٩٧١).

"استيقظ صاحبنا - كاتب هذه الصفحات - بعد أن فات أوانه أو أوشك، فإذا هو يحس الحيرة تورقه، فطفق في بضعة الأعوام الأخيرة، التي قد لا تزيد على السبعة أو الثمانية، يزدرد تراث آبائه ازدراد العجلان، كأنه سائح مر بمدينة باريس، وليس بين يديه إلا يومان، ولا بد له خلالها أن يريح ضميره بزيارة اللوفر، فراح يعدو من غرفة إلى غرفة يلقي بالنظرات العجلى هنا وهناك، ليكتمل له شيء من الزاد قبل الرحيل، هكذا أخذ صاحبنا - وما يزال - يعب صحائف التراث عباً سريعاً، والسؤال ملء سمعه وبصره: كيف السبيل إلى ثقافة موحدة متسقة يعيشها مثقف حي في عصرنا هذا، بحيث يندمج فيها المنقول والأصيل في نظرة واحدة" ؟

في مقدمة كتابه "رؤية إسلامية" يتساءل المؤلف "ماذا أصاب العالم الإسلامي فتخلف حتى أصبح في مؤخرة الركب الحضاري في عقدنا هذا؟ ليرد على هذا أصدر كتابه وقسمه أربعة أقسام ففي القسم الأول رأى أن من الضروري أن يتسع معني العبادة حتى تشمل بكل جدية واهتمام محاولات الكشف العلمي عن أسرار الكون وتحويل هذه المعرفة إلى مجالات التطبيق وهو فيما يرى الدلالة الحقيقية لكلمة "اقرأ" وفي القسم الثاني يتلمس مواضع القوة في حياتنا الفكرية كما هي الآن، وهي مواضع تحتاج إلى تقوية وتنمية، وهو يرى أن الدعوة إلى العودة إلى الماضي دعوة سلبية تجد صورتها الإيجابية في العقيدة الإسلامية، وتلمس دور الحرية والإرادة، ويرى أن العالم الإسلامي تنقصه تلك الإرادة التي عبر عنها الشاب:

إذا الشعب يوماً أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر

وما عبرت عنه الآية "إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ".

وميزة الكتاب أن المؤلف بحكم ثقافته الواسعة، والعميقة يقدم لنا مفاهيم لمقولات إسلامية لا يدركها معظم الناس ففي الآية "وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ"، لا يستقيم أن يكون معنى العبادة أداء الشعائر لأنها موقوتة بوقتها ففيها صلوات خمس، ولكن ماذا ما بين هذه الصلوات الخمس؟ وفيها صيام شهر، ولكن ماذا في بقية الشهور؟ المؤلف يرى أن هذه العبادة هي اجتهاد في سبيل المعرفة الإنسان لربه عن طريق معرفته لمخلوقات ربه، هنا نستطيع أن نتصور صورة من الدأب الذي لا يفتر ويستمر طوال الحياة.

وهو يسجل في الفصل الأول تحت عنوان "أنا المسجد والساجد"، ما سمعه مرة في حديقة ريجنت بلندن من اثنين من الهنود عندما سأل أحدهما صاحبه "أذهب أنت إلى المسجد فقال الآخر - يا صديقي أنا المسجد، وأنا الساجد معاً"، وفسر هذا التعبير أن الرجل أراد أن يقول إنه يعبد الله حيثما كان وأني كان إنه وهو يدخل المسجد "المبني" يجعل من ذاته مسجداً داخل المسجد، بمعنى أنه يجعل وجوده يستغرق في عبادته وهو يفهم من "اقرأ باسم ربك الذي خلق"، دعوة لقراءة الكون والتعرف عليه، وهو يعجب بتفسير الغزالي للآية "اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ"، عندما يفسر النور بمعنى الإدراك والإدراك عقل، والإدراك المثبوث في أركان الكون يكون على صور مختلفة كصورة المصباح في المشكاة، وصورة المصباح في زجاجة، وصورة الكوكب الدري.. الخ، ويعود مرة أخرى إلى "وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ"، ليفهم منها أن العقل الذي يميز به الإنسان وبالإضافة إلى الوجدان يجعلانه يدرك الربوبية دون سائر المخلوقات، ومن ثم فإنه هو الذي يعبد الله، وهو يرى أن في الآية "يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ"، ما يبلغ أن يكون قانوناً عاماً وشاملاً لسير الحياة في عالم الأحياء جميعاً وهو يُخَطِّئُ تفسيراً شائعاً لأن ميت بالياء المشددة تختلف عن كلمة "ميت" بالياء الساكنة وليس معنى الآية أنه يخرج الحي من الميت بالفعل، ولكن معناه أنه صائر إلى الموت، أي أن المشار إليه بالياء المشددة حي، أما ميت ذات الياء الساكنة فهي تشير إلى من مات فعلاً كما في الآية "أَيُّحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرَهُهُمُوهُ"، وكما في الآية "حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ"، ومعنى الآية أن حياً يخرج من حي مصيره الموت، كما خرج هذا الحي الذي هو صائر إلى الموت من حي قبله، أي أن الله يخرج الأحياء في تسلسل يمتد إلى ما يشاء الله.

قد لا يجيب الكتاب عن السؤال الذي طرحه في المقدمة لماذا تأخر العالم الإسلامي - إجابة شافية مفصلة، كما أنه لا يرسم لنا خطة لإنقاذ هذا العالم، ولكن أهميته تتركز في أن اهتمام فيلسوف الوضعية المنطقية يثبت بلا جدال الأهمية القصوى للإسلام في هذه البلاد ثم هو ثانياً يقدم رؤية جديدة لمضامين قديمة - تتميز هذه الرؤية بالجدة والأصالة والتوصيل إلى ما كان مجهولاً منها^(*).

(*) نشر بجريدة القاهرة، العدد (٢٦٢)، في ١٩/٤/٢٠٠٥م.

الموت في سبيل الله أم الحياة في سبيل الله؟

"الموت في سبيل الله أسمى أمانينا" هو ختام الشعار الإخواني المعروف "الله غايتنا، والرسول زعيمنا، والقرآن دستورنا... إلخ".

وتبدو هذه الفقرة الأخيرة في الشعار الإخواني كما لو كانت تكليلاً له، وتحمياً بالتزام يفوق أي التزام آخر وقد آمن به الإخوان إيماناً حقيقياً وقدموا الدليل على ذلك في حرب فلسطين وفي مناوشات القتال سنة ١٩٥١م، فقد أظهروا أنهم فعلاً يدخلون هذه المعارك لنيل إحدى الحسينيين النصر أو الشهادة وأسماء شهدائهم معروفة تغني عن الدليل.

والحقيقة أن هذا الشعار لا يقتصر على الإخوان المسلمين وحدهم ولكن ينتظم معظم الجماعات الإسلامية الجادة وقد استخدم في الأيام الأخيرة استخداماً بارزاً في العمليات الاستشهادية التي تقوم بها حماس والجهاد في فلسطين وتجلى أعظم ما تجلى في أحداث ١١ سبتمبر، فالذين قادوا الطائرات واشتركوا في العملية كانوا يعلمون حق العلم أنهم سيموتون ميتة لم تسبق، بل أكثر من هذا أننا عندما نراجع حركات التحرير التي قاومت الاستعمار وكسبت للأقطار الإسلامية استقلالها نجد أنها جميعاً انطلقت تحت لواء الجهاد وبفضل الإيمان بهذا الشعار حتى وإن لم تسجل على رايتهما فبفضل جهاد "المهدي" استقلت السودان وظهرت للمرة الأولى كدولة مستقلة متحررة من الحكم البريطاني الذي كان يتقنع بالحكم المصري ويتستر وراءه، وبفضل بطولة عمر المختار جاهدت ليبيا حتى النفس الأخير وأخرت الاحتلال الإيطالي سنين عديدة، وانتصر القائد المغربي عبد الكريم الخطابي على الجيوش الأسبانية كما قاوم السيد عبد القادر الحسيني الجزائري الجيوش الفرنسية التي غزت الجزائر.

وفي مصر فإن مقاومة نابليون وكليب تمت بقيادة شيوخ الأزهر تحت "البيرق النبوي" الذي أخرجه السيد عمر مكرم، ويمكن أيضاً أن نضيف جهاد الدول الأفريقية التي كان شيوخ الطرق الصوفية هم قادة حركة التحرير وليست كلمة "سيكتوري" إلا ترجمة ركيكة لشيخ الطريقة، هذه وقائع تاريخية ثابتة لا يمكن الشك فيها وتواردها يبعدها عن أن تكون حالات قدر ما يعطيها طابع "الظاهرة" المؤكدة، ولا جدال أن هذه كلها حسنات تذكر للشعار وتجعله جديراً بالإعزاز والاحترام.

ومع هذا فإن تحليل هذا الشعار يكشف عن بعض نواحي القصور فيه كما تكشف عن سر التلاقي ما بينه وبين الهيئات الإسلامية.

فالموت في سبيل الله رغم كل فدائيته وبطولته وما يعنيه من إخلاص عمل سلبي الطبيعة، وهو بهذا يقل عن العمل الإيجابي لأن الإيجابي يملى على صاحبه التعامل مع المتغيرات وأن يسلك لكل موقف طريقة ويتعامل مع كل جديد بما يحقق الفعالية والنجاح ولكن العمل السلبي لا يحقق هذا وقد توجد عوامل تعدل أو تفضل شجاعة الاستشهاد، فالإيجاب يمكن أن يبدع أسلحة لا تجدي أمامها الشجاعة شيئاً فاختراع البنادق والمدفع

يقضى تقريباً على شجاعة السيف والرمح وعندما جوبه المصريون بقنابل نابليون صاحوا "يا خفي الألفاف نجنا مما نخاف" وهى الكلمة التي قالها تقريباً لويس التاسع عندما جاء القاهرة قبل نابليون بخمسمائة سنة عندما استخدم المصريون النار الإغريقية فقال "أيها الإله الرحيم أنقذ شعبك من هذا البلاء المستطير" ولعل هذه الطبيعة السلبية هي التي جمعت ما بين "الموت في سبيل الله" وبين غالبية الهيئات الإسلامية المعاصرة فهذه الهيئات ترفض ثقافة و حضارة العصر، وهى تريد العودة إلى العهد الذهبي الإسلامي القديم والانسحاب من الحياة المعاصرة وهذه الرغبة المستكنة لا تعود إلى إيمانها فحسب قدر ما تعود إلى جهلها بحياة العصر ولو أنها أحكمت ثقافة العصر لكان من الممكن أن تتعايش معه وأن تبدع طريقاً إسلامياً للتعايش ولجعلت شعارها في هذه الحالة "الحياة في سبيل الله أسمى أمانينا".

إن رفض ثقافة العصر لم يدع للهيئات الإسلامية بديلاً لأنه استبعد "الحياة" ولم يعد أمامها إلا الموت ومع أن الجود بالنفس أعلى صور الجود، إلا أنه أهون من مجابهة مشكلات الحياة والتعامل معها والتغلب عليها وما يتطلبه ذلك من حكمة وكياسة وإعمال للذهن للانتهاء إلى المواقف السليمة والحلول الناجمة.. إلى آخر ما يكون على الإنسان المسلم في العصر الحديث القيام به، إن أسهل من هذا وأكثر في الوقت نفسه أن يظفر بالجنة والشهادة إن الصحابي القديم وجد أن تمرات يأكلها هي التي تعطله عن أن يظفر بالجنة فرماها ودخل المعركة وظفر بالشهادة.

في التحليل الأخير نجد أن الشعار الأمثل هو "الحياة في سبيل الله" وهذا هو ما يتفق مع التوجيه القرآني "وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل" فهذا هو ما تفرضه الحياة في سبيل الله وهو ما يحقق في النهاية ما يريده الدعاة الإسلاميون وما توجهه طبائع الأشياء فليس من الممكن ولا هو من المطلوب أن نموت جميعاً في سبيل الله ولكن الممكن والمطلوب أن نحيا في سبيل الله وأن نأخذ بأسباب القوة والمنعة وأن نتعرف على أسرار العصر الذي نعيش فيه والذي تجابهنا تحدياته ويمكننا والحمد لله أن نتوصل إلى ذلك ويمكن للإسلام أن يكون هو الحل إذا فهمنا أن الإسلام هو "الكتاب والحكمة" "والكتاب والميزان" وليس هو تراث الفقهاء وما أصدروا من أحكام وما وضعوه من معايير انتهى عمرها وأصبح مكانها المتاحف(*) .

(*) نشر بجريد القاهرة بتاريخ الأول من يناير ٢٠٠٢ م، العدد (٩٠).

ندعو الله ألا تنهار الحضارة الأمريكية

لأنها رائعة رغم كل لوثاتها

تعليق على بيان المثقفين الأمريكيين^(١)

قرأت بتقدير كبير البيان الذي أصدره في فبراير الماضي ستون من المثقفين الأمريكيين الذين أهمهم وهالهم التوتر الذي يسود العالم والغموض الذي يحيط به، وظهور الشر بالتعبير الذي صاغته السياسة الأمريكية (الإرهاب)، كما قرأت قبل هذا بإعجاب وتقدير أكبر بيانات من أكاديميين أوروبيين أفرعهم ما يمارسه شارون من استخدام للقوة والقسوة، وكل ما يذل النفس الإنسانية وينتهك كرامتها حماية لما يظن أنه أمن إسرائيل، وأن هؤلاء الأكاديميين يناقشون مقاطعة الجامعات الإسرائيلية التي تعد إلى حد كبير شريكة في سياسات دولتها.. وأخيراً فإني تابعت بكل تقدير جهود العشرات من الأوروبيين والأمريكيين الذين جاءوا إلى فلسطين ليشاركوا شعبها في محنته، إن هؤلاء جميعاً هم الوجه المشرق للحضارة الأوربية.

القيم بين الشارية والتطبيق:

عنى بيان المثقفين الأمريكيين أولاً بتوضيح القيم التي يؤمن بها المجتمع الأمريكي وهي - بلا جدال - قيم رفيعة ونبيلة، على أننا لا نبيح لأنفسنا مناقشتها، لأننا نؤمن أن من حق كل شعب أن يكون له قيمه التي يؤمن بها، بل ويرى أنها أفضل القيم، لأنه لو لم يرها كذلك لما آمن بها.

ولكن النقطة التي نثيرها هنا، هي أن كل المجتمعات تصطنع قيماً نبيلة، ولكنها عملياً، قلما تطبقها، بل إنها في حالات عديدة تقوم بممارسات مناقضة لهذه القيم، وهي ظاهرة تاريخية / اجتماعية تنطبق على كل المجتمعات بما فيها المجتمع الأمريكي والمجتمع الإسلامي، وهي واقعة تثير الشك في أهمية "القيم" في عالم التطبيق ومدى هيمنة هذه القيم على ضمائر الشعوب وبوجه خاص قياداتها.

عرّفنا فرويد على عالم اللاشعور الذي يموج بالرغبات والنزعات الذاتية والأنانية والجنسية ويقف على بابه رقيب عتيد يحول دون البوح بها ولكنه لا يقدر على منعها، وفي كثير من الحالات يغلب على أمره، فتنتلق هذه النزعات الجامحة لأنها ليست إلا تجسيدا للغرائز التي هي أقوى وأصل ما في الإنسان وأقوى هذه الغرائز، فيما رأى فرويد، هي الغريزة الجنسية، ولو قال غريزة الحياة العضوية والجسدية المرتبطة بالبقاء لما جاوز الحقيقة، ولما تعرض لما تعرض له من نقد.

(١) في أعقاب أحداث ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١ نشر عدد من الأكاديميين والأحرار بياناً وجهوه إلى الهيئات الإسلامية ، وهذا المقال هو رد عليه.

في تاريخ الشعوب أيضاً "لا شعور" يجعلها تقتحم ضميرها، المتمثل في القيم، فتقوم بممارسات جامعة من منطلق ذاتيتها الجمعية التي تماثل الذاتية الجنسية في الفرد، ويحدث أن تكون الشعوب أقدر من الأفراد على هذا الاختراق لأنها تظن أن لا مقاومة وأنها إذا صحت حساباتها، فإن الانتصار سيمحو الآثار السيئة لها، كما لن يوجد من يحاسبها، وقد وجدت في السياسي الإيطالي مكيافيلي ما يبرر الوسيلة لتحقيق الغاية وفي الكاتب العسكري الألماني كلاوزفيتز من يرى أن السياسة والحرب وجهان لعمله واحدة، وأن الحرب هي مواصلة السياسة بطريقة أخرى.

ولكن الحقيقة غير ذلك...

فكما يقول الإسلام "الدِّين لا يبلي" وكما يقول علماء الطبيعة "المادة لا تفني" إن كل عمل لابد وأن يخلف أثراً يتفاعل مع قوى المجتمع، وإن الشعب عندما يجاوز مرة الحدود وينتهك المبادئ، فإن هذا خاصة إذا لم يحاسب عليه سيدفعه لتكرار هذا العمل وشيئاً فشيئاً ستتقهقر القيم ويخفت صوتها، وتتنصر القوة، ويلمع سيفها، ولا بد عندئذ من اختلال الموازين.

وفي التصوف الإسلامي - الذي هو إلى حد ما جزء من الدراسة السيكولوجية - حديث طويل عن تغير وتحول القلوب عند استمرارها في أداء السيئات، إذ تصل إلى درجة يصبح المنكر معروفاً، والمعروف منكراً أو بتعبيرنا الحديثة الحسن سيئاً والسيئ حسناً.

وقد لاحظ المثقفون الإسلاميون، بكل وضوح اختلال معايير السياسة الأمريكية، وأنها تكيل بكيلين، وأن أحكامها التي تدعي أنها العدل - هي للآخرين ظلم فادح، فهل هو تخبط من الإدارة الأمريكية، أو أن له جذوره في "لا شعور" المجتمع الأمريكي بحيث تجد هذه السياسة المزدوجة استحساناً أو قبولاً..؟

أخشى ما نخشاه أن يكون الاحتمال الثاني لأن التحيز لم يقتصر على إدارة بوش، بل وجد مع إدارة ترومان وجونسون ونيكسون وحتى كلينتون.

وفي "لا شعور" التاريخ الأمريكي وصمتان بالغتا الكثافة ولا يمكن بأي حال تبريرهما لأنهما جلبتا الشقاء والدمار على الملايين، هما: إبادة السكان الأصليين لأمريكا وقد كانوا شعباً وديعاً يمكن كسبه لو سعى الآباء المهاجرون لذلك، خاصة وأن أمريكا قارة واسعة لم تكن لتضيق بهما معاً، إنهم لو فعلوا هذا لما تورطت أمريكا في الوصمة الثانية، ألا وهي استعباد الأفريقيين واغتصاب قرابة ثمانين مليون أفريقي من أرضهم وجعلهم أرقاء وعبداً لها يكدحون في زراعات القطن والسكر والدخان.

إنه من الخطأ الظن أن أثر هاتين الوصمتين قد طواه النسيان أو قد سوى، إن هذا لا يمكن أن يحدث، إن فعلاً بهذا الحجم يصل إلى حد إبادة شعبيين لا يمكن أن ينسى، ولعل عدم تسويته، وبقائه في اللاشعور الأمريكي هو الذي سمح بأن ترتكب أمريكا الحديثة وصمات مثل إلقاء قنبلتي هيروشيما وناجازاكي ومثل ما حدث في فيتنام.

كاننا ما كانت حسابات الكسب والخسارة، والوقت والزمن والضرورات فإن هذه الأعمال انتهاكات جسمية وبشعة لحقوق الملايين، ويجب وجوباً أن تتطهر أمريكا من آثارها مهما كلفها هذا، لأن سلامة الضمير، وراحة النفس وطهارة اليد أفضل من أي شيء آخر، إن أي شيء تقدمه أمريكا لبقايا سكان أمريكا الأصليين، أو للشعوب الأفريقية يهون ويعد ضئيلاً أمام ما أنزلته بهم.

وبالطبع فليس الشعب الأمريكي في حاجة لأن يجرى جلسات تحليل نفسي على الطريقة الفرويدية ليخلص من هذه الوصمة، إن اعتراف حكومته بمسئوليتها، وقيامها بإجراء عملي يثبت صدق نيتها واعتذارها

سيخلص المجتمع الأمريكي، وسيجعل الشعوب التي وقع عليها الظلم تسامح المجتمع الأمريكي وتغفر له ما قد سلف.

وما لم يتم هذا فسيجوز التساؤل ألا يعود تعاطف الولايات المتحدة مع إسرائيل إلى عقدة في لا شعورها تجعلها ترى في الشعب الإسرائيلي شبيهاً، فهو شعب من المهاجرين الذين استوطنوا أرضاً لم يطئوها من قبل وطردها أهلها منها؟

إن الحقيقة مرة، والاعتراف بها وتحمل مسئوليتها تتطلب شجاعة كبرى أولى الناس بها هم المثقفون ولا فائدة من المغالطة والمحاكمة فوقان التاريخ ثابتة، ولا جدوى من القول أن هذا الجيل لم يقترف تلك المنكرات، إنه لم يقترفها ولكنه جنى ثمرتها كاملة وجزء كبير من الحاضر الأمريكي قام على أساس الماضي الأمريكي، والأفضل والأفضل أن تكون لدينا الشجاعة للاعتراف، فهذا لا يقلل من قدرنا، بل يزيده، وما سنضحي به في هذا السبيل سيثمر أضعافاً مضاعفة، وسيعمل على تواصل الشعوب، وعلى تأكيد الثقة والمصادقية.

- ٢ -

الله الذي لا تعرفه الحضارة الغربية:

تحدث بيان المثقفين الأمريكيين باعتزاز وفخر عن الإنسان الذي خلقه الله على صورته (أي على صورة الله)، والتعبير رمزي، وإن كان أصله التوراتي قد يوحي بغير ذلك، ولكنه حتى لو كان رمزياً، فإنه رمز خاطئ ينم عن فهم لله صاغه الإنسان، وإن الواقع في هذا التعبير هو أن الإنسان خلق الله على صورته، ووراء هذا الواقع فكرة عن "إنسان معين"، وهذا ما أورثته اليهودية للحضارة الأوروبية، وبعد أن كان الله هو إله بني إسرائيل الذي صور إسرائيل على صورته فقد أصبح الله هو الذي صور الإنسان الأوروبي على صورته - وتلاقي هذا الفهم مع الميثولوجيا اليونانية وآلهة الأولمب الذين خلقهم خيال هوميروس وهزيود وزملاؤهما.

إن إلهها خاصاً لشعب خاص أو إن إنساناً صيغ على صورته الله ليس إلا إحدى صور الوثنية في الحقيقة، وقد تأثر اليهود الأقدمون بالوثنية التي عاشوا فيها في مصر وغيرها، كما تأثر الفكر الأوروبي بالوثنية اليونانية / الرومانية التي تعد الأب الشرعي للحضارة الأوروبية، قد تقولون والمسيحية، والسيد المسيح وكل القيم التي جاء بها؟ والرد أن مسيحية أوروبا ليست هي مسيحية نبي الناصرة إنها مسيحية القديس بول اليوناني / الروماني واليهودي العريق، وقد صاغ المسيحية التي تتفق مع الميثولوجيا اليهودية / الرومانية.

إن الخلاف الذي ظهر منذ الأيام الأولى للمسيحية بين الكنائس الشرقية والكنائس الغربية يعود في حقيقته إلى ما هو أعمق من خلاف لاهوتي حول طبيعة المسيح، إنه يعود إلى تمسك الكنائس الشرقية بالمسيح، راكب الحمار الوديع.

لقد كانت أوروبا منذ يومها الأول وثنية، إلهها الإنسان وصاغت تصورها في "آلهة الأولمب" الذين لهم خلانق وطبائع الأوروبيين باستثناء شيء واحد هو أنهم أكثر حرية وأكثر قدرة، لهذا كانت الحرية والقوة هما المطمحان الحقيقيان للحضارة الأوروبية وكان رمزها النسرين الروماني الذي ينطلق في براح السماوات بحرية ويرتفع بقوة.

فقد كانت أزمة كاليبجولا أنه وهو القيصر المؤله لا يستطيع أن يصل إلى القمر، وقد حلت أمريكا أزمته ووصلت إلى القمر وجاوزت قوتها ما حققه بساط الريح لسليمان.

وأدى الاستخدام المستمر والمكثف للتراكم المعرفي درجة تصور فيها الغرب أنه على كل شيء قدير، وأنه لا يمكن أن يقف أمامه عائق، ولم يعد "العالم الجديد الشجاع" الذي تمثله شكسبير في القرن السادس

عشر وصوره الدون هكسلي في أربعينات القرن الماضي، لم يعد هذا العالم جديداً أو شجاعاً أمام ما وصلت إليه المنجزات اليوم، لقد بدا قديماً بالياً، أمام الثقة اللانهائية والقدرة التي لا تعرف حداً لهذا العصر على قهر المشكلات، كما تصورها الكلمة التي نشرتها مورين دود Maureen Dowd في نيويورك تايمز تحت عنوان: Drill, Gril and Chill يوم ٢٠ مايو سنة ٢٠٠١ م^(١).

ونحن - المسلمون - لا يخالجننا شك في أن الحضارة الأوروبية/ الأمريكية إذا ظلت على ما هي عليه فإنها ستفجر يوماً ما في مشهد ليس له مثل منذ "الانفجار العظيم" إنها ستفجر ببدها لأنها أصبحت أشبه بعربة هائلة تنطلق بسرعة رهيبية وترتفع إلى سماوات عالية دون أن يكون فيها "فرملة" أو "بوصلة" إنها تحسن الانطلاق والانديفاع والارتفاع ولكنها لا تحسن الهبوط والوقوف، ولا تملك ما يهديها سواء السبيل أو يجنبها الانحراف.

ونحن ندعو الله تعالى ألا يحدث هذا ليس فحسب لأن هذه الحضارة رائعة رغم كل لوثاتها، وإنما لأنها عندما تنفجر فستأخذ بقية العالم معها إلى الهاوية، وقد حذرت آية قرآنية تكاد تنطبق على الحضارة الأوروبية من هذا المصير " حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَنَّهُمْ آمَرْنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْن بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ " (٢٤ يونس).

وهذا ما يدفعنا لتعريف إخواننا المثقفين الأمريكيين بفكرة الإسلام عن الله، فقد تأثر بعض قدامي مفسري القرآن بالنص التوراتي عن أن الله خلق الإنسان على صورته، فأدرجه في تفسيراته، ولكن كان هناك نص قاطع يرفض ذلك تماماً هو النص القرآني عن الله "لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ"، ومن هنا فإنهم أولوا كلمة التوراة على أساس أن الله تعالى خلق الإنسان على صورته أي على صورة الإنسان كما هو.

ولم يكن هناك داع لهذا كله لولا افتتان هؤلاء المفسرين بما جاء في التوراة وهو افتتان نذكره، عندما نلوم الأوروبيين على أصابتهم به لأن القرآن حل المشكلة بما يتفق مع فهم الإسلام لله تعالى.

فالله تعالى هو خالق الكون، وهو خالق الإنسان وقد دلل على خلقه الإنسان في كلمات معدودة "أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ" (الطور ٣٥)، وحكمته وقدرته لا حد لها ولا حساب فيها وهو أصل كل القيم السامية ومع أن قوته وحرته لا حد لها، فإنه كتب على نفسه الرحمة بحيث لا يظلم مثقال ذرة، ويضاعف الثواب على كل حسنة أضعافاً، إن الله بهذه الصفات، وبقدرة الخلق لهذا الكون، بما فيه الإنسان يستحق العبادة والامتثال، وقد جعل آدم خليفة له على الأرض، وصور القرآن هذه العملية بصورة رمزية لكي يقربها إلى الأذهان فأجرى سجالاتاً بين الله والملائكة الذين عجبوا لاستخلاف الإنسان على الأرض ليفسد فيها ويسفك الدماء في حين أنهم لا يفعلون شيئاً سوى التسبيح لله تعالى والتغني بحمده فأخبرهم الله أنه علم آدم "الأسماء كلها"، أي مفاتيح المعرفة، وأن هذا هو ما يميز الإنسان على الملائكة، وأمرهم بأن يسجدوا لآدم ففعلوا إلا "إبليس" الذي أصبح رمزاً لمخالفة التوجيهات الإلهية.

هذه صورة تكفل للإنسان أكبر قدر ممكن من الكرامة إذ تجعله خليفة الله وتفضله على الملائكة، وتسخر له قوى الطبيعة وتمنحه الحرية والمعرفة والحق في استعمار الأرض، وكل هذا باعتباره خليفة لله يفترض بالطبع أن يسلك سبيل الخير ويبعد عن الشر، وقد أعطاه الله تعالى الحرية في السلوك على أن يحاسب يوم القيامة عن كل شيء عمله ويثاب ويعاقب تبعاً لذلك.

من أجل هذا فإن صورة الله تعالى قوية جداً في وجدان المسلم. وإن لم تكن ساحقة أو ماحقة أو حتى مانعة لأن الله تعالى أعطي الإنسان حرية التصرف وعندما نفهمها الفهم الواجب فإنها تكون أكبر قوة إيجابية

(١) انظر مقال "خمسة أفكار يقدمها الإسلام إلى الغرب" الذي ورد فيه هذا التشديد كاملاً في الجزء الأول من "المختار"، ص ١٣٣.

بناءة في المجتمع دافعة وضابطة في الوقت نفسه، وقد فهمت هذا الفهم أيام الرسول والخلفاء الراشدين، وهي سر ثورة الإسلام، وأصول الحضارة الإسلامية، ولكنها لم تفهم كذلك بعد الحقبة الأولى لأسباب لا يتسع المجال لذكرها، وكان هذا من أسباب تأخر المسلمين.

والإيمان بالله هو القوة الوحيدة التي يمكن أن تكبح جماح الحضارة الأوروبية، وتحد شططها وإسرافها بعد أن فشلت الصورة التي قدمتها المسيحية لله، وفشلت فكرة الواجب والضمير لافتقادهما الموضوعية والإطلاق.

وأود أن أقدم إضافة قد تكون مجهولة للآخرين إن الإسلام هو أقرب الأديان إلى العلمانية، فقد ظهر في الصحراء المفتوحة، البسيطة التي لا تعرف العوائق فجاء بسيطاً منفتحاً بلا قيود ولا تابو ولا لاهوت، وكان من أفكاره الرئيسية "البراءة الأصلية" التي تجعل كل شيء حلالاً مباحاً ما لم يأت نص على تحريمه، وكما تعلمون فإن العلمانية لم تنشأ ضد الديانة كفكرة وعقيدة، ولكن ضد الكنيسة كأداة ومؤسسة تريد أن تسيطر على الحكم والضمائر، ومن أبرز خصائص الإسلام استبعاده إقامة كنيسة وجعل العلاقة مباشرة ما بين الإنسان والله، وكل قطعة من الأرض يمكن أن تكون مسجداً، وكل مسلم يمكن أن يكون "إماماً"، وليس هناك من شعائر مقدسة عند الميلاد أو الوفاة، والزواج عقد بين رجل وامرأة يقوم على "إيجاب وقبول".

من أجل هذا فإن الإسلام يكاد يكون علمانيا والخلاف بينه وبين العلمانية هو أنه يؤمن بالله وباليوم الآخر في حين أن العلمانية لا تؤمن إلا بالإنسان والحياة الدنيا.

أحداث ١١ سبتمبر رد فعل وليست فعلاً:

جاء في بيان الإخوة الأكاديميين الأمريكيين كلام كثير لحل لغز أحداث ١١ سبتمبر ونحن نقدم هنا رؤية لها.

تتلخص هذه الرؤية في أن أحداث ١١ سبتمبر هي حصيلة ردود فعل سيئة عديدة تجمعت وتكاثفت بحيث أدت لأن تأخذ الشكل الذي أخذته.

فإذا أردنا أن نفهمها فعلياً أن نفهم "الفعل" الذي أدى إلى رد الفعل، وكما تعلمون فإن هناك مشابهة ما بين رد الفعل، والفعل، فإذا كان الفعل حميداً، فإن رد فعله يكون حميداً، وإذا كان سيئاً يكون رد الفعل سيئاً، وإذا بلغ الغاية من السوء، بلغ رد الفعل أيضاً الغاية من السوء.

لم يقم بأحداث ١١ سبتمبر فرد واحد أو إثنان ؛ إنهم - كما يقولون ١٩، ولا بد أن وراء هؤلاء عدداً ساعد ومهد وقام بالخدمات اللازمة أكثر كثيراً من ذلك بحيث يمكن أن يزيديا على الألف.

هي إذن قضية جماعية، وليست قضية فردية. فإذا قيل "بن لادن" فإن ابن لادن لا يعمل وحيداً ولكن يعمل بفعل تنظيم القاعدة التي قد يزيد عدد أفرادها على ألف واحد من جنسيات مختلفة تجمع بينها أنها مسلمة الدين وأنها "شرق أوسطية" الموقع ما بين مصر وسوريا والسعودية والخليج واليمن والعراق.. الخ، ويمتد ذراع منها ليصل إلى أفغانستان وإيران، كما أن هذه المجموعة بأسرها سواء كانت من مصر أو السعودية أو الخليج أو أفغانستان، وإيران ذات اتجاه إيماني وإسلامي قوى وأنها كلها خضعت لطغيان نظم حكم عسكرية أو قبلية أو ملكية، وأن هذه النظم حتى ما يدعى الإسلام منها ناصبتها العداء، بل جعلت إخضاعها خطأ رئيسياً في سياستها، وأن هذا حدث منذ خمسين عاماً عندما اصطلي بناره الجيل الذي أفرخ الأفراد الذين قاموا بالعملية.

بدأ هذا في مصر عندما أعلن عبد الناصر حرباً شعواء على الإخوان المسلمين على فترتين سنة ١٩٥٤ وسنة ١٩٦٥ واعتقل في يوم واحد سنة ١٩٦٥ ستة عشر ألفاً وتعرضوا لصور رهيبة من التعذيب

وشردوا وصدورت أملاكهم، وفي سجون عبد الناصر ونتيجة التعذيب الرهيب نشأت أولى بذور هينات الرفض - كما أسميها - أي الهيئات التي ترفض النظم القائمة وتعتبرها كافرة وتستحل قتالها وكان راند هذه الهيئات شكري مصطفى طالب كلية الزراعة الذي عذب تعذيباً جعله يقتنع أن عبد الناصر وزبانيته ونظام حكمه لا يمتون للإسلام بصلة، بل هم أعداء الإسلام يجب قتالهم أو عند عدم الاستطاعة الهجرة من أرضهم وعندما أفرج عنه كان أول أعماله تأسيس الجمعة التي أطلقت عليها الصحافة اسم "التكفير والهجرة" وهي راندة كل الجماعات الجهادية التي جاءت بعدها.

في سوريا نهج الطاغية العسكري حافظ الأسد النهج نفسه، وعندما اعتصم الإخوان المسلمون في حماه ثالث مدينة في سوريا هدمها على رؤوس أهلها بالمدافع والدبابات وأصدر قانوناً يُعد الانتماء للإخوان المسلمين خيانة عظمى.

في العراق استخدم الطاغية صدام حسين الغازات المحرمة في قتاله للشيعنة وللأكراد وقتل الألوف المؤلفة منهم.

هؤلاء الطغاة العسكريون الثلاثة حكموا قلب الشرق وجعلوا القضاء على الاتجاه الإسلامي خطأ أساسياً في سياستهم، وفي السعودية والخليج نجد نظاماً للحكم لا تعرف فيه الحرية أو الديمقراطية ولا المؤسسات وليس هناك أحزاب أو معارضة أو برلمان وفيها عنصرية كريهة وأوجدت ثروات البترول التي استحوذت عليها الأسر الحاكمة، كل سوءات الثروات والغنى الرخيص.

في اليمن، ظهر العسكريون عندما دعم عبد الناصر قوة الضابط السلال، وتسلسل من هذا السلال بقية العسكريين الذين يسيطون ديكتاتوريتهم على اليمن.

في إيران ظهر إمبراطور كالتاوس غبي متكبر فاقد لكل المواهب أراد أن يكون له أكبر جيش في المنطقة، وأكبر جهاز استخبارات وأن يغطي حياة شعبه البائسة بكامو فلاج من الحضارة الأوروبية وتطوع ليكون الحارس الأمين للمصالح الأمريكية.

وطوال الخمسين عاماً الأخيرة، لم يحكم هذه المنطقة الشاسعة سوى الكولونيات أو الجنرالات الذين يفرضون الحكم العسكري أو رؤساء وشيوخ القبائل الذين يحكمون بأعرافهم القبلية كما كانت قبل الإسلام، الجميع حتى الذين يدعون الإسلام يقاومون بكل قوة، بل وبكل وحشية دعاة التيار الإسلامي لا لشيء إلا لأن هؤلاء الدعاة هم الذين يحركون الشارع وهم الذين يمثلون الشعب ومن هنا كانت نقمة النظم الحاكمة التي تقوم على أسنة الرماح وفي حراسة الأجهزة الأمنية.

ماذا ننتظر من هؤلاء ؟

في روسيا، في أول القرن العشرين عندما صم القياصرة آذانهم عن دعوات الإصلاح قام لفيف من أنبل وأظهر شباب وشابات روسيا بتلك الحركة التي حملت اسم "النهليست" وقاموا باغتيال الجنرالات والحكام، وتوصلوا إلى اغتيال "القيصر نفسه"، وتحدث عنهم الكاتب الفرنسي كامو في إحدى مسرحياته "العدول".

وفي هذا الوقت - العقد الأول من القرن العشرين - وفي بريطانيا اضطرت حركة المصوتات لأن تلجأ إلى صور من العنف بعد أن أعطتها الحكومة آذاناً صماء فوضعوا المواد الكيميائية الحارقة في صناديق البريد ودمروا القصور الصيفية للنبل، وأخيراً ألقوا إحدى الناشطات في الحركة بنفسها أمام حصان الملك في سباق الدربي وماتت شهيدة دعوتها.

هذه دعوة نسائية، ومع هذا اضطرت إلى العنف وسلكت وسائل انتحارية.

لقد كان لابد أن تلوذ الجماعات الإسلامية بطرق العنف بعد أن سدت أمامها كل سبل العمل المشروع وبعد أن أريد قتلها تماماً، فلم يعد مناص من العنف والبادئ أظلم، وهم إذا مارسوا العنف فلن يخسروا سوى القيود وسيكسبون الجنة.

قد يقول قائل هذا شأنهم مع قادتهم، وليس لأمریکا دخل في هذا.

ولكن الحقيقة أن هذه النظم الحاكمة ما كانت لتعيش لولا دعم أمريكا لها وقد أغمضت الولايات المتحدة عينها عن انتهاكات حقوق الإنسان الفاضحة في هذه الدول، بل إنها ساعدت حكامها فيما يشدد قبضتهم على شعوبهم.

ودعم الولايات المتحدة لشاه إيران العقيم الذي بسط حكم الإرهاب على بلاده أصدق مثال لذلك. ولولا هذا التأييد لما توترت العلاقات ما بين إيران والولايات المتحدة.

على أن أسوء شيء هو بالطبع مناصرة أمريكا لإسرائيل مناصرة عمياء جعلت العالم كله يقف مشدوها كيف يمكن لهذه الدويلة أن تحمل الولايات المتحدة على تحدى الأعراف، وإرادة المجتمع الدولي بأسره عندما تستخدم مراراً وتكراراً الفيتو حتى عندما يجمع أعضاء مجلس الأمن الـ ١٤ حرساً على إرضاء إسرائيل كأن على المجتمع الدولي أن يخضع لإسرائيل وأن يذعن لسياساتها، وسجل إسرائيل حافل من سنة ١٩٤٨ بانتهاك قرارات الأمم المتحدة وتحدى إرادتها.

لقد عرضت تليفزيونات العالم منظر الدبابات وهي تقتحم الحاران الضيقة وتطلق رشاشاتها والجرافات وهي تهدم البيوت وتقلع الزراعات وشاهدت أفراد الجيش يعرقلون عمل المستشفيات ويوقفون عربات الإسعاف ويمارسون أفعالاً لمجرد إذلال ضحاياهم العزل وكل دولة تحترم نفسها لابد وأن تعبر عن استيائها، بل واحتقارها لهذه الممارسات فكيف تقبل الولايات المتحدة أن تبارك هذه الأفعال، وأن تمد إسرائيل بالطائرات والدبابات والذخائر التي تقوم بهذه الأفعال الهمجية.

إن صديق عدوى يصبح عدوى وبهذا تكتسب الولايات المتحدة عداوة ليس فحسب العرب، بل كل العالم المنصف بما فيه مجموعة كبيرة من اليهود الذين تبرءوا من هذه الأعمال.

إن الدولة الوحيدة التي قاربت سياستها سياسة إسرائيل كانت جنوب أفريقيا العنصرية التي طبقت سياسة "الأبارتيد" ورفضها العالم، والأمم المتحدة، ومنظماتها حتى أقلعت عن هذه السياسة المشينة، وظن العالم أنه تطهر من العنصرية ليجدها في أسوأ صورها في إسرائيل، وبمباركة الولايات المتحدة.

لقد ندد بيان المثقفين بقتل الأبرياء، والمدنيين في العمليات الاستشهادية، ونحن جميعاً نرفض تماماً من ناحية المبدأ أي مساس بمسالمين، ولكنهم ولا ريب يعلمون أن كل مدني في إسرائيل هو جندي، وأن أسوأ الجنود هم المستوطنون وأن من أشرس المقاتلين المجندات، والذين يمارسون العمليات الاستشهادية لا يريدون أي مساس بالأبرياء، ولكنهم لا يستطيعون التمييز، ولا يمكنهم التمييز، وهي إحدى الضرورات السينة التي فرضها الأمر الواقع وهم يكفرون عنها بأنهم هم أيضاً يموتون ويضحون بحياتهم.

لقد تحدث بيان المثقفين طويلاً عن الحرب العادلة، ولكن عمليات سبتمبر لم تكن حرباً، ومنفذوها ليسوا دولة حتى يشنوا حرباً، ولم تكن الحروب ما بين باكستان والهند، أو العراق والكويت أو الخلافات والمناوشات ما بين بعض الدول الإسلامية والدول الأخرى، لم تكن إسلامية فقد قامت كلها على أساس حدود جغرافية مختلف فيها، إن ما قام به منفذو عمليات سبتمبر إنما هو رد الفعل الذي يحكمه اليأس ويتصف بما في الفعل من وحشية وحماسة لأنه رد فعل له، فإذا أردتم اللوم فلوموا الفعل أولاً.

إن كل ما كانت تطمح فيه الدعوات الإسلامية هو حرية العمل بالطرق المشروعة، ولكنها عندما عملت بالوسائل الديمقراطية وكسبت انتخابات حرة في الجزائر، وفي تركيا تحرك الجيش والحكومة وأسقطت بالقوة إرادة الشعب وباركت أمريكا حكم العسكر، رغم أنه انتهاك شنيع للديمقراطية ولا يمكن تبريره بأنه لو ترك الأمر للإسلاميين لانتهكوا الحرية، لأن مجرد الخوف من ذلك جعل الجيش وهو أبعد جهاز عن الديمقراطية يقوم بكبت الحرية ويمارس بالفعل أسوأ ما كان يحتمل أن يقوم به الإسلاميون.

قد يقال إن حجم هذه الجماعات الإسلامية أعظم بكثير من أن تكون مجرد رد فعل لديكتاتورية نظمها الحاكمة وسياساتهم الغاشمة، وهذا صحيح فإن هذه الجماعات عندما هربت بجلدها ناجية من القتل و "السحل" والاعتقال والتعذيب هاربة إلى الخارج استطاعت في منطقة الخليج والسعودية أن تمارس أعمالا تجارية درت عليها أموالا، كما ظفرت في الدول الغربية بالأمن والأمان فشنت غارة شعواء على النظم التي شردتها وساعدها على ذلك أمران: الأول استئراء الفساد في دول المنطقة في ظل هذه الديكتاتوريات والنظم الغاشمة بحيث اكتسبت المعارضة التي يقوم بها الإسلاميون "مصادقية" والثاني أن بعض هذه الدول الأوروبية نفسها وجدت في هؤلاء المعارضين ورقة ضغط تستطيع بها أن تساوم هذه النظم للتوصل إلى التسوية التي تريدها. وبهذا وذاك تضخم أمر الجماعات الإسلامية ووصلت إلى الدرجة التي أصبحت فيها شبحاً.

الحروب في القرآن:

أريد أن أختتم هذا الرد بمعلومة مهمة قد لا تكون واضحة تماما في ذهن كثير من المثقفين الأمريكيين أو الأوروبيين وهي تتعلق بفكرة الحرب في القرآن الكريم، فقد تعرضت هذه الفكرة للكثير من التخمينات والأحكام السطحية التي تقوم على انتزاع جزء من آية من سياقها، كما قد تقوم على آراء بعض الفقهاء المسلمين أو بعض ممارسات المسلمين على مختلف العصور، والفقهاء الإسلامي أشبه بجبل فيه ذهب وفضة كما فيه تراب وحصى لأن هذا الفقه اجتهادات إنسانية متفاوتة وهناك من المستشرقين ومن الكتاب المسلمين أيضاً من يحنو قبضة من التراب والحصى ويدعى أنه يعود إلى التراث ويستشهد ويستدل بها على الإسلام، وهذا خطأ في المنهج، لأن النص الوحيد الذي يمثل الإسلام هو القرآن وكل ما عداه لا يحسب على الإسلام، لأن القرآن هو المعيار الوحيد، أما ما جاء في غيره فليس إلا اجتهادات بشرية تخطئ وتصيب.

هذه تفرقة مهمة لا يلتفت إليها علماء الغرب الذين ينظرون إلى الفقه الإسلامي باعتباره معيار الإسلام، وليس كذلك فالقرآن وحده هو معيار الإسلام .

وقد نزل القرآن على مدى ٢٣ سنة، ونزل بعضه في مكة عندما كان المسلمون أقلية مضطهدة، كما نزل بعضه في المدينة عندما أدى إيمان شعبها بالإسلام لإقامة أول مجتمع إسلامي، وأول تجربة لدولة من نوع فريد. ولهذا الاختلاف في الظروف التي نزل فيها القرآن فقد ظهرت آيات عديدة تسمح بالحرب، وهناك آيات أخرى تأمر بالسلم، وعندما توضع كل آية في سياقها يفهم سبب الاختلاف، فقد نزلت أول آية سمحت بالحرب بعد أن وصل الاضطهاد بالمسلمين غايته، وفي الوقت نفسه توافرت لهم قوة الرد، فهنا سمح "للذين آمنوا" برد العدوان بعد أن طال الظلم الواقع عليهم، وبعد أن أخرجوا من ديارهم دون ذنب "إلا أن يقولوا ربنا الله"، ولكن عندما لا يتعرض المسلمون لظلم فلا يُخرجون من ديارهم ولا تُشن حرب لا لشيء إلا أنهم يؤمنون بالإسلام - أو بالتعبير الإسلامي "الفتنة"، أي إجبار المؤمنين على العودة إلى الوثنية - فإذا انتفي هذا فإن القرآن يوجب بصريح العبارة أن تقوم العلاقات الأخرى على الود والعدل.

"لا يَنْهَأُكُمْ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ" (٨ الممتحنة)، وكذلك "وَأَنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ" (٦١ الأنفال).

من هنا نعرف أن الحرب في القرآن هي للحيلولة دون "الفتنة" أي أنها في سبيل حرية العقيدة، وليس كما يظن خطأ للإجبار على العقيدة.

ومن الضروري أيضاً لكي نفهم موقف القرآن من الآخر أن يعرف الأكاديميون الأمريكيون أن القرآن يوجب على المسلمين الإيمان بكل الرسل وبكل الديانات، وأنه يرى أن الدين كله بيت واحد ولكن الشرائع - أي ما يتعلق بالعلاقات ما بين الناس بعضهم بعضاً - تتفاوت وهناك مديح متكرر لموسى وعيسى كأبياء عظام ولمريم باعتبارها "سيدة نساء العالمين" وقد كان على الإسلام - والإسلام وحده أن يسلك هذا لأنه آخر الأديان، وكان عليه أن يحدد الموقف منها وقد حدده على أساس قبول التعددية الدينية، وأن الله تعالى "لو شاء لجعل الناس أمة واحدة"، وأنه "لا إكراه في الدين"، "فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر"، وأن الإيمان والكفر قضية شخصية فردية وليست من قضايا النظام العام "فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا"، ومع أن المسلمين لم يلتزموا دائماً بآيات القرآن الكريم، فإن التاريخ يشهد أن الحكم الإسلامي كان أكثر برّاً بالأقليات الدينية من أي حكم آخر وأنه بفضل هذه الرعاية ظلت المسيحية واليهودية قائمة في ديار المسلمين حتى اليوم، وكان يمكن، أن يفعلوا كما فعل الأوروبيون عندما أرغموا الشعوب التي غلبوها على اعتناق المسيحية وقتلوا وطردها، أو أقاموا محاكم التفتيش للمخالفين.

الحل

إننا أول من يعترف أن الجماعات التي تطلق على نفسها "الجماعات إسلامية" لا تذهب المذهب الذي ذهبنا إليه ولا تطبق النصوص القرآنية كاملة، ولكن هذه الجماعات هي كما قلنا رد فعل - وكان الفعل سيئاً غشياً - فجاء رد الفعل سيئاً غشياً، وليس من المبالغة القول بأنها لا تمثل الإسلام، وأنها تسعى إلى الإسلام، وإلى مجتمعاتها وتجنني على استقرارها كما تجني على المجتمعات الأوروبية، ولكن الذنب الأول لا يقع عليها، وإنما يقع على الإرهاب الحكومي - والذي يستحق وحده كلمة إرهاب أما هم فإنهم أصلاً ما أرادوا الإرهاب وإنما أرادوا انتصافاً لأنفسهم. ولما أغلقت في وجوههم كل طرق الشرعية والعننية اضطروا إلى هذه الوسائل التي تتسم بالعنف والطيش والتي تقضى على أنفسهم أكثر مما تقضى على الذين أغلقوا في وجوههم الأبواب.

والحل في القضية كلها هو الحرية فإذا حكمت هذه المنطقة بنظم حرة حتى وإن لم تأخذ بوسائل الديمقراطية الغربية أو الأمريكية. فإن كل شيء يمكن أن يصلح. ولكنها ما ظلت تحكم بالعساكر أو شيوخ القبائل فإنها ستكون "مفرخة" تولد الجماعات اليانسة البانسة الشقية التي لكي تعمل شيئاً ضد ظالمها - قد تدفع حياتها نفسها ثمناً له، وإذا كانت أمريكا تمثل الحرية، فلتدع للحرية حقاً وصدقاً، ولتدع المفكرين والصحفيين والنقابيين يعملون بحرية، ولتدع الشعوب تمارس انتخابات حقيقية وليست انتخابات الـ ٩٩.٩٪ المزعومة، كما أن عليها أن تجعل سياستها الخارجية تمثل العدل وليس المصالح أو "اللوبي" الإسرائيلي، إننا بقدر ما نسعد بتلقي الملاحظات العادلة على سياساتنا، فإننا نتوقع أن يتلقى الآخرون ملاحظتنا بالروح نفسها(*)

(*) نشر بجريدة القاهرة ، العدد (١١٦) ، بتاريخ الثلاثاء ٢٠٠٢/٧/٢ م ، ومن المؤسف أن هذا الرد المفحم لم يترجم ، ولم يشر إليه ، وبهذا لم يتعرف عليه من سيق الحديث إليهم.

لو أن محمداً لم يكن نبياً رسولاً

"لو" حرف امتناع، كما يقول اللغويون، فليكن هذا معلوماً، طلع علينا أحد المؤلفين بكتاب شرح فيه فرضاً افترضه وحاول أن يثبته بكل ما أوتي من قوة.

هذا الفرض هو أن محمداً لم يكن رسولاً نبياً، وإنما هو عبقرى نابِه أوتي من الملكات والمواهب ما لم يوت أحد من العالمين، وأن هذا العبقرى ظهر في شبه الجزيرة العربية في وقت ترددت فيه الأخبار عن قرب ظهور نبي، وادعى المؤلف أن السيدة خديجة مسيحية الديانة، وهي شديدة الذكاء عظيمة الدهاء، وهي تؤلف هي وعمها ورقة بن نوفل وبحيرا الراهب ثالوثا عقد العزم على أن يصنع من محمد الذي اكتشفته خديجة بذكائها الخارق نبياً، ولهذا تزوجته وأراحته بمالها من أثقال الكسب والعمل وفرغته للمهمة، بحيث أثمرت جهودها الذاتية، فتصور محمد أن وحيًا قد جاءه في غار حراء وأنه هو رسول الإسلام.

ونجحت (التجربة) كما يطلق المؤلف على الوحي.

الذي ألف هذا الكتاب ليس شاباً طائشاً، ولا هو مستشرق لا يحكم العربية، إنه كاتب محنك، نشأ في حجر الدعوات الإسلامية (الجمعية الشرعية والإخوان المسلمين)، وتدرّب كمحام ناشئ في مكتب المحامي الشهيد عبد القادر عودة، ثم شرد عنها وأوي إلى جماعات يسارية، ولديه المراجع التي يعتز بها ويعول عليها الفقهاء والعلماء والمستشرقون لما فيها من طرائف وغرائب واجتهادات وأقاويل وإسرائيليات مما تطرق إلى الفكر الإسلامي فترة الانفتاح التي سمحت بدخول كل (الملل والنحل) إليه، ودق هذا على علمانا لأنهم يقدسون كل قديم ويتقبلون الأسلاف، كما رأي فيها المستشرقون مرجعاً ثميناً يجدون فيه كل ما يعزز شكوكهم.

الفرض الذي قدمه الكاتب ليس جديداً، وإنما الجديد هو الإتقان والإحكام الذي ساقه به بحكم تضلعه في الصياغة وتمكنه من الرجوع إلى بعض المراجع، وتجميعه الشبهات للصعود بها إلى مرتبة القرائن.

باستثناء ذلك فإن ما ادعاه الكاتب أشار إليه القرآن الكريم: (وَلَقَدْ نَعَلْمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ)، وقد أشار القرآن الكريم في هذه الآية إلى نقطة هامة، تلك هي أن (المعلومة) ليست هي المهمة، فالمعلومات منثورة موجودة، ويعلمها الكثيرون وهي كالمادة الخام لا يصل بها إلى مستوي الإعجاز إلا شاعر كالمتمتبي أو بناء الأهرام، وإلا فهي لقي متاحة أمام كل واحد، فليس المهم هو (المعلومة) ولكن الصورة المعجزة التي صيغت بها هذه المعلومة والتي عندما تصل إلى القرآن تصبح دليل الصدق، فلماذا لم يستطع أحد من الذين لديهم المعلومة أن يصل إلى ما وصل إليه محمد، وقد كان بعضهم أعزراً علماً وأعظم جاهاً، لماذا لم يصل أحد منهم إلى أذنيال ما وصل إليه أو يمكن أن يأتي بآية من آيات القرآن؟

إن المؤلف يسلك هنا ليس فحسب مسلك الشانين من سراة قريش، والناقمين من أحبار اليهود، ولكنه أيضاً يسلك مسلك الأوروبيين الذين لا يطيقون لفظ (الله) ويهربون منه بكل لفظ آخر (الطبيعة) التطور.. الخ، وقد تحدث عنهم القرآن نفسه "وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ" (الزمر ٤٥).

أخذ المؤلف يتعسف الطرق، ويجمع الشبه ليفترض فرضا يخالف البداهة، وطبائع الأشياء، ولعله وصل إلى ما كان يعجز عنه أخبت المستشرقين وأعداء الإسلام.

لأنه إذا كان الوحي تجربة وإذا لم يكن محمد رسولاً، وإنما تهيأ له هذا فالإسلام كله لغو والقرآن أساطير الأولين اشتبهت عليه وليس وحياً منزلاً من الله، والله نفسه لا بد وأن يكون محل شك، لأنه لو لم يكن محل شك لاستقام الأمر، كما عرضه الإسلام.

وقد أشار الأستاذ فهمي هويدي في إحدى كلماته إلى محاولة سابقة قام بها أحد الناس باسم منتحل ويمت بصلة إلى الجامعة الأمريكية.

وفي كتابنا (روح الإسلام) الذي ظهر سنة ١٩٧٢م فرقنا ما بين النبي والبطل، فالأنبياء أفراد اختارهم الله عز وجل من صفوة الخلق ليحملوا رسالة مقدسة إلى البشرية وأضفى عليهم عصمته في تبليغهم الرسالة، في حين يحمل الأبطال أوزار الأوضاع والوراثة والبيئة، ومن هنا فقد تكون مذاهبهم واتجاهاتهم سليمة، ولكن سلوكهم وتصرفاتهم تعكس الضعف البشري.

وعندما نطلب إلى الناس الإيمان بأن محمداً رسول موحى إليه من الله، فنحن نطلب إليهم أهون اختيارين وأكثرهما سلامة.

ذلك أننا إذا وضعنا مآثر أكبر الزعماء والقادة الذين أنجبتهم البشرية، أمام مآثر محمد، لبدت الأولى ضئيلة، قمينة معيبة أمام الثانية.

فقد كان محمد نبياً جاء بدين ناجح وسياسياً بني دولة ورثت الإمبراطوريات القديمة، ومشرعاً وضع قانوناً عبقرياً يشمل العقوبة الجنائية والعلاقات الشخصية والأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، وبلغاً جاء بجوامع الكلم واعتبرت أحاديثه حجة في الخلق الكريم، ونتيجة لهذا فإن اسمه لا يزال منذ ألف وأربعمائة عام حتى الآن يتردد خمس مرات كل يوم في أربعة أركان العالم كلما أذن لصلاة، ولا يزال مثواه الأخير علماً منوراً يهرع إليه المؤمنون من أقطار الإسلام يحذوهم الشوق لكي يقفوا بين يديه في تلك البقعة التي قال عنها إنها (روضة من رياض الجنة).

من ذا يسامي هذه المآثر، أو يظفر بمثل هذه المنزلة، لقد كان الإسكندر فاتحاً عسكرياً مظفراً، وتتلذذ على يد (أعجوبة البشرية) أرسطو، ولكنه لم يكن المشرع، ولم يكن النبي، وما أكثر ما غلبته انفعالاته، وورطته في منكرات وآثام.

وكان (أعجوبة البشرية) أرسطو فريداً في الفلسفة والمنطق والأدب والعلوم، ولكنه لم يكن رجل الدولة، ولا رجل الدين، ولا القائد العسكري.

وكان قيصر رجل دولة، ورجل سياسة وآداب، وقائداً منتصراً، ولكنه لم يكن رجل الدين أو المشرع، وفوق هذا فقد كان رجل كل امرأة، وامرأة كل رجل.

وكان نابليون رجل دولة، ورجل سياسة وقائداً عسكرياً، ومشرعاً، ولكنه لم يكن صاحب الدين أو رجل اللغة والأدب أو الممثل الأعلى في الأخلاق.

وكان كل من (شكسبير) و (جوته) علما من أعلام الأدب والشعر والمسرح، ولكنها كانتا أصفاراً في السياسة والقيادة العسكرية أو الرسالة الدينية.

إن الشخصية الباهرة غير العادية للرسول العربي قد فرضت نفسها من الوهلة الأولى مع تلك الجملة التي ما كانت تشبيهات شكسبير وتهاويله لتصل إلى ما هو أبعد منها (لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته).

فهل كان يمكن للإسكندر، أرقى ثمرة للثقافة الهيلينية وتلميذ أرسطو أن يقول شيئاً كهذا.

أي قائد، أو ملك أو إمبراطور أو نبي في العالم يستطيع أن يقول كما قال محمد عن أصحابه: (أصحابي كالنجوم بأيهم اقتدتهم اهتديتم)، وأصحاب أي قائد ظفروا من الأجيال بتوقير وتبجيل كما ظفر الصحابة؟ إن مجد محمد الذي انعكس عليهم امتد إلى أصحابهم فقبل لهم (التابعون) وإلى أصحاب هؤلاء فقبل (تابعو التابعين).

أي جنود معركة نالوا مثل (الوسام) الذي منحه محمد لجند بدر (إنه شهد بدرًا، وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال افعلوا ما شئتم فإني قد غفرت لكم).

أي بشر يصل به الاعتزاز وتملك قيادة البلاغة وقوة التصوير إلى أن يقول لأصحابه (لو كنتم في أهلکم كما تكونون معي لصافحتكم الملائكة).

وكل هذا يصدر من عربي لم يقرأ ولم يكتب ولم يتعلم على يد فليسوف.

هذا ما كتبناه منذ ربع قرن في كتابنا روح الإسلام، وفيه مقتع لمن يريد الحق. أما من يتعسف المسالك فله شأن آخر، ولا يدخل في هذا الشأن المصادرة أو التكفير، فهذا ما نستبعده تماما، لأن الكتاب سيذهب في كتب قد خلت ولأن صاحبه أيضاً لن يضر الإسلام شيئاً وإنما سيكون كناطح صخرة يوماً ليوهنها.. الخ(*).

(*) نشرت بجريدة القاهرة ، العدد (٦١) في الثاني من يونيو سنة ٢٠٠١م.

ليس للفقهاء أن يقولوا: هذا حلال وهذا حرام

باب "الفتاوى" الذي قد يحمل عنوان (اسألوا الفقيه) من أكثر الأبواب جاذبية وأهمية للكثير من القراء، والموضوعات التي تتناولها الأسئلة تشمل كل شيء بدءاً من أعصى قضايا العقيدة حتى أبسط جزئيات الممارسة، وعادة ما يعطى هذا الباب لأحد الفقهاء المتخصصين الذي يرد على الأسئلة ويقول بلا تردد إن هذا الشيء حلال، وهذا الشيء حرام، ويأخذ الناس كما لو كان هو رأى الشرع.

وفي رأينا أن هذا الشيء مرفوض.

وهو مرفوض شكلاً وموضوعاً، مرفوض شكلاً لأن الأسئلة عادة ما تصاغ بطريقة قد لا تكون دقيقة، وقد تكون مغرضة، وقد تغفل جوانب من القضية لها تأثيرها على الحكم.

وهو مرفوض لأن هناك نهياً عن السؤال جاء في القرآن الكريم وفي السنة النبوية فجاء في القرآن:

- "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءَ إِن تُبَدَ لَكُمْ سُؤُوكُمْ وَإِنْ سَأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنزَّلُ الْقُرْآنُ تُبَدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ" (١٠٠ - ١٠١ المائدة).
- "أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ" (١٠٨ البقرة).

وكان الرسول ﷺ ينهى الصحابة عن السؤال حتى لقد قيل إن كل ما سأل عنه الصحابة أقل من عشرين مسألة تضمن معظمها القرآن، وقال الرسول ﷺ:

- (إن أعظم المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يحرم على المسلمين فحرم عليهم لأجل مسألتهم).
- (ذروني ما تركتكم فإنما أهلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه وإذا أمرتكم بشيء فخذوا منه ما استطعتم).

أما الرفض الموضوعي فهو أن الإسلام يخص الله تعالى وحده بتعيين الحرام والحلال، لأنه هو - وحده - المشرع وهذا هو لب التوحيد.

واقراً:

- "وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ" (١١٦ النحل).
- "قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَاماً وَحَلَالاً قُلْ اللَّهُ أَدْنَىٰ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ" (٥٩ يونس).
- "أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ" (٢١-٢٢ الشورى).

وندد القرآن بالذين يشركون بالله أنداداً في التحريم والتحليل والتشريع:

- "وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا".

• "وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ".

• "اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرَهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ" (٣١ التوبة).

• "اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ" (٣ الأعراف).

فهذه الآيات كلها صريحة في أن الله تعالى هو الذي حرم وحلل وأن هذا ليس لأحد غيره وإن إشراك أحد غيره فيه هو نوع من الشرك ومن جعله (أربابا) وأندادا والآيات صريحة في الالتزام بما أنزل الله وعدم اتباع ما يقره الآباء والأسلاف.

وجاءت السنة مؤكدة لما جاء في القرآن الكريم فالرسول ﷺ يقول:

• (ما أحل الله في كتابه فهو حلال وما حرم فهو حرام وما سكت عنه فهو عفو فاقبلوا من الله عافيته فإن الله لم يكن لينسى شيئا وما كان ربك نسياً).

• (إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها وحد حدودا فلا تعتدوها وحرم أشياء فلا تنتهكوها وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها).

فهذا الرسول ﷺ العظيم يحيل في كل تحليل وتحريم إلى الله تعالى في كتابه ويقرر أن هناك منطقة ما بين الحلال والحرام أطلق عليها (عفو) وأمرهم أن يقبلوا من الله عافيته لأنها رحمة ووجههم لعدم البحث عنها فالله تعالى لم يغفلها نسيانا - تعالى عن ذلك - ولكن ليجعل للناس مندوحة.

ولم يحلل الرسول ﷺ أو يحرم أمورا لم ينص عليها القرآن إلا حالات معدودة على أصابع اليدين معظمها قياسا على ما قرره القرآن وكان أغلبه تيسيرا وممارسة لصفته "رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ"، "عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ" (١٢٨ النور)، "لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ".

وحتى ما وضعه الرسول ﷺ من تحليل وتحريم خارج إطار القرآن فإن له حكما يقل عن ما جاء به القرآن صريحا دون تأويل، ولا يتسع المقال لتفصيل ذلك وتتضمنه كتب السنة.

وكان كبار الأئمة يتورعون عن أن يقولوا هذا حرام وهذا حلال ويتفادوا ذلك بمختلف التعبيرات وكان الإمام أحمد بن حنبل يقول (لا أراه) ولا أحبه أو نحو ذلك دون أن يقول هو حرام.

فهذه الآيات والأحاديث تثبت:

• أن الحرام ما حرمه الله تعالى في كتابه.

• إن الحلال ما أحله الله تعالى في كتابه.

• إن ما سكت عنه عفو (فاقبلوا من الله عافيته).

• الآيات والأحاديث تنهى عن السؤال.

• الآيات والأحاديث تتوعد من تسبب بسؤاله في تحريم.

مع هذه النصوص لا يكون هناك مجال للفتاوى والسؤال، فكتاب الله بين أيدينا فيه ما حرمه وما حلله والرسول ﷺ نفسه وهو النبي المكلف بتبليغ الدعوة يحيلنا عليه ولم يثبت أن الرسول ﷺ حلل أو حرم خارج إطار القرآن الكريم إلا عده حالات معدودة على أصابع اليدين.

ولكن الفقهاء لا يستسيغون هذا المنهج وهم يستشهدون بجزء من آية يشهرونه في وجه من ينكر عليهم حق الإفتاء (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون)، وهذه الآية جاءت في سورة النحل وسورة الأنبياء

بنص واحد هو: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)، وهذا النص ينسب أو يعيد أهل الذكر إلى رجال يوحى إليهم - أي الأنبياء ويكون المقصود من الآية أن يسألوا الأنبياء خاصة أن القرآن يستخدم تعبير الذكر مرادفاً للقرآن:

- (وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ) (الحجر ٦).
- "وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ" (٤٤ النحل).
- (إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ) (يس ٦٩).
- "وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي" (ص ٨).

فكلمة الذكر في هذه الآيات جميعاً تعنى القرآن وهذا هو ما توحى به الآية أما ما يسوقونه من تفاسير فإنها لا تعد ملزمة في شئ واحتمال استبعادها أقوى من احتمال إعمالها.

يبقى بعد هذا كله السؤال الهام:

إذا استبعدنا فتاوى الفقهاء فماذا يفعل الناس؟

إن سؤال الفقيه ليس هو الحل الوحيد أو الأمثل لحيرة السائل لأن هذا السائل يستطيع - عند انعدام الفقيه أن يعمل عقله ولو أعمله لما احتاج إلى السؤال لأن معظم الأسئلة التي نقرأها في الفتاوى مما يمكن الرد عليه بالقليل من التفكير، ولكن معظم الناس لا تريد أن تبذل هذا القليل من التفكير وهو أمر يفترض ألا يكون وإذا وجد فيجب علاجه.

وعلينا أن نضع في اعتبارنا أن السائل وإن كان يجهل حل سؤاله إلا أنه أعلم الناس بملاسات السؤال وما تطرق إليه من مسائل والقضايا التي تلتبس به وترتفق عليه، مما لا يمكن أن يصوره للفقيه لما قد يكون فيه من حرج أو سرية أو ما يثيره من خجل أو إطالة.. الخ، فهو أقدر من الفقيه على (تكييف) حقيقة السؤال.

ولم يتركنا الرسول ﷺ في ضياع فهو في الوقت الذي ينهى فيه عن السؤال، فإنه يقول (استفت قلبك.. وإن أفتوك وإن أفتوك)، فأى شيء أصرح سلباً وإيجاباً من هذا وقدم الرسول ﷺ مؤشراً عاماً عندما قال: (البر حسن الخلق والإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس) ، فليحكم كل واحد على نفسه فهو أبصر بها ولتتبع السيئة الحسنة تمحها، قد يقول قائل إن الفقهاء لا يحلون ولا يحرمون من تلقاء أنفسهم إنهم إنما يطبقون القرآن الكريم والسنة النبوية فتقول هل تعاوننا موثقاً من الله لأنهم لا يخطئون ولا ينسون ولا يتأثرون بمختلف العوامل، فإذا كانوا غير معصومين من الخطأ فإن الاحتمال لا بد وأن يتطرق إلى أحكامهم وما دخل فيه الاحتمال بطل به الاستدلال، ونقول ثانياً إن من الأفضل للإنسان أن يجتهد بقدر معارفه فإذا أخطأ لم تفته حسنة الاجتهاد، وسيتعلم من خطئه لأنه أعمل عقله وهذا الأعمال هو طريق التوصل إلى الصواب أما إذا أغفل عقله واعتمد على الفقه فقد يصله الحل الصحيح ولكن سيظل عقله مغلقاً*).

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الأصول الرئيسية في الإسلام وقد أورده القرآن باعتباره رسالة الأنبياء فقال: "الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ" (الأعراف ١٥٧)، وقدمه على الصلاة والزكاة فقال: "وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ" (التوبة ٧١)، واعتبره مبرر أفضلية الأمة الإسلامية "كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ" (آل عمران: ١١٠)، وندد ببني إسرائيل لأنهم كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه.

وإنما جاءت هذه الأهمية للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأنه أداة، وفي الوقت نفسه ثمرة التكامل الاجتماعي وإحساس كل فرد في المجتمع أنه مسنول عما يعترى المجتمع من خير أو شر وأنه لا يستطيع أن يعتزل الهم العام ويقصر جهده على ما يخص نفسه أما المجتمع فلا يعنيه في شيء.

ولا جدال في أن هذا الالتزام هو من أكبر ما يحفظ تماسك المجتمع ويزيل عنه عوامل الوهن ودواعي الانحراف.

ولكن بعض المسلمين أساءوا فهمه لأنهم اعتمدوا على الحديث المشهور "من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان"، فنصبوا أنفسهم قوامين على ما يرونه معروفاً هادمين لما يرونه منكراً.

ولو أن هؤلاء راجعوا الآيات العديدة والتي يصعب تعدادها في مقال كهذا عن أن دور الأنبياء وهم أصحاب الدعوة والرسالة يقتصر على التبليغ، وأن من عصي أو رفض فأمره إلى الله ولا يستطيع الرسول له شيئاً، لأنه ليس حفيظاً ولا وكيلاً ولا جباراً ولا مسيطراً، فإذا كان هذا هو موقف الرسول، فمن غير المعقول أن يدعي أحاد من الناس أن لهم سلطة أكثر من الرسول.

من هنا لا بد للإنسان أن يستصحب هذه الآيات عند أعمال الحديث بحيث تكون الآيات حاكمة عليه ويفهم أن الدعوة لتغيير المنكر باليد إنما أريد بها الحالات التي يتحتم فيها التدخل حتى لا ترتكب جريمة، فإذا رأينا أحداً يحاول أن يضرم النار في مبني أو يضرب آخر بقسوة أو يعتصب فتاة.. الخ، أو حتى يحاول الانتحار، ففي هذه الحالات كلها يجب التدخل باليد، وتعد السلبية نوعاً من المشاركة في الفعل تجرمها بعض القوانين.

ومما يلفت الانتباه أن كل الكتابات التقليدية عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتغيير المنكر باليد انحصرت في تدمير المعازف وما يمت بصلة إلى الآلات الموسيقية وتحطيم أواني الخمر وإلزام النساء بالنقاب والخمار.. الخ، وقد استهلكت هذه المجالات الثلاثة جهود كل الكاتبين عن هذا الموضوع من الفقهاء القدامى حتى الكتاب المعاصرين ولم يتحرك أمر بالمعروف والإنهاء عن المنكر لمقاومة استبداد الحكام الطغاة، ولم يفكر أحدهم في التنديد باستغلال الأغنياء للفقراء ووجود من لا يملك قوت يومه ومن يوجد لديه الفتاير المقتطرة من الذهب والفضة، ولم يثر تائر على الجهالة والامية في حين أن أول كلمة في الإسلام كانت اقرأ،

وأن رسالة الإسلام كانت إخراج الناس من الظلمات إلى النور، وأنه عندما أراد أن يصم العهد السابق عليه أطلق عليه الجاهلية.

ولعل آخر مظهر من مظاهر إساءة فهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما قامت به طالبان من تحطم تماثيل بوذا.

وفي ثلاثينات القرن العشرين تملكت الحماسة لفيقا من أعضاء مصر الفتاة للقضاء على الحانات، فداهموا عدداً منها ودمروا مقتنياتها وقبض البوليس على الذين قاموا بذلك، وقدموهم للمحاكمة، وفي هذه المناسبة أرسل الإمام حسن البنا رحمه الله خطاباً مفتوحاً للسلطات نشرته مجلة الإسلام في العدد ٤٩ السنة السابعة الصادر في ١٧/٢/١٩٣٩ ص ٦، استنكر فيه هذا الفعل (تدمير الحانات) والطريقة التي تم بها، ولكنه في الوقت نفسه وجه نظر السلطات إلى المعاني الموضوعية التي دفعت بالشباب إلى هذا العمل واعتقد أن مسلك الإمام البنا هذا هو مسلك الأمتل من زعيم إسلامي كبير يقدر كافة الأبعاد والعوامل.

وجاء في هذا الخطاب:

"لست أقر أحداً على أن ينتقض على القانون، ولست أدعو إلى العدوان في أية صورة من صوره، فقد نهانا القرآن عن العدوان، ولكنى أعتقد أن عناصر الجريمة في هذه القضية مفقودة تماماً والقصد الجنائي منعدم تماماً، فليست بين هؤلاء الشباب وهذه الحانات وأصحابها صلة تحملهم على الانتقام والإجرام، وإنما حملهم على ذلك دافع شريف جدير بالتقدير هو في الواقع مساعدة للقانون على أداء مهمته وهي محاربة الجريمة والقضاء عليها وسد المنافذ التي يدخل منها المجرمون إلى انتهاك حرمة القانون" أ.هـ.

وفي السبعينات شهدت مصر انتشار ظاهرة النهي عن المنكر خاصة في الصعيد وبين طلبة جامعتها، ووصل الأمر إلى حرق أندية الفيديو بينما كان طلبة الجامعة يترصدون لكل من يسير مع سيدة ويطلبونه بإثبات علاقته بها كما كانوا يوقفون المحاضرات بمجرد أن يرفع الأذان.

وهذه الصورة من الأعمال هي في صميم ما قامت من أجله هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عندما تكونت في العقد الثالث من القرن العشرين في السعودية وتحدث عنها كاتب سعودي بمجلة المجلة (٣٠ أبريل - ٦ مايو ٢٠٠٠ ص ١٧):

"كان أعضاء الهيئات يمشون في الأسواق فيمنعون الاختلاط والسفور ووقوف الرجال في طريق النساء لغير حاجة وتطيف المكاييل والموازين وظلم الدواب كما يمنعون الحلاقين من التعرض للحي زبائنهم بقص أو حلق ويؤدبونهم على ذلك ويمنعون القرع (هي قصة من قصص الشعر كان يطلق عليها قصة التواليت، وكانت منتشرة في أواخر الستينات وطوال فترة السبعينات)، ويقومون بقص الرأس المقزوع، ويمنعون التدخين ويؤدبون عليه ويصادرون التبغ من الدكاكين ويحرقونه ويؤدبون بانيهه و يقيمون الناس إلى الصلاة حين المنادة لها وإذا عثروا على من ارتكب حداً رفع أمره إلى رناستهم فيتولى المحققون فيها التثبت مما فعله المتهم ثم يرفعون نتائج التحقيق إلى الرئيس العام فيصدر بدوره ما يلزم من جلد أو نفي أو حبس ويمنعون تصوير ذوات الأرواح، ويكسرون صورها ويمنعون اللهو الحرام ويكسرون ما يجدون من آلاته دون أي قيد، ومهما كان ثمنها، ويمسون من يجدون هذه الأشياء في حوزته بشيء من العقاب الفوري

جزاء على حيازته لهذه الممنوعات شرعاً، كما أن هناك سبجنا خاصا بالهيئات يودعون فيه من يجدونه من المذنبين، فيقضون فيه ما حكم عليهم من حبس وخلافه.

وقد قننت هذه المهام في المادة التاسعة من نظام الهيئة الصادر في المرسوم الملكي رقم ٣٨ / ٣ بتاريخ ١٤٠٠/١٠/٢٦هـ، إذ ضمت هذه المادة خمسة عشر واجباً يكون على أعضائها القيام بها.

ونرى أن هذه الصورة سقيمة لتطبيق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإن كانت وليدة طبيعية للمناخ السعودي وللغة التقليدية الساند فيها.

أما الصورة المثلي فيفترض أن تختلف شكلاً وموضوعاً ففي الشكل تأخذ طبيعة جماعية وليست فردية، وذلك بتكوين الجمعيات والهيئات لذلك، لأن العمل الفردي، وإن كان له أهميته التي يحرص عليها الدين ويحميه من الافتيات باعتباره ممثل الحرية الفردية الثمينة، والتي هي أساس كل الحريات، إلا أنه لم يعد - أي العمل الفردي - فعالاً في عالم التنظيم والتنهيج، وأما في الموضوع أو المضمون فيجب التركيز على الأمر بالمعروف أكثر من النهي عن المنكر، ليس فحسب اتباعاً للترتيب في الآية، ولكن أيضاً لأن الإيجاب أفضل من السلب، ويغطي هذا المضمون مجالات مثل إشاعة الثقافة والمعرفة والإمام بالمهارات المطلوبة للمجتمع وتعليم الجاهلين، وقضايا العدالة الاقتصادية والتكافل الاجتماعي.. الخ، وقد يؤدي ظهور هذه الجمعيات وحديثها عن الدعوة إلى تكوين جمعيات معارضة، وبهذا تتحقق التعددية ويظهر الرأي والرأي الآخر ويتصارعان في مجال الفكر ويتحقق الثراء للقضية، ويظهر في النهاية الرأي الأفضل، حتى وإن لم ينفرد بالساحة لأن هذا ينافي طبيعة التعددية (*).

(*) نشر بجريدة القاهرة في مارس/أبريل سنة ٢٠٠١م.

الداعية التربوي

حسن البنا

١٤ أكتوبر ١٩٠٦ — ١٢ فبراير سنة ١٩٤٩

على كثرة ما كتب عن حسن البنا ما بين مادح وناقذ، فإن أحدًا لم يحلل سر القوة الكبيرة التي استطاع بها هذا الرجل خلال عشرين عامًا إقامة هذا الصرح الشاهق، ودفع الدعوة الإسلامية من زوايا الصوفية وأزقة المدن واحتكار الوعاظ إلى صدارة المجتمع وتقديم الإسلام كمنهج حياة.

إن أسماء القادة لا تنقصنا فنحن نعرف قادة الأحزاب السياسية ونعرف قادة الانقلابات العسكرية، وفي المجتمع الأمريكي الذي تحولت فيه القيادة إلى إدارة تعرف كبار الإداريين ما بين مديري الشركات العملاقة أو مديري السياسيات في البيت الأبيض، ولا يمكن أن يقال إن أحدًا من هؤلاء أوجد هيئة تقوم على عقيدة وتترابط بخيوط حريرية، ولكن فيها متانة الحديد، ويحتفظ بكيانها رغم حرب الحكام لها في العالم العربي واستخدامهم كل ما لديهم من قوى القمع، فقد ذهب الحكام وبقي الإخوان.

ولسنا في حاجة بالطبع للحديث عن قادة الانقلابات العسكرية، لأن هزائمهم وجرائمهم معروفة لكل واحد.

الاستثناء الوحيد هو لينين الذي أوجد الحزب الشيوعي ووضع له صيغته الحديدية التي تمكنه وهو الأقلية المنظمة من فرض الديكتاتورية على الكثرة المهوشة.

وفي الحقيقة فكما نقول دائمًا فليس هناك نظرية كاملة أو عقيدة إلا في الإسلام، والماركسية.

وقد رزقت الماركسية ثراءً علميًا وشعاريًا شعبيًا جعلها عظمة الجاذبية، وكسبت لعضويتها والعمل لها العديد من ذوي الضمائر الحية والقلوب الطيبة الذين يريدون خدمة الأهداف المعلنة لها من عدالة ومساواة ولكن الإيمان بتنظير علمي لا يكون له عمق الإيمان بتنظير ديني ولا يسلم من النقد ووجوه القصور، وأساء من هذا أن التجربة العملية للشيوعية أثبتت أنها ضد شعاراتها من عدل أو مساواة، وعاشت على لحوم الذين آمنوا بها وضحوا في سبيلها.

من ناحية أخرى إذا فهم الدين فهما سليما، فإنه يقدم أعظم عقيدة ويصبح مائدة حافلة في حين أن الماركسية كسرة خبز.

وقد فهم الإمام البنا الإسلام فهما عميقًا نفذ إلى جوهر روحه واستطاع أن يقدمه سائغًا مقبولاً ليس به تعقيد أو شطط، ويمثل أفضل ما كان يمكن أن يقدم في حقبة الثلاثينات والأربعينات .

لمعرفة سر ذلك يجب أن نعلم أن حسن البنا لم يكن بالدرجة الأولى رئيسًا، أو مديرًا، أو قائدًا، لقد كان داعية، وهي كلمة تتم بالطبع عن أن هناك "دعوة" وهنا نجد أولي نقاط القوة لأن أكبر عامل في قوة هيئة ما هو أن تقوم على "عقيدة" بالتعبير الإسلامي أو على نظرية متكاملة بالتعبير الحديث، وهذا ما يخرج معظم الهيئات، فالأحزاب السياسية قلما تكون لها عقيدة أو نظرية (باستثناء الشيوعية)، أما في المجتمع الليبرالي

"الديمقراطي" الرأسمالي فإن النظرية هي حرية العمل، وهي ليست نظرية ولكنها أسلوب، وفضلاً عن هذا فإن الأحزاب جميعاً تستهدف السلطة والحكم، وهذا وحده يكفي لأن تجمع بين أعضائها الوصوليين والانتهازيين والطماعين.. الخ، كما أن الشركات الكبرى ليست لها عقيدة إلا وازع الربح وهو أصلاً فردي الطبيعة مادي الهدف فإذا كان أحد عناصر عبقرية الإمام حسن البنا حسن فهمه للإسلام وتقديمه بطريقة لم يصل إليها الفقهاء، أو رجال المؤسسة الدينية، أو شيوخ الطرق، فإن العنصر الثاني أنه لم يكتف بالدعوة بل قام بتربية كادر عريض، وليس تنظيمًا طلائعياً، أو نظاماً خاصاً، بحيث تنطبع الدعوة في قلوبهم وتتجلى في سلوكهم وتحافظ على إيمانهم.

إن كل قائد كان يمكن أن يكسب قوة كبيرة لو أنه أضاف التربية إلى مسؤولياته، ولكن أنى له أن يقوم بهذا الدور ويتعب وينصب ويسهر الليالي ويتعامل مع الناس، إن الإمام البنا رحمه الله كان بعد انفضاض الاجتماعات والخطابات يسهر مع المجموعات طبقاً لنظام تربوي يضم الثقافة ويضم المجاهدة، و وضع نظام الكتابب التربوية التي يقضي فيها العضو نهاره وليله مع مجموعة من إخوانه تقضي هذه المدة في الدراسة، وكان يصلي بهم ويقرأ السور الطوال من القرآن الكريم بصورة تخشع لها القلوب وتتشربها النفوس، من من "الباشوات" قادة الأحزاب، لديه استعداد لهذا، وحتى لو كان لديه استعداد فماذا لديه من "مادة" ليقدّمها، هل يعلمهم طرق تزييف الانتخابات؟ هل يعلمهم كيف يكتسبون الأصوات بالوعود البراقة، هل يعلمهم منافسة الأحزاب الأخرى أو مخادعة أو مخالفة الحكومات؟ هل يعلمهم كيف "يهبرون" وينتهزون الفرص؟

إن فكرة التربية مستبعدة تماماً من قادة هذه الأحزاب أو الهيئات فهي لا تدخل في حسابهم ولا هم مؤهلون لها، "وقيادتهم" تقتصر على متابعة الجهاز الإداري واتخاذ القرارات إزاء الأحداث والملابسات، ومن ثم فليس لهم قاعدة إيمانية، ولا جمهور إيماني.

وهناك ناحية أخرى ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالدور التربوي لحسن البنا، تلك هي أن يكون هو نفسه مثلاً عملياً لما يعلمه ويربي الناس عليه، فإذا كان يعلمهم الصمود أمام إغراءات الشهوات والثروات والمناصب فلا بد أن يأخذ هو نفسه بها، وقد فعل الإمام البنا هذا، فلم يسع إلى تكوين ثروة وعاش على مرتبه، ولم يملك "عربية" ولكنه كان يركب المواصلات العامة أو عربات الإخوان الذين كانوا يسعدون كل السعادة بأن يكونوا "سواقين" للإمام، ولم يتذوق طيبات المأكل ولم يلبس أحدث الأزياء، لقد كان متقشفاً بصورة طبيعية لا تكلف فيها.

إن "القدوة" - مجرد القدوة - هي أعظم درس تربوي يؤثر في النفوس ويصل إلى الأعماق، ومن أجل هذا قال الله تعالى " لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ"، وقد كان للصحابه أسوة، بالرسول ﷺ، كان لأبي بكر ولعمر ولعلي - رضي الله عنهم - أسوة جعلهم هذا خلفاء راشدين تلهج الألسنة بمدحهم ويجمع الناس على احترامهم

إن باب الخلود ليس مغلقاً، ولكنه مفتوح لمن يدفع ثمنه من إخلاص وعناء وتضحية، وما أقلهم، وقد كان حسن البنا من هذه القلة (*).

(*) نشرت بجريدة القاهرة ، العدد (٩٦) في الثاني عشر من فبراير سنة ٢٠٠٢م.

التجربة الثمينة المجهضة

الجيش درع الشعب

بعد خمسين عاما من وفاة محمد علي، ظهرت روح جديدة في المجتمع المصري بعد حكم عباس الأول، ثم سعيد، وأخيراً إسماعيل الذي تزامن الجزء الأخير من حياته مع ظهور النهضة.

بالإضافة إلى العوامل السياسية والاقتصادية التي استحدثت الأحداث وعرضت البلاد لمخاطر جمة المشاعر، وأرهفت المشاعر، وجعلت الكثيرين يرون ضرورة القيام بعمل ما لإنقاذ البلاد، فإن من أكبر العوامل التي ساعدت على تهينة المناخ الفكري كان ظهور جمال الدين الأفغاني وبقائه في مصر ثمان سنوات استحثت الهمم وأيقظت العزائم، وجذب إليه مجموعة من أبرز الشخصيات كان يتحدث معهم كل مساء في جلسته بمقهى متاتيا حيث يلتفون حوله على هيئة نصف دائرة، مجموعة ينتظم فيها اللغوي والشاعر والمنطقي والطبيب والكيميائي والتاريخي والجغرافي والمهندس والطبيعي، فيتسابقون إلى إلقاء أدق المسائل وبسط أعوص الأحاجي لديه، فيحل عقد أشكالها فرداً فرداً، ويفتح إغلاق طلاسما ورموزها واحداً واحداً بلسان عربي مبين لا يتلعثم ولا يتردد، بل يتدفق كالسيل من قريحة لا تعرف الكلال فيدهش السامعين، ويفهم السائلين، ويبكم المعترضين، ولا يبرح هذا شأنه حتى يشتعل رأس الليل شيباً، فيقفل إلى داره بعد أن ينقد صاحب المقهى كل ما يترتب له في ذمة الداخلين في عداد ذلك الجمع الأنيق"، على ما قاله سليم عنجوري الذي عاصره.

وفي موضع آخر يقول:

وأخذ يقرب منه العوام، ويقول لهم أثناء مكالمته ما معناه إنكم معشر المصريين، قد نشأتم في الاستعباد وتربيتم في حجر الاستبداد وقد توالى عليكم قرون من زمن ملوك الرعاة حتى اليوم، وأنتم تحملون عبء نير الفاتحين و تعنون لوطاة الغزاة الظالمين، تسومكم حكوماتهم الحيف والجور، وتنزل بكم الخسف والذل، وأنتم صابرون، بل راضون، وتنزف قوام حياتكم وسواد غذائكم المجموعة ما يتحلب من عرق جباهكم بالمقرعة والسوط، وأنتم في غفلة معرضون فلو كان في عروقكم دم فيه كرات حية، و في رؤوسكم أعصاب تتأثر فتثير النخوة والحمية لما صبرتم على هذه الضعة والخمول، ولما قعدتم على الرضاء وأنتم ضاحكون تناوبتكم أيدي الرعاة ثم اليونان والرومان والفرس ثم العرب و الأكراد والمماليك والعلويين كلهم يشق جلودكم بمبضع نهمه، ويهيبض عظامكم بأداة عسفه، وأنتم كالحصوة الملقاة في الفلاة لا حمى لكم ولا صوت، انظروا أهرام مصر وهيكل منفيس وآثار طيبة ومشاهد سيوة وحصون دمياط، فهي شهادة بمنعة آبائكم وعزة أجدادكم !!

ونقلت بعض المصادر في استشارته للفلاحين:

أنت أيها الفلاح المسكين تشق قلب الأرض لتستنتب فيها ما تسد به الرمق، ويقوم بأود العيال.. فلماذا لا تشق قلب ظالمك، لماذا لا تشق قلب الذين يأكلون ثمرة تعبك ؟

ووصف محمد عبده أثره:

".. وبينما الناس على هذا لا كاتب ينبههم ولا خاطب يعظهم إذ عرض أمر قلما يلتفت إليه أو تحول الأنظار حواليه، وأن كان مما يعرض في كل مكان، وجرت به السنة الإلهية في كل زمان.

جاء إلى هذه الديار سنة ١٢٨٦م رجل غريب، بصير في الدين عارف بأحوال الأمم واسع الاطلاع جم المعارف جرئ القلب هو المعروف بالسيد جمال الدين الأفغاني، وركن إلى الإقامة في مصر فتعرف إليه في بادئ الأمر بعض طلبية العلم، ثم اختلف إليه كثير من الموظفين والأعيان ثم انتشر عنه ما تخالفت آراء الناس فيه من أفكار وعقائد، فكان ذلك داعياً لطلب الاجتماع به لتعرف ما عنده ثم اشتغل بالتدريس ببعض العلوم العقلية وكان يحضر دروسه كثير من طلبية العلم ويتردد على مجالسه كثير من العلماء وغيرهم، وهو في جميع أوقات اجتماعه من الناس لا يسأم من كلام فيما ينير العقل، أو يطهر العقيدة أو يذهب بالنفس إلى معالي الأمور أو يستلفت الفكر إلى النظر في الشئون العامة مما يمس مصلحة البلاد وسكانها، وكان طلبية العلم ينتقلون بما يكتبونه من تلك المعارف إلى بلادهم أيام العطلة، والزائرون يذهبون بما ينالونه إلى أحبائهم، فاستيقظت مشاعل، وانتبهت عقول، وخف حجاب الغفلة في أطراف متعددة من البلاد خصوصاً في القاهرة". انتهى.

ويتضح أثر الأفغاني عندما نقارن أسلوب خطاب أعضاء مجلس شورى النواب في نوفمبر سنة ١٨٦٦م في الرد على خطبة افتتاح المجلس التي ألقاها إسماعيل باشا وأفتتح هذا الرد "بعدما تشرفنا بالإصغاء للمقالة الجليلة الجامعة جوامع الكلم الجميلة نبادر إلى الاعتراف بما حوته بغاية الانشراح وكمال الارتياح.. الخ.

إذا قارنا هذه الافتتاحية بافتتاحية المجلس سنة ١٨٧٩م بعد حضور الأفغاني سنة ١٨٧١م وجاء فيها:

"نحن نواب الأمة المصرية، المدافعون عن حقوقها الطالبون لمصلحتها التي هي في نفس الأمر مصلحة الحكومة" يتضح الفرق.

وفي ٢٧ مارس سنة ١٨٧٩م رفض المجلس الانفضاض وطاعة رياض باشا رئيس النظار و أصر على الانعقاد في جلسة تعيد إلى الذهن جلسة نواب فرنسا ورفضهم الانفضاض قبيل الثورة الفرنسية.

و في ٢ أبريل اجتمع النواب والأعيان والشيوخ في دار إسماعيل باشا راغب ووضعوا وثيقة أطلق عليها اللانحة الوطنية أريد بها تسوية قضية الديون وإقامة حكم دستوري له، و في اليوم الثاني ٣ أبريل استجاب إسماعيل باشا لهذه الإرادة الشعبية فكلف شريف باشا بتشكيل وزارة على أساس المسؤولية الوزارة أمام مجلس النواب بخطاب افتتحه "أني بصفة كوني رئيس الحكومة ومصرياً أرى من الواجب علي أن أتبع رأي الأمة وأقوم بأداء ما يليق بها جمع الأدلة الشرعية.

ونهض شريف باشا بمهمته فوضع دستور ١٨٧٩م الذي قرر مسؤولية الوزارة وحق نواب السودان في التمثيل في المجلس.

وغمرت البلاد موجه من الفرح والسرور والاستبشار و أقيمت الاحتفالات في كل ناحية.

وكان صدور دستور ١٨٧٩م وتشكيل الوزارة الوطنية برئاسة شريف باشا نتيجة طبيعية للروح الوطنية الحماسية التي اجتاحت البلاد يمكن أن توتى أفضل التجارب.

ولكن...

تدخلت الدول الأوروبية وتوصلت إلى عزل إسماعيل باشا في الفترة التي كان قد بدأ فيها الإصلاح وتولى الحكم توفيق باشا، وكان نقيضاً لوالده، إذ كان ضعيف الشخصية، جبناً رعيدياً، لا يدخل معركة ويؤثر أن يستجيب لمطالب الدول الأوروبية، فبدأ سياسة تخالف تماماً السياسة الوطنية، وبعد أن كان يقول لجمال الأفغاني "أنت أملى في مصر أيها السيد"، فإنه بادر بطرده بطريقة فجأة، ثم أقال وزارة شريف باشا وشكل

وزارة من شخصيات عرفت بکراهيتها للإصلاح كان منهم عثمان رفقي الشركسى وزيراً للحربية الذي بدأ اضطهاد الضباط المصريين "الفلاحين" الذين اشتركوا في الحملة الوطنية.

ظهر جلياً إن حركة نکوصية تستهدف القضاء على الدستور ١٨٧٩م ومبدأ المسئولية الوزارة تسيير قدماً، ويمكن أن تهدم كل ما وصلت إليه النهضة، وأن وزارة رياض باشا بدأت هذه العملية.

لم يكن هناك من قوة يمكن أن تقف أمام هذه الحركة إلا الجيش وكان على الجيش أن يقوم بتجربة يحذر فيها من أن تكون انقلاباً عسكرياً، وفي الوقت ذاته يحمي نفسه من انتقام الحاكم.

وهذا هو قدمته مظاهرة عرابي في ميدان عابدين يوم ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١م.

إن عبقرية ما حدث ذلك اليوم أن الجيش لم يتحرك وحده، ولم يتحرك باعتباره (طليعة) الشعب، كما أطلقت حركة ٢٣ يوليو على فصائلها عندما تحركت في ظلام ليلة ٢٣ يوليو، أو كما أطلق لينين على حزبه ليحدد علاقته بالطبقة العاملة، لأن (الطليعة) لها إرادتها ورؤيتها الخاصة، وقد تستقل عن الكتلة الرئيسية وهو ما لا بد أن يحدث عند نجاحها، وعندئذ يصبح لها وجود مستقل، وربما مضاد للشعب والجيش.

ولم تأخذ حركة سبتمبر سنة ١٨٨١م شكل التنظيم التأمري الذي يعمل في ظلام الليل ويتعرض لما يتعرض له كل تنظيم سرى من مآزق الأمر الذي تعرضت له الأحزاب الشيوعية وحركة ٢٣ يوليو - كما لم يكن هبة تلقائية كهبة الشعب في ثورة ١٩١٩م كان هناك مقدمات تفرض التحرك، وبدأ التحرك في وضح النهار، وعلى ملاً من الشعب وكان الالتحام وثيقاً ما بين الشخصيات العامة وقادة الجيش نتيجة لإيمان الجميع بفكر الأفغانى فاستهدف تحقيق ما كان يطالب به دائماً - وما لا يمكن أن يطعن في شعبية طلبه، ألا وهو "الدستور".

ظهور الجيش أولاً وعلى رأسه أحمد عرابي ووراءه تماماً صفوف الشخصيات العامة التي تمثل الشعب بهيئة توحى أن الجيش هو درع الشعب أنه هو الذي يتحرك، ولكن من وراء درعه الحامي: "الجيش".

أمن الجيش أن يبطش به الحاكم لأن الشعب ووراءه، وأمن الشعب أن يبطش به الحاكم لأن الجيش أمامه، وقبل الجيش أن يعود إلى ثكناته دون أو ينكث الحاكم لأنه في حماية الشعب و لأن ما طالب به هو ما يضمن الحرية أي الدستور.

كانت - ولا تزال - هذه الصيغة هي المثلى، لأنه إذا تحرك الجيش وحده فلا مناص من الديكتاتورية العسكرية المشنومة، و إذا تحرك الشعب وحده فسيحققه الجيش - أو حتى الحزب كطليعة فسينتهي الأمر بالانفصال ما بين الطليعة والكتلة، والصورة المثلى هي أن يكون الجيش درع الشعب - بحيث لا يمكن أن يعمل أي "الجيش" مستقلاً أو مستغلاً، وإنما يكون درع الشعب الذي يمكن للشعب أن يخلعه عندما يبدأ مسيرته المدنية، ويمكن أن يضعه إذا تطلب الأمر ذلك.

وقد نجحت الحركة وسقطت الوزارة الطاغية، وصدر القرار بمنح الدستور واتخاذ الإجراءات لانعقاد مجلس النواب، عندما تحركت قوى الشر الأوربية ومارست سلسلة من المناورات انتهت باحتلال وإجهاض هذه المحاولة.

ولكن هذا لا ينفي أن هذه الصيغة وحدها هي التي تتيح للشعوب الخلاص من رمضاء الملكيات الفاسدة دون أن تقسط في نار العسكريات الغاشمة^(*).

(*) نشر بجريدة القاهرة يوم الثلاثاء الموافق ١٢/٥/٢٠٠٠م.

درس طالبان

كان للإسلام تاريخ زاهر عريق في الهند، فقد بدأ فيها من الخلافة الراشدة ثم استكمل في الخلافة الأموية، وقامت دول إسلامية زاهرة حكمت الهند باستثناء بعض الولايات الصغيرة، وكان من الممكن وقتئذ أن تصبح الهند بأسرها دولة مسلمة، لولا أن الفساد تطرق إلى أعظم الأسرات المسلمة الحاكمة "المغول" الذي سيطر عليهم الترف، فعكفوا على اللذات وعلى المظاهر وبناء القصور المشيدة، فشغلوا بها عن إقامة العدل وتعميق الإسلام، وكان آخر أباطرتهم العظام "أورانج زب" حاكماً مسلماً مثاليًا، ولكنه جاء بعد أن اتسع الخرق على الراقق، فلم يستطع أن يوقف التدهور الذي انتهى باستيلاء بريطانيا عليها، وقام المسلمون في منتصف القرن التاسع عشر بثورة زلزلت الحكم البريطاني وكادت تؤدي به، ولكن الإنجليز في النهاية انتصروا ونكّلوا بالمسلمين شر تنكيل فصادروا ثرواتهم وقتلوا كل قياداتهم، وطردوهم من المناصب، واصطنعوا الهندوس، وكانت تلك نقطة البداية في ظهور الهندوس وغلبتهم على المسلمين.

في هذا الوقت كان قد ظهر بالهند علماء مسلمون يتسمون بالتفاني في خدمة الإسلام وبوجه خاص السنة، وعكفوا على طبع الكثير من كتب التراث ووجدوا المساندة من نظام الملك حاكم ولاية حيدر آباد الدكن، والذي تزوج من إحدى سليلات السلطان التركي عبد الحميد، ونتيجة لهذه الدراسات نشأت حركة سلفية حديثة قوية في الهند.

وبعد فترة من الزمن، ومع وقوع تطورات عديدة تبلور الفكر الإسلامي الهندي في تيارين، وكان أحد هذين التيارين تيار يتسم بالواقعية، ويرى أن نهضة المسلمين لا بد أن تتم بتعرفهم على العصر وإحكامهم لأساليبه بحيث يكونون في موقع قوة ويستطيعون تحقيق الإصلاح الإسلامي، وكان قائد هذا التيار أحمد خان الذي كان يعمل بالخدمة المدنية، وكان قد أنقذ عددًا من السيدات البريطانيات خلال الثورة الهندية من عدوان الجماهير فشكرت له الحكومة هذا الصنيع، مما شجعه على تطبيق فكرته بتأسيس "كلية عليكرة" التي تقدم الدراسات العصرية للطلبة المسلمين، دون أن تغفل الدراسات الإسلامية بصورة جديدة تقوم على تهيج وتحقيق.

أما التيار الثاني فقد تولاه العلماء السلفيون العاكفون على دراسة الحديث النبوي والسنة وأسسوا في "ديوبند" معاهد لتقدم الدراسات التراثية والتقليدية بالطريقة القديمة التي يكون محورها النقل لا العقل والالتزام لا التفكير، والتي تكون مادة الدراسة فيها بوجه خاص السنة.

ونجحت كلية عليكرة في استقطاب النخبة المسلمة الطامحة للتقدم والمشاركة في حياة العصر وأصبحت جامعة وأطلق على السيد أحمد خان لقب سير، بينما اكتسبت مدرسة ديوبند انتشاراً أفقيًا، فعمت المدارس على شاكلتها في كثير من أنحاء الهند وفي الأفغان المجاورة، وأقبل عليها عامة الشعب الذي يحكمه الشعور الديني ويرون أن أي تجديد في الأساليب القديمة بدعة، وأن أي تطوير لها انحراف.

وظل الأمر كذلك حتى دخلت القوات السوفيتية بلاد الأفغان بعد أن استقدمتهم حكومة شيوعية عميلة، وظهر "المجاهدون" والفدائيون الذين تقاطروا على الأفغان، وتمكنوا من طرد السوفيت، ولكنهم للأسف

الشديد انقلبوا على أنفسهم وقامت حرب مريرة بين فصائلهم وبدلاً من أن يتحدوا لبناء بلدهم الذي أرهقته الحرب مع السوفيت، فإن الصراع على السلطة شغلهم وبددوا قواهم في حرب بعضهم بعضاً.

وأدت هذه الحروب إلى ظهور "قادة ميدانيين" يحكمون حكماً مطلقاً، ويعيشون على السلب والنهب ومصادرة الأموال، كما انتشر بينهم الفساد الخلقي وأخبار اغتصاب السيدات، بحيث لم يعد ركن واحد في البلاد أمناً من عريضة هؤلاء القادة "أمراء الحرب" مما جعل الناس في كرب وبلاء.

وفي إحدى المدارس الديوبندية كان الطالب محمد عمر يشهد الأحداث بقلب دام، وآمن أن ما درسه يفرض عليه أن يعمل بقدر ما يستطيع للقضاء على هذه المنكرات، فاتصل بزملاء له - حوالي خمسين طالباً - وتمكنوا بعدد من البنادق القديمة مباغثة أحد القادة والتغلب عليه وغنموا سلاحه، وأعادوا الكرة مع غيره، وكان مما سهل لهم التغلب عليهم أن الفساد كان قد استشرى بين القادة الميدانيين وخذلتهم الشجاعة وأنهم كانوا يحاربون بعضهم بعضاً، مما مكن "طالبان" من الانتصار ومن أن يحسموا شأفة الصراعات والعريضة ويحققوا الأمن والأمان والاستقرار، فأيدهم الشعب حتى انطلقوا انطلاقاتهم الكبيرة، فاستولوا على كابل وعلى ٩٠% من أرض أفغانستان.

ولا يمكن الادعاء أن طالبان حاربوا للوصول إلى السلطة إنهم حاربوا لإقامة الدولة الإسلامية، كما تصوروها ولهذا يحمل رئيسهم لقب "صاحب الفخامة" أو "جلالة الملك" أو حتى رئيس الجمهورية، ولكن أمير المؤمنين ولم يقسموا كعكة السلطة إلى وزارات ومناصب.. الخ، ليتمكن لكل واحد أن يقضم منها قضمه، كما لم يحرصوا على مال أو مظاهر، بل كانوا في تقشفهم كالخلفاء الأوائل وكان معظم ما لديهم من سلاح هو ما غنموه من القوي المتصارعة التي هزموها.

إذا كانت طالبان قد وحدت أفغانستان وأراحت شعبها المعذب من صراع أمراء الحرب، وإذا كانت تريد أن تقيم دولة إسلامية دون طمع دنيوي فلماذا لم تنجح طالبان؟.

لم تنجح طالبان لأسباب عديدة، لعل أهمها شأننا أن العالم أجمع لا يعترف بها - باستثناء جارتها باكستان - ووجدت نفسها دولة لا يعترف بها إلا دولة أخرى وكأنها قبرص - التركية التي لا تعترف بها إلا تركيا.

ولكن هذا ليس له قيمة، فقد أحاطت الدول الرأسمالية الاتحاد السوفيتي الناشئ بما أطلقوا عليه "الحجر الصحي"، وأقاموا سوراً قطعاً عن العالم الخارجي، فلم يأبه الاتحاد السوفيتي، بل جعله ذلك يركز على العمل الداخلي وبناء الدولة.

الخطأ الرئيسي جاء من أن الثقافة الدينية لطالبان التي استقاها من الأحاديث بصفة عامة صورت لهم أن من الممكن إقامة دولة في هذا العصر على الأسس، وبالطريقة التي قامت بها الدولة الإسلامية في عصر الرسالة والخلفاء الراشدين، وكانت معظم هذه الأحاديث ضعيفة ولكن المحدثين قبلوها بمختلف التعلات وبفكرة تعميق حاسة التقوى والورع على حساب حقائق الحياة.

كما لم يلاحظوا أو يفرقوا ما بين الأوضاع التي حكمت القرون الأولى وأوضاع المجتمع الحديث، ومن ثم انطلقوا بكل قوة الإيمان في تطبيق ما آمنوا به من قراءاتهم.

قرءوا أن الرسول حطم أصنام مكة وأرسل قاداته لتحطيم أصناف ثقيف وبقية العرب فأعملوا معاولهم هدمًا في "أصنام" بوذا.

قرءوا أحاديث لا حصر لها عن أن المرأة عورة وأن مرآها يثير الفتنة، وأن الحجاب الإسلامي هو النقاب الكثيف الذي لا يجعلها تبدي إلا عيًّا واحدة - قيل أنها اليسرى - وأن مكان المرأة البيت.. الخ.

ففرضوا هذا كله على المرأة الأفغانية، فأغلقوا مدارس البنات وحرموا كل صور العمل على المرأة.

وقرءوا أحاديث عديدة تحرم المعازف والموسيقى وتتوعد من يسمع الغناء بأن يُصب في أذنيه "الآنك" أي الرصاص المصهور، فعمدوا إلى إيقاف كل صور الفنون التي تدخلها الموسيقى أو المرأة.. الخ.

وقرءوا أن حلق اللحية من الكبائر، وأن تطويل الثوب للرجال رياء وتقصيره للنساء منكراً فالتزموا بذلك.

إلى آخر ما تمتلئ به صفحات كتب الأحاديث.

وكانوا في هذا أمناء مع أنفسهم، ورفضوا كل الفتاوى التي تقدم بها علماء المسلمين، لمخالفتها لما قرءوه.

كان هذا هو الخطأ القاتل الذي أدى إلى فشل تجربة طالبان في إقامة دولة إسلامية.

ذلك لأن الأحاديث التي أقاموا عليها نظامهم كانت أحاديث موضوعة وضع بعضها كائدون للإسلام ووضع البعض الآخر الصالحون المغفلون "حسبة" كما قالوا وحتى يعمقوا الإيمان في نفوس الناس، فوضعوا أحاديث توقع العذاب الرهيب على أهون الذنوب وأحاديث تعطي الجنة بغير حساب للذين يكثرون من الدعاء ويقيمون النوافل من الصلوات.. الخ، وجريرة هذه الأحاديث ليس فحسب أنها تقلب المعايير، ولكن أنها تشل العقل وتعطل ملكة التفكير وعندما يحدث هذا، فلا أمل في إقامة مشروع فضلاً عن بناء دولة.

إن "درس طالبان" هو أنه لن تحدث نهضة إسلامية، ولن تقوم أمة إسلامية، ولن يقرر لهذه أو تلك البقاء إلا بعد اجتثاث هذه الغشاوات والإضافات التي حجبت روح الإسلام وجوهر الإسلام وأحلت محله أحكام عصور ساد فيها الاستبداد، والامية، والجهالة.

إنه لدرس رهيب فهل من مدكر..؟

انتفاضة المصونات في بريطانيا

كان القانون البريطاني متأثراً إلى حد كبير بالقانون الروماني فيما يتعلق بالمرأة، وكان القانون الروماني يعطى الزوج سلطة مطلقة على زوجته قبل الزواج كانت هذه السلطة في يد الأب ويذكرون من أساليب الزواج طريقة البيعة التي كانت تدخل المرأة تحت سلطان الرجل بوضع اليد أي بشيء كأنه البيع فهو يتم بحضور خمس شهود رومانيين بالغين راشدين وميزان ووزان، ثم يشتري الزوج المرأة فتدخل في سلطته.

وتقضى الفقيه الإنجليزي الأستاذ (ديسى) وضع المرأة البريطانية، فقال أن القانون العام (أو الشريعة) كان يجعل الزوجين شخصية واحدة يمثلها الزوج وبالتالي يكون له حق التصرف التام في كل أملاك وأموال زوجته ولا تستطيع ممارسة شئ من ذلك ثم عمل قانون العدالة والإنصاف على أن يحقق شيئاً فشيئاً قدرًا من العدالة للمرأة وكان قصارى ما وصل إليه إعطاء المرأة حق التصرف في أموالها عن طريق وصى أو قيم وأن يكون لها حق مقيد في التعاقد، وظل هذا حتى سنة ١٨٧٠، وكان هذا الجزء من العدل مقصوراً على النساء الثريات اللاتي يقمن بما يسمونه (تسوية) عند زواجهن، أما بقية النساء، فإن كل أملاكهن بل الكسب الذي يحصلن عليه بعملهن يكونان من حق الزوج.

ومن هنا فقد كان يوجد ليس فحسب من الناحية النظرية بل من ناحية الواقع قانون خاص للأغنياء وقانون خاص للفقراء، وظل الوضع كذلك حتى صدور قوانين ممتلكات المرأة ما بين سنة ١٨٧٠ وسنة ١٨٩٣ التي حاولت تسوية النساء الفقيرات بالغانيات ولكن هذه القوانين (لم تثر البلبلة بين لمحامين فحسب، بل والقضاء أيضاً على حد قول (ديسى)).

لعل هذا التمييز القانوني ما بين الرجل والمرأة يجعلنا نفهم تمرد النساء على هذا الوضع ومطالبتهن بالمساواة، وكانت القناة المشروعة التي يمكن أن تحقق التغيير المنشود هي أن يكون للنساء حق التصويت والترشيح بحيث يمكن انتخاب عضوات في مجلس العموم يعملن على تغيير الأوضاع القانونية للمرأة وظهرت حركات عديدة من منتصف القرن التاسع عشر دون أن يأبه لها المجتمع البريطاني أو يأخذها مأخذاً جاداً مما جعل الحركة تأخذ طابعاً جديداً مع بداية القرن العشرين وظهور جماعة (السوفرجيت) ورزقت في أسرة (بانكهريست) خاصة الابنتين كريستابل (ولدت سنة ١٨٨٠)، وسيلفيا (ولدت سنة ١٨٨٢) مقاتلتين عنيدتين مصممتين.

وبعد خمسين سنة من العمل بطرق الابتهاال والرجاء والاتصال اضطرت الحركة لأن تلوذ بصور من العنف وصلت إلى قمته سنة ١٩١٣ فأخذت الهيئة في تحطيم شبابيك الوزارات والهيئات العامة وسكب الأحماض في صناديق البريد أو إشعال النار في القصور الصيفية الخاوية أو إفساد اللوحات في معارض التصوير، أما المظاهرات والمسيرات فكانت شيئاً مستمراً وكان البوليس يقبض على المتظاهرات ثم يضطر إلى الإفراج عنهن ليقبض عليهن مرة أخرى، وأضربت بعض السجنيات عن الطعام حتى الموت فاضطرت إدارة السجن لتغذيتها قسراً، وحرقت فيلا رئيس الوزراء (لويد جورج) في الوتن وقدرت خسائر الحرائق بخمسمائة ألف جنيه وفي يونيو من عام ١٩١٣ ألقى الأنسة إميلي دافيسون بنفسها تحت أقدام جواد الملك

خلال سباق الدربي وماتت وأيد الدعوة فريق من الرجال والنساء بعضهم من الفئات العليا في المجتمع ولكن الأغلبية كانت معارضة وكانت أشد المعارضات هي الملكة فيكتوريا التي دعت كل الكتاب والمفكرين لمقاومة تلك "الدعوى الشريرة المجنونة الحمقاء حول حقوق المرأة"، وقالت إن الله تعالى خلق المرأة والرجل مختلفين فلدعهما كذلك وأن المرأة التي تتجرد من أوثنها ستكون مثيرة للتقزز وستحرم من حماية الرجل التي يضيفها عليها وختمت الملكة نداءها بأن أي سيدة من النبيلات تؤيد هذه الدعوى يجب أن تجلد.

وانقسم مجلس الوزراء ما بين مؤيد ومعارض وكان لويس هاركوت أشدهم معارضة بصورة جعلت لورد هيويسيل يقول (إن من الصعب أن يصدق الإنسان أنه قد ولد من امرأة) وكانت هناك رابطة ضد المصوتات ترأسها المسز (همفري وارد) التي اصدرت رواية بعنوان (روبرت الزمير) قيل إنها كانت محل الإعجاب الشديد من جلادستون.

ونشبت الحرب العالمية الأولى والمعركة على أشدها. فكانت أشبه بدوامة ابتلعت الحركة مع حركات أخرى مثل (السينديكالية) وغيرها، وانغمست المرأة البريطانية في خدمة مجتمعها خلال سنوات الحرب الكالحة بصورة نالت الإعجاب، بحيث لم تكد الحرب تنتهي حتى منحت المرأة حق التصويت وكانت المرأة الأولى انتخبت سيدة من ثوريات (الشين فين) في أيرلندا وإن حملت لقباً من ألقاب النبالة تدعى (كونستانس ماركيفيتز)، ولهذا لم تستطيع أن تشتغل مقعدها وكانت العضوية التي تلتها هي (ليدى استور) القادمة من أمريكا.

إن حركة المصوتات توضح لنا كيف أن الحكومة البريطانية عندما أصمت أذنيها عن المطالب العادل - أي منح نساء بريطانيا حق التصويت فإن هذه الحركة النسائية - أبعاد الحركات عن العنف - اضطرت إلى أن تلوذ بصور من العنف، ومارست صورة (استشهادية) قد تختلف عن استشهادية شابات فلسطين، ولكنها في جميع الحالات تعبير عن الجود بالنفس في سبيل المبدأ وهو ما يمكن أن يعطينا مؤشراً على دوافع (الإرهاب) كما يقولون و(العنف) كما هو التكيف الصحيح، وأن سببه هو تعنت الحكومات وعدم الإصغاء لإرادة الجماهير.

ويثبت هذا بطريقة (المخالفة) كما يقولون أن الحكومة البريطانية عندما تبينت خطأها وعندما شاهدت من بطولات المرأة في الحرب ما يجعلها تعترف بها مواطناً كاملاً، له حق التصويت والانتخاب فإن صور العنف قد اختفت وحل محلها سلام وتجاوب ما بين الشعب والحكومة.

أعطوا الشعوب حريتها تنتفي شافة الإرهاب كما يقولون، والعنف كما نقول (*).

(*) نشر بمجلة حواء ، العدد (٢٤٦٩) ، في ١٧/١٠/٢٠٠٤م.

حرية الإبداع

بين مقتضيات الوظيفة وانطلاقة الفكر

يجب أن يكون معلوماً أن مقتضيات الوظيفة تفرض نفسها لأن هذا هو طبيعة الأشياء.

وأن وزارة كوزارة الثقافة في بلد مؤمن بطبيعته وينص دستوره على أن مبادئ الشريعة الإسلامية هي الأصل في التقنين لا بد أن تكون أمينة على نص الدستور وعلى فطرة الشعب فلا تجعل من إدارتها أداة لترويج البذاعات الفاحشة أو حتى نماذج من حداثة منحرفة تعارض كلها قيم الإسلام.

كان من حق الأزهر أن يفصل الشيخ على عبد الرازق إذا دعا إلى نظرية تخالف النظرية التي يؤمن بها الأزهر

كما اعتقد أن جامعة القاهرة عندما رفضت أن يدرس الدكتور نصر أبو زيد لطلبته منهجاً في التفسير أو الفقه يخالف ما أجمع والمسلمون فإنها مارست حقاً مشروعاً، وأنها إذا وجدت أن إنتاجه لا يؤهله لمنصب أستاذ أو غير ذلك.

فهذا كله حقها طبقاً للترتيبات واللوائح التي تضعها ويلتزم بها المجتمع.

ونحن لا نرى في هذا كله ما يمس حرية الفكر لأن كل واحد من كل هؤلاء يستطيع أن ينشر على حسابه أو عن طريق أي دار خاصة ما يشاء، ولا يمكن أحد أن يقف في سبيله.

قد يقال من أين إذن لهذا المفكر أن يأكل ويعيش، فنقول إن حرية الفكر رسالة وليست وظيفة، وأن أي واحد يقبل الوظيفة يسجن نفسه ويستحيل عليه أن يكون داعية لحرية الفكر، وأحرار الفكر يعلمون هذا ويؤمنون أن هذه قسمتهم وأن عليهم أن يكافحوا، وأن يجوعوا في سبيل دعوتهم دون أن يمدوا أيديهم لأخذ مرتبات من وزارات أو جامعات لأن حرية الفكر قد تقتضي منهم أن ينتقدوا هذه الهيئات كهيئات أو ينتقدوا سياستها، وليس من الطبيعي أن ينقدوها ويأخذوا منها أجراً على هذا.

يجب إذن أن يكون معلوماً أن مقتضيات الوظيفة تفرض نفسها لأن هذا هو طبيعة الأشياء.. وأن وزارة كوزارة الثقافة في بلد مؤمن بطبيعته وينص دستوره على أن مبادئ الشريعة هي الأصل في التقنين لا بد وأن تكون أمينة على نص الدستور وعلى فطرة الشعب فلا تجعل من إدارتها أداة لترويج البذاعات والفاحشة أو حتى نماذج من حداثة منحرفة تعارض كلها قيم الإسلام.

وفي المقال الذي انتقدنا فيه سياسة مجلة الشعب من وليمة البحر وأشرنا إليه في مستهل المقال انتقدنا في الوقت نفسه أن تكون قصور الثقافة "نافذة على الاتجاهات الشاذة وكل ما يتقبله عالم ما بعد الحداثة من دعاوى أقرب من الترهات والانحراف وانعكاسات مجتمع غريب تماماً عن مجتمعنا".

وأود أن أقول لدرأويش الجنس لماذا الإبداع الجنسي وحده الذي تهتمون به، وتدافعون عنه وكل واحد يعلم أنه ليس إلا أداة لدغدغة الحواس، وإضرار الشهوات واكتساب الزواج الرخيص وأن ليس فيه من عمق الإبداع أو أصالة التعبير شيء، أين انتم من الإبداع الذي ينهض بالشعب ويبث في نفسه الإيمان بقيم العدالة،

والخير والجمال هل تعلمون أن الأدب الروسي أيام الحكم القيصري هو الذي نهض بالشعب الروسي، وعرفه على قيم الحرية والمساواة والعدل، وأضرَم في نفسه روح الكفاح ضد الاوتوقراطية ومظالم الحكم القيصري، أين أنتم من "تور جنيف" الذي صور في رواياته كفاح العدميين "النهليست"؟ أين أنتم من تولستوي الذي دعا إلى تحرير الأقتان، وتوزيع أراضي كبار الملاك؟ أين أنتم من دستوفسكى وحديثه عن بيوت الأشباح لقد كان الأدب الروسي هو النافذة التي أطلع منها شعب روسيا المكبل بالأغلال على عالم الحرية والكفاح؟

بل أين أنتم من طه حسين عندما وضع "المعذبون في الأرض" أو توفيق الحكيم في "السلطان الحائر" أو عبد الرحمن الشرفاوي في الكثير في إبداعاته؟

لماذا تحصرُون أنفسكم في مربع الجنس، ولماذا تقبلون الوظائف التي لم تكن في يوم من الأيام منطلقاً لحرية الفكر أو الإبداع فمن يتقاضى المرتبات لا يستطيع التباكي على الحريات.

وأنا أعتقد أن الإجراءات التي أتخذها وزير الثقافة لا علاقة لها بحرية الإبداع المزعوم، و أنه إذا كان هناك خطأ فهو أنه لم يقف مثل هذا الموقف اليوم من "وليمة الأعشاب البحر"، ولكن قد يكون له عذر، أما في الحالة الأخيرة فقد جاء التنبيه إليها من نائب يفترض أنه يمثل الأمة.. وأظن أن هذا أمر يجب أن يكون له احترامه.

وأخيراً همسه في أذان نواب الإخوان إن الدعوة إلى التحلل الجنسي سيئة ولاشك ولكن ممارسة الفساد الاقتصادي والإبقاء على القيود التي تكبل الحريات السياسية أكثر سوءاً وخطراً وعليهم أن يعلموا أن أمر الرعية تسير بالعدل مع الكفر ولا تسير بالظلم مع الإسلام فالحظوا - رعاكم الله - "فقه الأولويات" ولا تشتروا الذي هو أدنى بالذي هو خير.

وكونوا أولاً وقبل أي شيء دعاة عدل فهذا ما يليق بكم وما ينتظره الشعب منكم*).

(* نشرت بجريدة القاهرة ، بتاريخ ٢٣/١/٢٠٠١ ، العدد (٤١).